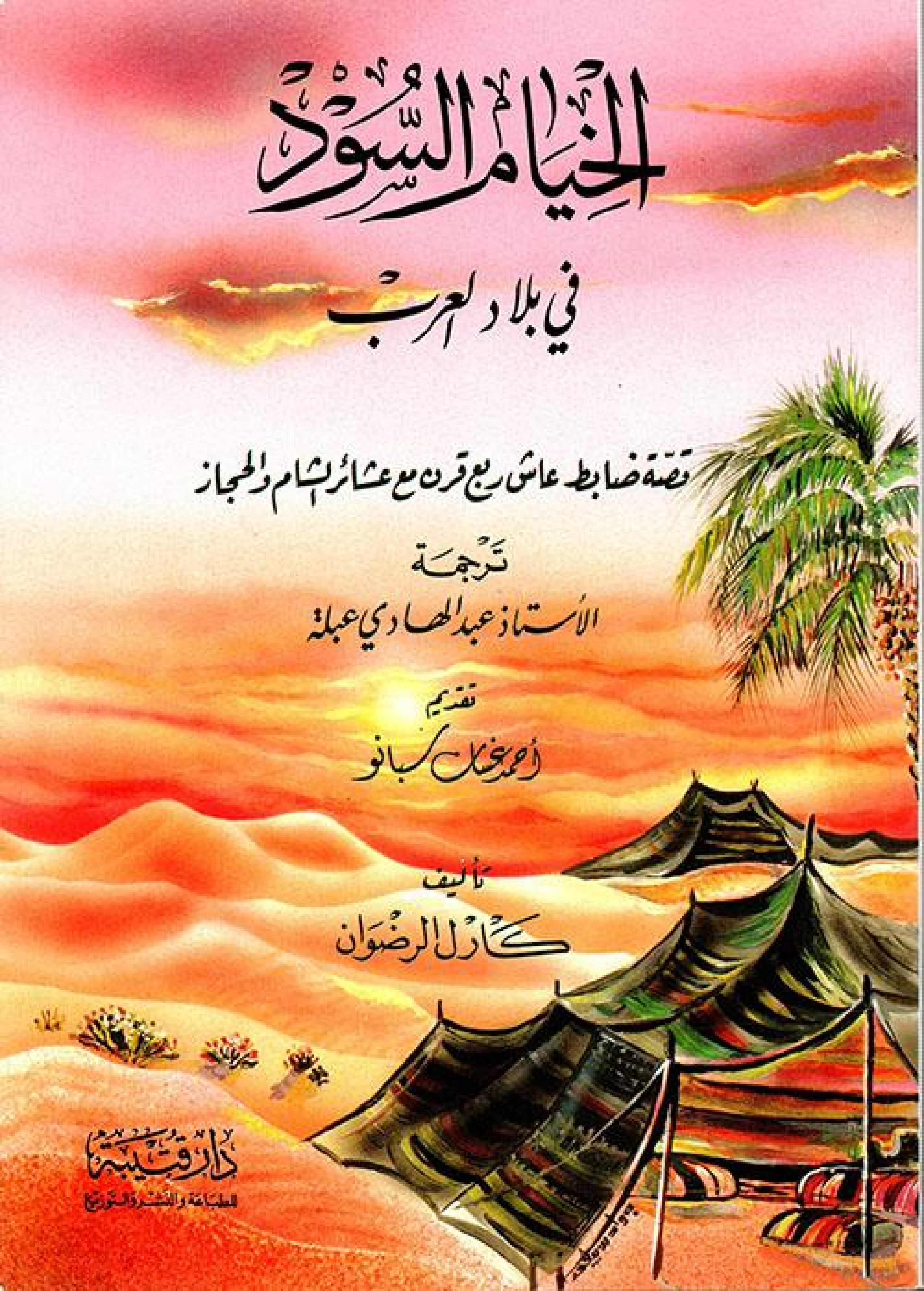
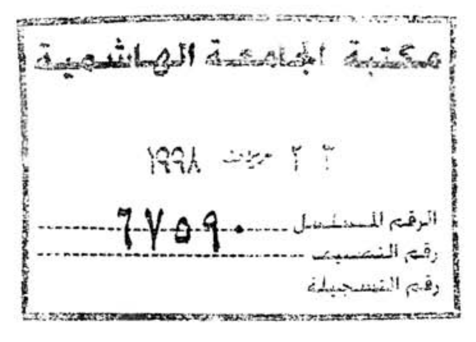

الخيام السود
في بلاد العرب
قصة ضابط عاش ربع قرن مع عشائر الشام والحجاز
ترجمة
الأستاذ عبد الهادي عبلة
تقديم
أحمد غسان سبانو
تأليف
كارل الرضوان
دار قتيبة
للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الاولى

١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م

مطبعة خالد بن الوليد
☎ ١١٢٦٩٤

مقدمة

الصحراء بحـــر الرمال الوهاجة بعبع الحضري المخيف وعالم بلا عـــودة للجاهل في فهم اسرارها وكشف الغازها .

الصحراء تكاد تكون بالنسبة للحضري مرادفة للموت والفنـــاء . يلفها الغموض وتذروها الرياح يشح ماؤها وتموت نباتاتهـــا وتتوهـــج لظى في أشهر الصيف وتغوص بركا في فصل الشتاء . يستوي برد ليلهـــا الصيفي مع برد نهارها الشتوي .

أما مـــن عبرها مرة فاخذ عنها بعض أسرارها فان للصحراء عنـــده معنى آخر انها الحرية بذاتها إنهـــا سكونة الابديـــة وآفاق الانســـان الواسعة اللامتناهية انها السحر بعينه انها الصفاء والحب والقوة بكـــل مافي هذه الكلمات من معاني . انها المدرسة الكبيرة والجهاد الاكبر . ففي كل ساعة فيها اختبار لقدرة الانسان وجلده وسرعة بديهيته وقياس لقدرته على التكيف مع الحيـــاة بشتى صنوفها واطوارها .

والبدوي ابـــن الصحراء يعيش فيها على فطرتـــه « بجلد وصبر يتحملون الحر والقر والجوع والظمأ والتعب والراحة والعمل والبطالة وكثرة المشي أو قلته بنفس واحدة دون تبرم او عجز » .

ورغم قساوة الصحراء فان لها سحراً لايعرفه الا من عاش فيها .

هذا السحر يدفع صاحبه بهوى مجنون الى العودة للصحراء للتمتع بسحرها وجمالها وصفائها .

ومعرفتنا نحن سكان الحضر بالبدوي معرفة سطحية تبدو كاحلام او كوابيس بعيدة تخفي عن اعيننا عالماً قائماً بذاته بكل ابعاده ومضامينه ومفاهيمه مع ان اصل نوعنا العربي السامي بدوي انطلق من شبه الجزيرة في موجات هجرة متلاحقة لاتنقطع طالما هناك فجر يسطع وقمر يغيب في اطار وشكل واحد مستمر ومتصل . يبدأ في غياهب الصحراء يدفعه لهيبها نحو الماء والخضرة فيقترب منها ليذوق طعم راحة وبحبوحة العيش فيبقى لايفارق الخضرة والماء ثم يدخل المرحلة الاخيرة ليستقر في ضاحية حضر مستعداً للاندماج في حياة الحضر .

لذلك قسم البدو الى ثلاثة اقسام الاول هم العشائر الجمالة أهل الابل ذوو النجعه البعيدة التي قد تستمر ٥٠٠ ــ ٦٠٠ كم فيتخذون بيوت الشعر يتنقلون مابين الصحراء العربية وبادية الشام حتى الفرات جنوبا وشرقاً وغرباً عبر السعودية والاردن وسوريا والعراق . والقسم الثاني العشائر الغنامة أو « النصف رحل » فنجعتهم محدودة تناسب قدرة اغنامهم وقد يمتلكون الارض ليزرعوها . وماشيتهم اما لوحدهم او لاهل المدن المجاورة يشاركونهم في تربيتها .

والقسم الثالث هم العشائر المتحضرة او أهل الدور وهم الاعراب الفلاحون « الفلاليح » الذين صاروا أهل قرى وبيوت وعكفوا على الحرث والزرع والبدوي عموماً يحب الغزو لانه الطريق الاسرع للثروة ولانه ميزان الفروسية وإثبات القدرة والحيوية فالغزو عند البدوي لايعني

---

(١) لطفا راجع مقال لاحمد وصفي زكريا في المقتطف عام ١٩٥٠ ص ١٤٧ ومابعدها .

مايعنيه عندها اهل الحضر من نهب وسرقة إنما يعني بالنسبة له اثبات وجود واستعراض قوى [١] .

واقتصاد البدوي يعتمد على الابل فهي نقوده ومهره وحله وترحاله يستفيد منها في الانتقال والحمل ويستفيد من لحمها ووبرها ولبنها وروثها وهو بنفس الوقت يسعى ويشقى في سبيلها لذلك اول ماينشده الماء والخضرة وبسبب الماء والخضرة يتم الانتجاع والغزو والاقتتال وتوزيع مناطق الصحراء بين العشائر وتنظيم الارتحال بما يناسب فصول السنة ومقدار المياه وتوزع الآبار التي تنتشر في الصحراء بدءاً من فجر التاريخ وحتى العصر الروماني فالاسلامي فالعثماني فالعربي[٣].

ونتيجة ذلك يقوم البدو بالمقايضة والمتاجرة مع سكان الارياف والمدن ضمن عادات وشروط معينة فبعض العشائر اعتادت ان يزورها التاجر لمناطق محددة في اوقات محددة . وبعضها « وعلى الاخص نصف الرحل » ترد المناطق الحضرية لتبيع الحليب والاغنام والمنتجات فعلى عاتق الرجل بيع الاغنام وعلى عاتق المرأة البدوية بيع الحليب والبيض والدجاج ولايجوز العكس في عرف البدوي .

وهناك مصادر اخرى لرجل البدو هو الغزو كما قلنا. كذلك للبدو وحسب المناطق اخذ الخوة سواء من العشائر البدوية الاضعف او من القرى والمزارع المجاورة . وللبدو حسب المناطق ايضاً وحسب قوة العشيرة الحق في قبض العسرة وذلك من قوافل الحجاج لتسهيل وصول الحجاج والحفاظ على سلامتهم وممتلكاتهم ولدلالتهم على الطرق

---

٢) راجع عارف العارف « بدور غزه » .

(٣) لطفا راجع البادية لعبد الجبار الراوي ص ٥٦ ومابعدها .

ومصادر المياه ولكن اذا لم يتسم دفع العسرة فان مصير القافلة النهب والسلب والقتل وقد نقل إلينا المؤرخون والرحالة والحجاج الكثير من الحوادث المشابهة لعل أكبرها ماوصفه لنا فولنين في رحلته إلى سوريا ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر •

وفي حالة فقد المـاء والعشب في السنوات العجـاف فان البدوي يتحول الى غاز على المدن والارياف وعلى القوافل وفي اوائل القـرن العشرين اخذ يهاجم خطوط السكك الحديدية ومحـطات النفط التي بنت منشآتها كحصون قوية لها ابواب وابراج حديدية •

وسكان البادية في شرقنا العربي في السعودية والاردن وسوريـا والعراق يشكلون نسبة عالية لابأس بها من عدد السكان مع انه لم يجر قط تعداد لهم ولسكان البادية منذ أقدم العصور وحتى وقتنا الحاضـر تأثير في الحياة السياسية لمنطقتنا ولروابطهم العشائريـة أيضا دور كبير لذلـك نجـد السلطات تتسابق لكسب ودهم منذ اقدم العصور وحتى العصور الاسلامية (والامويون والعباسيون) ثم المماليـك والاتراك وحتى الانكليز والألمان والفرنسيين وكان من ذلك ان اصدرت سلطات الاحتلال في كل من سورية والعراق والاردن قوانـين خاصة بالبـدو أغدقت فيها ميزات واحكام خاصة بهم وتسابقت في كسب ودهم •

ويأتي كتابنا هذا «الخيام السود» سلسلة من هذا التسابق فالكتاب بصف زيارة قام بها ضابط الماني قبيـل واثناء وبعد الحرب العالميـة الأولى ليكسبود اكبر عشائر المنطقة العربية الاوهي عشيرة الرولا بعد ان سبق زيارته زيارة لاحد الشخصيات الالمانية التي فشلت في كسـب ودهم • الا ان نتيجة زيارة مؤلف هذا الكتاب لم تسفر عن نتيجة فقـد

سبقه إليها والى كسب ودهـا لورنس الانكليزي وحاربت الرولا معـه وكان لهـا فتح شرقي الاردن وسوريا ودخول دمشق •

والرولا التي اخذت اسما من الروال وهو لغـة اللعاب والمرول الرجل الكثير اللعاب ولعل اساس الكلمة انهم قوم مرولون •

والروله من عشيرة عنزة بن وائل من خنأ مسلم ومن بطن الجلاس وهم اكبر عشائر عنزه عددا واعظمها قوة وهي من البدو الرحل اصحاب الاباعر وهي من اكبر العشائر نفوذاً في شرقنا العربي نتيجة قوتها وكثرة رجالها وتأثيرها على الحياة السياسية ومناصرتهـا للورنس الانكليزي ومحاربتها للاتراك وقد تقوت اكثر ايضاً بمصاهرتها لآل سعود تلـك المصاهرة التي تمت بين آل سعود وآل الشعلان الذين استلموا مشيخة الرولا لاكثر من مائة عام بعد ان أخذوها عن شيخها السابق الدريعي •

وقد اختلف الباحثون في تقدير عددها فمنهم من يقول خمسة آلاف بيت ومئة ألف بعير وخمسة آلاف شاة ومئة فرس ومنهم من يقول أكثر او اقل وقد قدر مؤلف، هذا الكتاب ان عدد البعير في مسيرة العشيرة نحو الشمال كانت تضم ستمئة ألف بعير •

وقد استلم مشيخة القبيلة بعد الدريعي المشهور فيصل الشعلان ثم هزاع بن نايف الشعلان • ثم سطان بن احمد بن منيف الشعلان ثم خلفه فهد ابن هزاع الشعلان • ثـم نوري الشـعلان وهو اقوى شخصيات الرولا واكثر مشايخهم قوة وجبروتاً وطول مقام (٥٠ عاما) ثم خلفـه فواز حفيده •

والرولة ينزلون في نجد والشام حول بئر القمة وعين الحياة والنركلس حسيه الجولان . وغوطة دمشق . منطقة الخيرات في الحماد القريتين من

محافظة حمص . درعا والزوية ويقضون الشتاء في منحـــدرات الشرق والجنوب من جبل عنزة حتى جوار الجوف [1] .

وينقسم الرولة الى بطون والبطون الى افخاذ والافخاذ الى فصائل والفصيلة الى بيوت .

وقد كان مقام نوري الشعلان في دمشق في الصالحية لذلك أطلق على الحي الذي فيه منزله اسم حي الشعلان ومنزله لازال قائماً وفيـــه احفاده .

والكتاب يقدم لنا وثيقة مهمة عن حياة الصحراء وعن نمط عيش البدوي وطريقة عيشه ومايهمه ومايغمه . مايفرحه ومايحزنه . والكتاب بالاختصار يقدم لنا الكثير مما نجهله عن صحرائنا واخواننا في البادية .



(1) راجع معجم قبائل العرب مادة الرولة .

بين يدي الكتاب

ينقل هذا الكتاب الرومانتيكي الغريب القراء من تعقيدات ولهو الحضارة الحديثة إلى الحياة الهادئة والخطيرة في الصحراء العربية وسكانها البدو .

كارل رسوان أحد الرجال القلائل الذين اخترقوا الصحراء المجهولة في شمال الجزيرة العربية وعاش مع البدو والمحاربين ليس كغريب عنهم بل كفرد متميز بأخوة الدم مع شيوخهم . واشترك في هجرة أكثر من ثلاثين ألف شخص ومئات الخيام وآلاف الجمال بحثاً عن الماء والمرعى . كما اشترك في معاناة الصراع الأبدي ضد الجوع والجفاف . وقد تكشف له من خلال ذلك المغامرة والحب والصداقة والشجاعة في الحياة البدوية .

وقد وصفت مجلة «السباكتاتير» كتاب (الخيام السود في الجزيرة العربية) بأنه أصيل وممتع بينما وصفته صحيفة «التايمز» بأنه « مستنير وحسن الصياغة وتثقيفي » . وكتب السيد ر . ب . كننغهام غراهام في صحيفة « الأبزورفر » قائلاً « إنه يصور أمامك الحياة العربية الكاملة ووجهة النظر العربية بوضوح مانراه في لمعان البرق » .



الى فارس ــ صديقي المخلص
عليك عهد اللــه وأمان اللــه
ليرقــد بســلام

نم ياسليل الحرب المقدام ولاتكترث لهياج
الرمال المتنقلة التي تتلاطم حول مرقدك
استرح أيها المحارب السعيد وانس بأمان
تلك الضربة التي لم تستطع احناء رأسك الشجاع
لان ـ في حياتك ـ في روحك وفي وجهك
بدا أن هدوءا سكن حكمتنا .
وترعرت الفضائل المحمودة كما لو أنها تبجل
فيك ذرية اسماعيل المغبون .
ولكن لو تناثرت أزهار الذكرى
في مروج علياء جنتك
تذكرها تلك المرأة المشرقة كندى الصباح
والتي مسحت عينيك بكمال حبها
إن تويما الشجاعة البراقة العينين
لاتزال تنتظر عند البوابات الذهبيه للانضمام الى عريسها

غومر وليامــز



تقديم

خلال السنوات الاثنتين والعشرين من اختلاطي بالبدو في الجزيرة العربية ـ في الترحال والصيد والفروسية والجوع والولائم ـ أقمت صداقات رائعة وإنني ممتن للكثير من أصدقاء الصحراء .

إلى « أمير أرض أجداده » ملك الجزيرة العربية عبد العزيز بن سعود الوهاب وأمرائه ورؤساء نجد والحسا والجوف والكف وممثلين في دمشق والقاهرة ولندن .

إلى الأمير نوري الشعلان وعائلته وقبيلة الرولة للفرص الفريدة التي مكنتني من اكتساب المعرفة الدقيقة بالتقاليد العربية والعادات البدوية والتجوال في المنطقة المجهولة حتى تفهمت روح بلادهم الغامضة وفكر سكان خيام اسماعيل السود وهي الفرصة التي مكنتني من جمع المواد التي أنتجت هذا الكتاب .

إنني أشعر بالكثير من الامتنان للفكرة التي اندلعت في قلبي من أعمال ومُثُل المرحومة الليدي آن بلنت التي ساعدتني في متابعة بحثي عن الحصان العربي الأصيل . وللسيد و.ك. كيللوغ الذي كرّس مراعيه ومزرعة الخيول في كاليفورنيا لطلاب تربية الحيوانات وهبة كافية لتأمين تربية الخيول العربية الأصلية .

إلى تشارلز دوثي وهو رحّالة انجلترا الكلاسيكي في « جزيـرة العرب »، إنني مدين له بأني ـ من أول أيامي في التيه ـ نظرت « يروح رقيقة » و « قلب رحيم » الى « الصحراء القاسية » و « عداوات البدو المتعصبة » وخرجت بالرضا الكامل لأنني عشت بطمأنينة تحت خيـام بني اسماعيل •

إنني مدين جداً «للشيخ موسى الرولي » (البروفسور أ • موسيل من براغ) لأن منشوراته تحت رعاية الجمعية الجغرافيـة الأمريكية في نيويورك مكنتني من الاهتمام الذكي الجديد برحلاتي في الجزيرة العربية وخصوصاً بين قبيلة الرولـة التي نعمنا بعشرتهـا (رغم أننا لم نلتـق أبـداً) كأفراد في عائلة الشيخ وقبيلته •

كما أنني مدين إلى « الكولونيل لورنس العرب » لأنه كان رفيقي الدائم عبر صفحات كتابه خلال رحلاتي الثماني الأخـيرة وقد حصّن روحي بمثال مثابرته الفريد ليحملني عبر ظروف الصحراء القاسية • لقد قابلت كثيرا من رفاقه وأعدائه الذين ـ سواء أحبّوه أم خافوه ـ اتفقوا على أن « لورانس » كان أخلص صديق أتى من أوربا ليدافع عن القضية العربية رغم أن معظمهم أسف لأنه لم يتسن لـه الوقت ليحالف ابـن سعود •

وعلي أيضاً أن أعبّر عن شـكري الخالص للسيد غومر وليامـز للمساعدة القيمة التي قدّمها لي في تحضير هذا الكتاب ولقصيدته المؤثرة التي تشكل مقدمة مناسبة لهذه القصة •

وشكري الخالص أخيراً إلى السيد يرايد ـ هيوز الذي قدمني إلى الصحافة الانجليزية وإلى شركة إليفورد المحدودة لاخراجها الرائع

لصوري البدوية التي عرضت مؤخراً وبنجاح في صالاتها هاي هولبورن في لندن وهو المعرض الذي تفضل بافتتاحه السيد رولاند ستور الحاكم العسكري في القدس مؤخراً •

وهناك آخرون أعتبر نفسي مديناً لهم لأن أصدقائي الكثيرين في الجزيرة العربية وفي العالم الغربي أظهروا تعاطفهم وقدموا معوناتهم •



مقدّمة

إن رغبتي في هذا الكتاب هي معالجـة الأشياء التي تهم الانسان بدلاً من القضايا العلمية وإن قصتي هذه حيكت من نسيج مغامراتي وخبراتي من الناس والحيوان في البرية .

إن روحي متعلقة بهذه الصحراء العربية الرومانتيكيـة . فهدوء الصحراء العربية وسكونها يستعبدني ـ تلـك السكينة التي خيّمت فوق العالم في آخر أيام الخليقة . في الصحراء أتنفس بحريـة وتذهب عني أعباء الحياة المتحضرة المتراكمة كحمل ثقيل ينزاح عن كاهلـي . وحتى الآن أندهش حين أفكر بقلة مايحتاج إليه الانسان ليكون سعيداً وكم يكون الانسان حرّاً عندما يقتصر على مجرد ضرورات الحياة .

فرحلاتي إلى الصحراء وإقامتي بين العرب لم يكن دافعها المطامح العلمية بل إن الحصان العربي هو حجر المغناطيس . « فالبقع البيضاء » على الخارطة لم تجذبني كثيراً رغم أنني عشت معظم حياتي في المناطق المجهولة تماماً أو التي لم يزرها الأوربيون إلا نادراً . ولم يكن ولا حتى نداء المغامرات الذي قاد خطاي إلى الأجزاء الأكثر قفراً من الشرق الأدنى ولكنه حب الخيول وخصوصاً الحصان العربي الرائع.لقد كان ولايزال هيامي جارفاً بهذا الحيوان النبيل مما جعلني أتمنى ملاقاته في مراعيـه الأصلية وأن أتعلم هنالك تاريخه وأسرار توليده ، ولـو كان هنالك أي اهتمام ثانوي فهو الاطلاع على تحركات القبائل البدوية . وقد تزايـد

هذا الافتتان كلما توغلت حتى أنني درست الخصائص الجغرافية لمناطق المراعي وطـرق الترحال وماضيها التاريخي وخصائصها الاثنوغرافية ـ وهي مواضيع نشرت فيها في أقطار مختلفة المقالات والخرائط والجداول الخاصة .

الجزيرة العربية هائلة بشكل يفوق التصور . فمساحتها تبلغ نصف مساحة الولايات المتحدة الأمريكية . ورحلاتي بالطبع امتدت فوق جزء منها وهو النجد المرتفع في الوسط الذي يسكنه البدو .

ورغم أنني لامست البحر الأحمر والخليج العربي أكثر مـن مرة فإنني لم أزر المناطق المعروفة مثل عدن وعمان ناهيك عن مكة والربـع الخالي الذي اخترقـه لأول مرة شخصـان انكليزيان (برترام توماس وسانت جون فيلبي) قبل سنوات قليلة فقط . ولكنني أدعي شيئاً واحداً وهو أنني ـ خلال إقامتي في الجزيرة العربية ـ عشت كلياً كبدوي . لم أكن أبداً بحاجة إلى إنكار جنسي أو معتقدي بين العرب . ولم أكـن ولو لمـرة واحدة موضع سخريتهم أو احتقارهم كما أنني لم أواجه منهم أيـة فظاظـة .

والسبب الذي جعلني أعيش بينهم بعلاقات وثيقة وأكون موضع ثقتهم الضمنية يمكن أن يجد تفسيره في أنني أحجمت عن التداخل في شؤونهم السياسية إلا عندما يطلب مني إبداء الرأي في الأمور القبليـة الداخلية . والأكثر من ذلك إنني حرصت على الالتزام بكل عاداتهـم وأهوائهم وخصوصاً مايتعلق منها بالنساء . إنها صارمة ولايستطيع أي أوربي أن يأمل في كسب ثقة البدوي الكاملة مالم يتقيد بها تماماً .

والبدو ـ كالصحراء نفسها ـ أصحاب مظاهر بغيضة عند النظر

اليهم من الخـارج ولكن كلمـا اقترب المرء منهم كلما تحسنت معرفته بهم وكلما ازدادت دهشته لراحة بالهم الهادئة .

والشيء المدهش ـ الذي لم ينل إعجابي ـ هـو الاتزان الذي يقود بـه البدوي عائلته وقطعانه من الواحات والأراضي المزروعة الى البرية وعبر المناطق الصحراوية التي تبدو قاحلة تماماً . والسحابةالأولى التي تبشر بهطول المطـر تغريه تلقائياً إلى مرتفعـات الحماد والصحراء الصوانية أو إلى جبال النفوذ الرملية وبعد الأمطار يغادر غزاة القطعان الفرسان خيامهم . إنهم يخرجون إلى المجهول وخيولهم الحربية مربوطة بجمالهم السريعة وغالبـاً ما يقطعون مسافة ألف ميـل « ويقفون على الطرقات (كمـا يقول الكتاب المقدس) وينتظرون الغنائـم كعربي في الصحراء ... »

ولذلك فإن هدفي في هذا الكتاب هو أن أروي قصة هؤلاء الرعاة الرحل والغزاة الفرسان وأن أتحدث عن خبراتي بينهم .

رضوان الرولي

عمان ـ الاردن

* * *

/

القسم الأول

ورثـــة اسماعيل

الفصـــل الأول

الامير فواز أمير الرولة الشاب

لوّنت الشمس المشرفة على المغيب بألوانها الرقيقة روابي جبـــل رواك العارية • في الجنوب الغربي غطّت الخيام السود وقطعان الجمال الغبراء سهل طريف بعد حصاده القريب•وهرول نحونا الرجال المسلحون على ظهور خيولهم الرشيقة عندما اقتربت بصحبة عدة فرسان ولأول مرة في حياتي من « المنازل » المنسوجة من شعر الماعز ، من مضارب بـــدو الرولـــة •

هؤلاء الحراس الفرسان الذين آتوا لملاقاتنا قادونا الى خيمة عبد عجوز صبغها الدخان • وهنا استقبلني الأمـــير نوري الشعلان أمـــير القبيلة ذو اللحية الرماديـــة •

وقبل بـــدء الحرب العظمى الأولى بعامين استبدل الأمـــير نوري خيمته المريحة بمخبأ وضيع لأحد عبيده ، وأختبأ فيه بعد أن أخطر بنشاط المطالبين بالثأر منه وهم رجال من أهله •

فأثناء الصراع على مشيخة القبيلة صرع أحد أخوته بيديه كما قتل

عبيده أخا آخر . وهكذا فان أبناء القتيلين الذين بلغوا سن الرشد لم يكونوا فقط يحاولون الثأر لهما بل انتزاع المشيخة من نوري الشعلان .

وبينما كان نوري يتهرب من أعدائه في القبيلة كان ابنه الأكبر نواف مسؤولاً عن قيادة الرولة ضد أعدائهم الخارجين . كان نوري أبا لعائلة كبيرة وكان في الحقيقة ينسب إليه ٨٢ ولداً ٣٧ ذكوراً وقد مات معظمهم تقريباً ميتة غير طبيعية .

وبعد هذا اللقاء الأول بنوري الشعلان ببضعة أيام عست بزيارة لنواف الذي نصب خيامه على مسافة مسيرة يوم كامل قرب بحيرات الركبان المطرية على مسافة مئة وعشرين ميلاً إلى الشرق من دمشق .

كان نواف يختلف كل الاختلاف عن والده ، فقد كان يفتقر الى شخصية الشيخ العجوز القوية . كما لم تكن لديه الموهبة ليعد للحرب قبيلة كبيرة كالرولة تملك سبعة آلاف خيمة وخمسة وثلاثين ألف نسمة وأكثر من ثلاثمئة ألف جمل .

لقد جمع للتو مجموعة صغيرة أخرى لتدعيم قواته العاملة ضد الجوف وهي الواحة الواقعة على الطرف الجنوبي الشرقي من انهدام وادي السرحان العريض الخصب . وكانت قواته قد استولت على بعض المراكز الأمامية الأقل تحصنا ولكن هذه النجاحات لم تجلب لنواف إلا القليل من رصيد نواف : فلم يستطع كسب احترام رجال قبيلته ولا احترام المستوطنين الخاضعين له لكي يدعم مركزه وبالاضافة إلى ذلك فإن هذا الهجوم على الجوف كان عكساً للسياسة القبلية فمنذ القديم تاجر الرولة مع تلك الواحة وقايضوا بجمالهم وصوفهم وأجبانهم وزبدتهم مقابل

التمور والشعير والملح والقهوة وتجهيزات الخيام وشداد الجمال والأقمشة • وفجأة وبعكس نوايا الشيخ نوايا الشيخ العجوز رسم نواف خطة لاحتكار هذه التجارة لنفسه واحتلال الواحة كمعقل استراتيجي يسيطر منه على شمال الجزيرة العربية وطرق القوافل إلى نجد •

وعلى مرأى من الجوف تبدو صحراء النفوذ العظيمة التي تمتد أكثر من ثلاثمئة ميل من الشرق إلى الغرب ونحو مئتي ميل من الشمال الى الجنوب • فنصفها الشمالي المسمى اللابّة يشكل المراعي الحقيقية للرولة • كما أن موطنها الحقيقي هناك • والجزء الجنوبي تحت سلطة بدو الشمّر الذين جعلوا من حايل في الطرف الجنوبي من النفوذ مركزاً لتجاربهم

وقد بقي الشمّر تحت حكم ابن الرشيد حتى بعد الحرب وهو حاكم مرتدمن عائلة ابن سعود الذي ثار مع حراسة الزنوج ضد أسياده واستولى على حايل • ولكن ابن سعود نجح في استرداد هذا الموقع الهام الذي أمّن له السلطة المطلقة في وسط الجزيرة (نجد والقصيم والحجاز) •

والجميع يعرف جهود ابن سعود لدمج كل القبائل فيوحدة وطنية وإخضاعه ــ في الحملة تلو الحملة ــ جميع الشيوخ الذين قاوموه • والآن أثناء إقامتي الأولى في أرض البدو كان ابن رشيد ــ هذا الحاكم المنشق ــ لايزال يسيطر على القسم الأعظم من داخل الجزيرة العربية • وقد أصبح السيد المطلق مما جعل أسياده السابقين ــ عائلة ابن سعود يعيشون في المنفى لعدة عقود من السنين بينما تمتع هذا «الأمير الأسود» بالسيادة على المدن والواحات والكثير من القبائل البدوية في وسط الجزيرة •

في تاريخ الجزيرة ليس هناك سوى القليل من الانجازات التي تفوق
في جسارتها استرداد ابن سعود ـ مع حفنة من رجاله ـ لعاصمته الرياض وإخضاعه لحايل وشمرّ حتى أصبح بعد سلسلة من النجاحات حاكم الجزيرة الفعلي الذي يتطلع إليه العالم اليوم بالاعجاب العميق .

وفي هذه الفترة التي اتحدث عنها ـ ١٩١٢ ـ كان نواف بن نوري الشعلان في حرب ضد أعداء الرولة التقليديين وهم بدو الشمّر وحاكمهم ابن الرشيد الذي يسيطر على الجوف وكان الاستيلاء على هذه الواحة هدف هذا القتال الطويل المرير إذ أهدر الكثير من الدماء وحصل كل عام على نصيبه من حياة الرجال . والآن اقترب نواف كثيراً من هدفه وسرعان ماسقطت الجوف بين يديه .

كان لنواف ثلاثة أبناء منهم الأمير الشاب فواز الذي سأبدأ قصتي معه . إنني مدين لهذا الغلام بفضل حياتي مع الرولة كواحد منهم والسماح لي بزيارتهم احدى عشرة مرة خلال اثنتين وعشرين سنة ومشاركتهم في الترحال والصيد والحرب وعبوري المتكرر لمراعيهم عاماً بعد عام على ظهور الخيول أو الجمال وقبولي في القبيلة كزعيم رولي ومعرفتهم بي وحبهم لي كما عرفتهم وأحببتهم .

كان الأمير فواز في الثامنة من العمر . ومع ذلك فقد عرف عنه بأنه فارس بارع وصياد ماهر رغم أن ساقية كانا قصيرين للتشبث بجانبي الفرس وذراعيه ضعيفين لموازنة البندقية لفترة طويلة . أما القراءة والكتابة وهي مايسميها العرب « العلوم الدنيويه » فلم تكن تهمه أبداً فقد آثر ركوب الجمال أو الاشتراك في الصيد وقد أخبرتني بكل اعتزاز والدته مشاعل التي أصيبت بالعمى أن من بشائر الخير المستقبلية وضع نوري الشعلان للجام فرسه الحربية والخنجر الفضي في سرير

الصبي . وهـذا هـو نفـس الخنجـر الـذي قتـل بـه نـوري بالنزال الفردي أحد زعماء المنتفق الثانويين .

بعد ظهر أحد الأيام كان فواز الصـغير ومجموعة مـن أصدقائه الصبية يتدربون بالمقاليع وهي السلاح الـذي قتل به داوود غولياث . كانوا يرمون الحجارةالمسطحة بدقة مدهشة على الأوتاد الخشبيةالمعقوفة التي يبلغ ارتفاعها قدماً واحداً من مسافة ثلاثين خطوة . وخرجت من خلف الخيمة دون ان يراني الصبية . وصدف أن حجراً أصاب الهدف بالقرب مني وارتد من الصقيل فأصابني في جبهتي بين العينين . وقـد أصبت بالذهول للحظة نتيجة للصدمة لا نتيجة للضربة نفسها . وحسبت لأول وهلة أنني أصبت برصاصة .

وهرع إليّ فواز بفم فاغر ووجه خائف.ولاحظ الجرح في جبهتي وبضع قطرات من الدم على أصابعي التي ضغطت بهـا على جبهتي أثنـاء ارتباكي . وعندما اخذت الصبي بين ذراعي ورفعته ضاحكاً ليعلـم أن القضية ليست بالخطيرة علت وجهه نظرة غاضبـة كما لـو أنه أهين . وتملّص من بين ذراعي ووقف امامي ثم نزع كوفيته وعقاله عن رأسـه تاركاً جدائله الست الجميلة تسقط على كتفيه وتصل حتى فخذيـه . وصاح والدموع تنحدر من عينيه الجريئتين : « أنا دخيلك إنني أسلمت نفسي بوجـه اللـه : أخبرني عن ثمن دمك » ولـم يبد في صوته أي ندم كما لم يعبّر عن أي رغبة في الغفران . كانت كلماته تحدياً واضحاً لأنه اعتقد أنني سخرت من عرضه . واندفـع قلبي نحو هذا المخلوق الصغير . لقد أحاط نفسه بجو من التحفظ والكبرياء ومع ذلك كان من المستحيل أن أغضب منه . ألم تكن طريقته في التفكير تختلف كلياً عن طريقـة الأوربي ؟ وبدون قصد أثقـل دم ضيف والده على ضميره ولم يفكر إلا في ارضائي قبل أن تنتشر أخبار هذه الحادثة . ولم يكن من

المهم كمية الدم الذي أريق والتي كانت في هذه الحادثة بضع قطرات . فالشيء المهم لديه هو القانون البدوي غير المكتوب الذي يحسن سلامة الغريب وحرمته حتى ولو كان في خيمة بدوي وضيع • وثمن دم الضيف ضعف ثمن من يقتل في الحرب • خمسون جملاً وأربعة خيول •

كان عليّ أن أبتسم عندما فكرت في الثمن المقدر لبضعة قطرات من دمي • ولكنني خارجياً أعدت الوقار إلى وجهي واستدعيت الاولاد الآخرين والرجال الذين تجمعوا حولي ليكونوا شهوداً وقلت للأمير فواز : « لقد حدث ذلك حسب مشيئة الله • إنني لا أعرف أي ثمن آخر سوى صداقتك • »

وساد الذهول التام لحظة من الزمن • وحدّق نحوي بعينين واسعتين • ومن المرجح أن الأمير فواز لم يستطع أن يصدّق أنني — الغريب — أستطيع أن استشهد بعادة أجداده القديمة • وفجأة رمى المقلاع المشؤوم وتقدم نحوي بذراعين مفتوحين وضمهما حول عنقي بتأثير صبياني عندما انحنيت نحوه • وبعاصفة من الحب البهيج ضممت الصبي إلى صدري وقبلته على الخدّين • وبإصبعه الصغيرة لمس برفق الخدش على جبهتي ودلك أربع قطرات من الدم على جبهته بين حاجبيه الأسودين وهذا هو المعروف بدوياً بنور الدم •

وبهذه الطريقة الغريبة الدرامية أصبحت — بمشيئة الله — أخ الأمير فواز بالدم • وبعد فترة قصيرة تعمدت صداقتنا بالنار • خرجت للغزو عصبة من الرولة (قوامها مئتان وثمانية وستون محارباً بقيادة رشيد بن وفا) الى الحماد ومنطقة الوديان ضد بدو (الشمر) وخرجت بصحبتهم • وسرنا أثنتي عشرة ساعة في اليوم الأول • وفي المعسكر في تلك الليلة تتفحص معداتنا وقرب مائنا وماشابه ذلك وكم كانت دهشتنا

عندما اكتشفنا الأمير فواز غارقاً في نومه ملفوفا بخرج الجسل المصنوع من شعر الماعــز • وهي أوعيــة ضخمة مصنوعة من جلــود الماعز (•)

ولم تصدر عنه أية إشارة أو أي صوت خــلال المسيرة الطويلــة الشاقــة تعلمنا أننا نحســل معنــا متخفيــاً • وأراد قائدنــا رشيــد **(من مراف الرولة)** أن يعيد الصبي إلى المضارب في الصباح مع أحد ركاب الجمال ولكن فواز توسل بجدية لمست قلب قائد الغزوة فأرسل رسولاً إلى خيام مشاعل ليخبرها أن ابنها معنا •

واستمرت غزوتنا نحو شهرين • وعندما عدنا ـ بعد أن أرهقنــا التعب وتكبدنا الخسائر الفادحة ولكن منتصرين ـ أخذ الأمــير فواز أربعة من جمال الغنائم الغبراء إلى المضــارب وأناخها أمام خيمة أمــه العمياء وتساءلت مشاعل التي لم تزل شابــة عن الغريب الذي ينزل في ضيافتها فصاح أحد الرولة « ياخالتي إنه أمير عظيم يأتي ليشرفك أيتها الابنة المباركة • » وسألت الأم : « أين ديرته لأرسل عبدنا العجوز حمر ليعلن أنه جارنا » فأجاب الرولي : « اسمه الصقر الصغير وديرته تمتد امتداد البصر • إنه ابنك يا أم فواز • »

وفي تلك الغزوة قطعت يد قائدنا **رشيد اليمنى** بالســيف فأغمى عليه من فقدان الدم ولكن العبيد غمسوا الذراع المقطوع بالزيت المغلي ـ وهو علاج يائس ولكنه ناجح لأن رشيد استعاد وعيه • ومنذ ذلك اليوم حمل رشيد ذراعه المقطوعة معه في سرج بعيره • وقد جفّت تماماً مثل الميوميــاء •

عندما وصلنا **بحر سيجال** وهو القلعة التركية الأولى قرب **الضمير** أرسل قائدها كتيبة من الفرسان إلى معسكرنا لأنه كان قد أخبر تلغرافياً

بعملياتنا اللامشروعة في جوار الأراضي المزروعة في ما بين النهرين كانت القوة تبحث عن رشيد باعتباره مسؤولاً عن ذلك . ولكن رشيد لم يستطع حمل ضميره على القبول بالزنزانة التركية . وضع ذراعه المقطوع الجاف في حقيبة جلدية وأملى على كاتب فواز الرسالة التالية إلى القائد التركي في الضمير : « بسم الله الرحمن الرحيم . لاأستطيع أن أخدم سلطانك كعسكري لأن لي جدعة ذراع . كما لا أستطيع أن أعمل في خدمتك كسجين ولا أستطيع أن أشد على يدك كصديق . فبماذا أفيدك ؟ ولكنني أرسل لك ذراعي كرمز لاستسلامي النهائي لأنه معتاد على قطع يد السارق . وتأكد إنها ذراعي — ذراع رشيد بن وفا قاطع الطريق . وليرحمنا الله . »



الفصل الثاني

فارس « صديق اللـه »

عند بداية الحرب ـ وبعد أن كنت قد أمضيت بين العرب ثلاث سنوات ـ عدت إلى موطني الأصلي وعرضت خدماتي كمتطوع في سلاح الفرسان الألماني • ولكنني أرسلت إلى استنبول وعملت في ظل الهلال التركي **أثناء قتال الدردنيل** • وفيما بعد الحقت باللواء الرابع التركي في قناة السويس • وهنا وقعت ـ مثل الكثيرين ضحية **الحمى النمشية** ولكنني شفيت منها بعكس غالبية المرضى • كانت صحتي قد اعتلت كثيراً حتى أنني أعدت الى البلاد كعاجز مرضياً • فالقدر على مايبدو لم يرغب في أن أتورط في حرب الصحراء والسياسات البدوية • أصبت بالملاريا وبخرّاج على الرئة كنتيجة للحمى النمشية • كانت النقاهة الإجبارية مفيدة لي على المدى الطويل فلقد منحني اللـه جسماً قوياً •

قصة حياتي حتى الآن هي كالتالي : عندما بلغت الثامنة عشرة من العمر ذهبت إلى شمال أفريقيا وبعدها بسنة واحدة كنت في الجزيرة العربية وعندما بلغت الحادية والعشرين والنصف أصبح مسرح نشاطاتي في منطقة الدردنيل وماحولها وتبع ذلك تجربتي المريرة التي دامت ثمانية أشهر في قناة السويس أعقبتها فترات طويلة من المرض • وعندما احتفلت بعيد

ميلادي الرابع والعشرين كنت مجرد هيكل عظمي تفوح من دمي رائحة الحسّى • ورغم أنني لم أكد أستطيع الوقوف على قدميّ فقد عبرّت عن رغبتي في أن أخدم في تركيا ثانية ولكن السلطات لم ترغب في وجودي هناك وبدلاً من ذلك أرسلتني إلى روسيا حيث قضيت ثمانية عشر شهراً في معسكرات فرز الأسرى • ووجدتني الهدنة في أوكرانيا بعد انهيار ألمانيا وثورة بولندا • فضاع كثير مما كنت آمل فيه فليس لي مستقبل في أوربا والشرق الاوسط مغلق في وجه الألمان • اتجهت إلى كاليفورنيا فوصلتها وليس في جيبي سوى دولاراً ونصف وبعد أن بعت عدساتي وآلة تصويري (وهي رفيقاتي في بلاد كثيرة) في **نيويورك** لأتسكن من جسع الأجرة إلى **سانتا آنا** . وهنا في أرض السمن والعسل والفاكهة والشمس المشرقة أصبح بإمكاني التطلع إلى حياة جديدة مليئة بالصحة والسعادة • عشت في مزرعة حيث قضيت أكثر من ثماني ساعات يومياً على ظهر الخيول • وهكذا استعدت صحتي وجددّت دمائي • وبحلول عام ١٩٢٦ أصبحت رجلاً جديداً وبدأت أفكاري تتجه نحو الجزيرة العربية • وأخذ حنيني يزداد ـ هذا الحنين إلى البدو • أما زال الأمير فواز على قيد الحياة ؟ كيف تسير أحوال الرولة ؟ ونوري العجوز ؟ وأتى اليوم الذي لم استطع فيه مقاومة هذا الحنين •

وبالفعل بعد أربعة أسابيع احتفلت بلقائي بنوري الشعلان ثانية في دمشق حيث عاش منذ نهاية الحرب العظمى • وفي سن الثمانين مازال شيخ عشيرته رغم أنه يعيش في المدينة ويتلقى دخلاً محترماً من الفرنسيين وقد أصبح مؤخراً نائباً في البرلمان السوري • وعهد بشيخة قبلته في الصحراء إلى حفيده الأمير فواز نفسه • وعلمت أن نواف والد فواز وأثنين آخرين من أولاد نوري قد ماتوا خلال غيابي •

ولقد دهش نوري كثيراً وسرّ كثيراً لرؤيتي ثانية بصحة جيدة ومعنويات عالية • وقادني إلى غرفته الخاصة التي فرشها حسب ذوقه البدوي • كانت كداخل خيمة بدوية بموقد القهوة وكومة الرماد الأبيض وفرشاتها ووسائدها العديدة القائمة مقابل **شداد الجمال** والتي كانت دافعاً إيجابياً للكسل •

وعلى عمود ارتفاعه متر واحد وقف صقر صيد عريض المنكبين وقد خبأ أحد مخلبيه تحت ريشه على استعداد للانقضاض•ونزع نوري « قبعة » الصقر الجلدية فرمقنا بعينيه الواسعتين السوداوين وبدأ يصوت • ثم طلب نوري العجوز حمامة وأطلقها في الهواء وبحركة سريعة كالبرق لايسكن للعين متابعتها انقض الصقر على فريسته ومزقها•

القسوة جزء لايتجزأ من البدوي فهو يسّر لرؤية الدم السائل • وبدا كأن نوري يجدد نشاط شبابه باللهو بالصقر • في هذا العالم لايصارع الأقوياء أمثالهم بل كثيراً مايكون الضعفاء ضحايا **القسوة الخالصة** . وفي الجزيرة العربية خصوصاً لايمكن للمرء أن ينسى ذلك •

وبعد اسبوع استأنفت رحلتي إذ أعطاني نوري كرفيق سفر وحارس **فارس بن نايف الصعبي** . وهو بدوي شسّري شاب لكي أقوم برحلتي بأمان إلى قبيلة الشيخ العجوز العظيمة بجوار **وادي سرحان** ورمال صحراء النفوذ الحمراء •

كان من الغريب أن يكون دليلي الى الرولة بدوي شسّري لأن هاتين القبيلتين عدوتان لدودتان لعدة قرون • ولكن عائلة فارس مع الرولة لمدة ستة عشر عاماً بسبب عداوات الدم وهذا يفسّر سبب حمايتي

من قبل شمّري في أراضي أعداء عشيرته الألداء • ولكن هذا الاختيار دلّل أيضا على حكمة نوري الشعلان لأن فارس يستطيع حراستي من أعداء الرواة لأنه شمّري كما أنه يستطيع ضماتني أمام أي رولي لأنه كاتم أسرار نوري •

وفارس هذا رجل فذ فمنذ اللحظة الأولى للقائنا عندما قدمني نوري له شعرت بأن ذلك أكثر من معرفة عابرة • فنعومة صوته عندما ألقى علي السلام وقبضة يده القوية كشفت لي في لحظة واحدة نفس هذا البدوي الشاب الطاهرة الصريحة • فتحت عباءته ينبض قلب رقيق وقوي يجعلني أعترف بأنني لم أصادف مثيلاً له بين بني البشر • وحتى آخر رمق بقي أخلص صديق عرفته • وجهه البيضوي النبيل لايمكن أن ينسى وكذلك عيناه السوداوان اللطيفتان • كما أن شعره ولحيته وعباءته الفضفاضة جعلت منه شخصية أخاذة • ورغم رقته وليونته كان فارساً من أشجع واجسر أبناء اسماعيل • ربما كان يعيش متأخراً عن عصره بألفي عام •

وبعد أن تركنا ضواحي دمشق القديمة خلفنا قادنا طريقنا عبر بساتين المشمش والزيتون والجوز إلى السهول المفتوحة•وشمخت قمم الجبال السورية المغطاة بالثلوج الى السماء الزرقاء • الطرق الطينية الجافة الوعرة تخترق الحقول الجرداء والمراعي الرمادية القاحلة • وبعد ذلك وصلنا السهول الفسيحة التي تخترقها شبكة من الطرق المتقاطعة بفوضى مربكة •وعلى حافة السهوب يوجد مخفر جمرك سوري حيث دققت جوازات سفرنا • وأخيراً أصبح باستطاعتنا التخلي عن الطريق البري والدخول في الصحراء المجهولة دون أية طرق أو علائم•وانطلقت سيارتنا فوق التربة الصلبة الجافة المفروشة بالحصى باتجاه الشرق

باستمرار بمحاذاة لسان أرضي بلانهاية وبدا أنه ينغمس أعمق فأعمق وسط بحر غامض بلا حدود • وفوقنا كانت السماء صافية وعلى الجانبين ظهرت ومضات السراب الضبابية يتراقص فوقها الهواء • وفجأة ظهر بعض رعيان الماشية العرب كأشباح تخرج من السديم • ولم يكن لديهم سوى القليل من الجمال والخيول بينما ركب الرجال على الحمير وهذا دليل على صفتهم • كانوا من الفواعر وقد لاحظناهم أثناء اتجاهنا نحو بقعة من الماء تلمع في انهدام متطاول في الصحراء •

كان السراب كثيراً وغالباً ماكان خداعاً لدرجة لايمكن تصديقها • إذ لم يكن من السهولة تمييز برك الأمطار الحقيقية (التي يبلغ عمقها حوالي القدم فقط والتي تماوج الريح سطوحها) عن البرك السرابية التي تبدو سطوحها لامعة • وفجأة لاحظنا أمامنا بعض قطعان الأغنام التي تعبر الأراضي التي يغمرها السيل حتى الصدر • وخففت السرعة أوتوماتيكياً لأنني رأيت فجأة على بعد أقل من مئة ياردة بريق ماء بحيرة ضحلة والسيارة تتجه إليها مباشرة • أدرت عجلة القيادة وعندها فقط أدركت أن ما رأيناه لميكن سوى حوض جاف امتلأ بالهواء الحار البراق وبالسرعة القصوى دخلت في الحوض باتجاه برك المطر •

وأقتربت الأغنام أكثر فأكثر وفي لحظة واحدة تغيرت الصورة بأكملها • اختفت البركة الطويلة العريضة ولم يعد هناك أي أثر للماء • وبدلاً من الماء المتلألىء رأينا حولنا كتلة مغبرة من القطعان ــ آلاف وآلاف من الغنم والماعز •

وأوقفت السيارة لتمر الحيوانات ووصل إلينا الرعاة بنسائهم وأولادهم وتفحصونا بفضول وحيّونا بالسلام • قمت بتوزيع السجاير والحلويات وبالمقابل أخبرنا البدو الرحل **كثيرو الكلام** أنهم عائدون ألى مراعيهم الأصلية في الشمال لأن القبائل البدوية الأخرى نازعوهم

على منطقتهم • وبعد ابتعادهم أصبحت الصحراء خالية من جديد •

وأمامنا امتد الحماد ـ المرتفعات الشمالية من الجزيرة العربية التي بدت أنها تمتد الى مالا نهاية : أرض منبسطة قاسية ولاشيء هام يغير وتيرتها الرتيبة لمئات الأميال جنوباً وشرقاً • وأثناء اجتيازنا لهذه الأراضي المرتفعة الجافة ـ ساعة إثر ساعة ـ كانت تهب أمامنا من مراعي الإبل أسراب هائلة من الطيور المهاجرة • كانت تطير لبضعة مئات من الياردات قبل أن تحط ثانية على الأرض كالسحب • ولكم جفلت منا حبـاري الصحراء الخرقاء كما هبّت أمامنا أسراب كبيرة من طيور الطيهوج • هذه الطيور الصحراوية ـ التي يساوي حجمها الحجل الأوربي ـ تتغذى بصورة رئيسية على اليرقات الحمراء اللاهبة التي تتوضع على كل ورقة وساق في اليرقة القاحلة • خرج ذئب صغير من مخبئه كما قفز ثعبان بعيداً عنا • كما صادفنا أيضاً بومة كبيرة وقفت تطرف بعينها بارتباك في ضوء النهار فأوقفنا سيارتنا بالقرب منها •

وفجأة ـ قبل غروب الشمس ـ هطلت زخة من المطر أنعشت الصحراء المغبرة • قضينا معظم الليل في ستر قاع نهر جاف مستلقين على الرمال •

وفي مساء اليوم التالي بعد قيادة جنونية تطاردنا عاصفة رملية إلى الرولة • كانت القبيلة الكبيرة كلها تهاجر نحو الشمال وخيامها تمتد أبعد من مدى البصر وقطعانها الهائلة منتشرة في كل اتجاه • احتوى انهدام ضحل نحو ثمانين خيمة من مختلف الأحجام وواجهاتها المفتوحة كلها باتجاه الريح وبينها انتصب أوسع سرادق في الجزيرة العربية ألا وهي خيمة نوري الشعلان الشهيرة •

توقفنا هناك وكان سؤالي الأول عن الأمير فواز ولكن زعيم الرولة الشاب لم يكن في بيته بل كان في زيارة عشيرة تخيّم بعيداً عن المضارب الرئيسية •

الفصل الثالث

الراعيـة الوحيـدة

في صباح اليوم التالي انطلقنا ــ أنا وفارس ــ على ظهور الخيـل لأن رئيس المضارب أعارنا فرسين . وتكسّرت أغصان **الخزامى والبابونج** الدقيقة تحت حوافر الخيل بصوت يشبه حفيف الحرير . وامتدت السهوب حولنا فوق التلال والسهول الفسيحة التي زارتها الأمطار ولكن مامن أثر للإنسان هناك فلا هجرات بدوية ولا رعاة يسوقون قطعانهم فكل ما يمكن تلمسه هو روعة الصحراء البكر .

أطلت شمس الغروب علينا من بين السحب الرعديـة . وتراقص الشرق المعتم بالبرق **الخلّبي** وقصف الرعد من بعيـد وتراكضت بعض السحب الرمادية أمام رياح المساء مع حلول الظلام .

وعندما شددنا الأعنة فوق قمة إحدى الهضاب أتانا مـن الأعلى صوت يشبه ضربات الأجنحة العملاقة . إنها الرياح الدافئة تدفع أمامها زخّة ربيعية . ونصبت فرسي ((**سادها**)) أذنيها بفضول وتراقصت بقلق وضربت الأرض بحوافرها وحنت رأسها وصهلت برقّة . وبعـد هزت عرفها وضربت بذيلها على جانبيها الضامرين ورفعت عنقها نحو الأعلى . لقد اكتشفت حواسها الحادة ــ كحواس كلاب الصيد ــ شيئاً .

وهرولت نحـو الأمام بقوائم خفيفة وأذنين منتصبتين وخياشيـم

متسعة واتجهت نحو نار صغيرة ظهرت لنا فجأة بين الظلال المتشابكة للسماء والأرض • ثم أخفتها زخة جديدة من المطر ثانية • وبعد انقطاعها رأينا أيضا قطيعاً محتشداً من الغنم بللته الأمطار • واعترض كلبان ضخمان اقترابنا بنباحهما الغاضب • وأتانا صوت امرأة من قرب النار يقول : « من هناك ؟ » وباستعمال يدي المبللتين كبوق للكلام صرخت بعكس الريح بأعلى صوتي « أصدقاء »

— ومن معكم ؟
— الله وحده —
— عليكم رحمة الله وبركاته —

خرجت صبية بدوية من خيمة صغيرة طالبة من كلبيها الابتعاد عندما ترجلنا • وأخذت فرسينا ووضعت أمامهما وعاء من الحليب وسمحت لنا بالاقتراب من النار التي فرقعت بشدة لأن كل قطرات المطر الثقيلة سقطت فوق النار فامتلأ هواء الخيمة بدخانها اللاذع • وبدت الخيمة بجانب النار مأوى صغير يكاد لايستحق اسم خيمة إذ كانت قطعة واحدة من قماش شعر الماعز الخشن كأنها مجرد ستارة مطر لوقاية الراعية وكلبيها • وفي داخل الخيمة التجأ حمل صغير وأمه التي كسرت ساقها • فجبرت الساق وثبتها ببعض الأغصان وبضماد من القماش • بينما كانت الفتاة تراقب معالجتي بعينين متلهفتين •

كانت الفتاة في السادسة عشرة من عمرها : جميلة للغاية رشيقة مثل كل النساء البدويات ؛ وقد اصطبغت وجنتيها اللتين لفحتهما الشمس بالدم وكان شعرها الكثيف الناعم وأنفها الشامخ — يشير إلى أن الفتاة من نسل اسماعيل النقي •

وحسب عادة الصحراء القديمة وضعت أمامها وعاء من حليب الغنم الطازج ثم استدارت نحوي أولاً وقالت : « أقسم لأختك أنه لن ينالها أي سوء . » وحدقت في وجهي بعينين واسعتين واثقتين ولمعت أسنانها البيضاء وتراقصت الغمازات الصغيرة في خديها . وأخذت غصناً جافاً من كومة الحطب بجانب النار وقدمته لي قائلة : « خذ هذا بيدك واحلف بالله الذي يحيي كل شيء » .

وبسرعة نفذت طلبها وتعهدت بحرمة ضيافتها بقسم لايخرقه حتى الأطفال في الصحراء وهو صيغة أبناء اسماعيل القديمة : « بسم الله . كما أخذ الروح من هذه القطعة الخشبية الميتة فليأخذ الله روحي مني إذا لم أحافظ على روحك وجسدك وأحميهما ياأختاه . » وبعد أن أقسم فارس أيضاً تشجعت وطلبت ان نتصرف بحريتنا في خيمتها ووضعت أمامنا كل ماتملكه من طعام : الخبز والحليب الطازج وبعض الزبدة والتمر المجفف وبينما كنا نتناول عشاءنا سحبت إلى الخيمة حملاً صغيراً يثغو بأسى ويحاول التحرر منها وعندما انحنيت لأمسك بالحيوان استلت الفتاة خنجري من نطاقي وصاحت : « اذبح لي هذه الضحية لكي أطبخها لكما » وأخذت الخنجر المعقوف من يدها ثم تركت الحمل يعود إلى القطيع ولكن الفتاة نظرت إلي لائمة فقلت لها : « لقد قدمت للغريب كل مايسد الرمق . يشهد الله أننا لانستطيع أكل حمل كامل . كما أنني لاأرى أي وعاء يمكن أن تطبخي فيه اللحم . فأجابت الفتاة : « ولكنني أستطيع شوي الكليتين والخصيتين على هذا السفود[1] . »

لحسن الحظ خافت الفتاة من ذبح الحيوان بنفسها مما سهل علينا إقناعها بأنه لالزوم للضحية . ولكنها كانت تخشى أن يلومها والدها لأنها

---

(١) السفود : سيخ الشوي الحديدي

لم تقم بواجب الضيافة البدوية الكاملة • وبدون كلام جلست أمام الخيمة وأضرمت لنفسها ناراً صغيرة أضاءت جسدها عندما انحنت فوقها • وتراقص الضوء على وجهها الجميل البراق بقطرات المطر فأظهرت صورة جميلة للجمال الطبيعي والصحة •

وعندما اتضح لنا أن الراعية الشابة عزمت على قضاء الليل في العراء والمطر دون وقاية ألححت عليها ألا تخاف وأن تقاسمنا الخيمة بل وحتى هددت بأننا سنرحل إذا لم تفعل • ولكنها لم تأخذ تهديدي على محمل الجد : ضحكت وأجابت بخفة بأنها تستطيع الذهاب إلى خيمة والدها والعودة في الصباح •

وهنا قاطع فارس قائلاً : « من هو والدك ؟ »

— إنني **تويما بنت شاعل بن سرحان** • وخيامنا منصوبة مع عشيرة الفريج » فأجاب فارس مداعباً : « إن المسافة بعيدة إلى خيمة والدك والوقت ليل فتبقي بنا وتسددي هنا عند أقدامنا • »

فقالت الفتاة أخيراً : « في الحقيقة لست خائفة • ابقيا عندي ولا ترحلا • » ونهضت أثناء حديثها ورمت بعض الأغصان على النار وانتظرت حتى تشب النار • ثم انتصبت بقامتها الجميلة المديدة ورمت عباءتها عن كتفيها ودخلت الخيمة • وقفت أمامنا وهي تنزع « شالها » وامتدت ذراعاها النحيلان ومعصماها الدقيقان فوق رأسها وبدا عليها الاطمئنان بينما كانت عيناها السوداوان ترمقاننا باستحياء •

تمددت في حماية الخيمة وخلفي النعجة العرجاء وحملها اللذان وجدا مكاناً دافئاً عند كتفي وفروتي • ونهض فارس عندما دخلت الفتاة وساعدها على نشر عباءتها المبللة فوق عمود الخيمة • وبعد أن هيأت لنفسها « مفرشاً » واستقلت نشر فارس عباءته عليها • واحتجت الفتاة

لكن فارس أشار إلى فروته وجلود الغنم التي معه مما جعل الفتاة تطيعه وهي ترمقه بنظرة محببة • وكنت أنا وفارس مصممين على ألا نخون ثقة تويما فينا سواء بالقول أم بالعمل •

صحت السماء ونشر القمر الهادىء نوره في الصحراء وألقى أضواءه على منحدرات التلال البعيدة بينما آخذت الريح الدافئة تجفف السهوب والأعشاب والأزهار والأغنام المرتعشة وقماش خيمتنا •

كان فارس وتويما يغطان في نوم عميق كما أدركت من تنفسهما الرتيب أما أنا فكنت مستغرقاً بين النوم واليقظة •

وفجأة بدأ الكلبان ينبحان بحدة وفي لمح البصر استيقظ فارس وسحب مسدسه من قرابة واندفع خارج الخيمة • ولكن حتى قبل أن يتجاوز ظل الخيمة لحقت به تويما ورمت بذراعيها حول جسمه وصاحت محذرة : « لاتطلق النار لأنك ستفزع القطيع • إنها مجرد ذئاب صغيرة وسيطاردها الكلبان • » ونادت على **سخان وقصاب**(١) وحثتهما على مطاردة الذئاب • أنزل فارس مسدسه فأخذته تويما وأعادته إلى نطاقه ولكنها لم تتركه•وضغطت نفسها باستحياء عليه وذراعاها تطوقانفخذيه وتراقصت ملابسها بخفة بفعل النسيم الجاف الدافيء • ونشرت السهوب عطورها فبدا الجو مشبعاً برائحة تشبه عطر الخزامى وطلع الفجر يكشف عن أصوات القطيع المحتشدة بعد ان عاد إلى هدوئه ثانية • ومن البعد وصلنا نباح الكلبين الذي أخذ يخفت تدريجياً إذ أن الكلبين مازالا يطاردان الذئاب • وبالقرب منا أخذت فرسانا المربوطتان تشخر •

وتحرر فارس برقة من ذراعي تويما ثم أخذ بيدها وأدخلها إلى

(١) اسما الكلبان .

الخيمة حيث جلسا جنباً إلى جنب • وعندما مال نحوها وقبلها من قسمة رأسها استلت تويسا خنجره من غمده ووضعته في حضنها وقالت: « دع هذا الخنجر يستقر في حضني • » وبهذا ذكرته بعذريتها لأن عفاف الفتاة بين البدو الأصلاء كان ومازال أثمن فصل في مجموعة قوانين الشرف • ومن أجل خرق هذا القانون يمكن أن يقتل الأب ابنته والأخ أخته ويقطع جسمها إرباً إرباً •

واخترقت الشمس حجب الصباح قاذفة أصابعها الملتهبة عبر السماء واكتست الأرض المظلمة بالحمرة الورديــة • فقال لمحبوبته « صباح » ولكن الصباح أيضا كلمة شاعرية تعني « العروس البكر » وأمالت تويسا خدّها على خدّه •

وهكذا جلسا بلا حراك ولا كلام • ثم نهضت تويسا وسارت نحو قطيعها ولكنها توقفت فجأة وتسمرت في مكانها • واغترفت عينا فارس المفتوحتان من جمال قامتها التي بدت بوضوح تحت ثنايا ثيابها الرقيقة وقد زادتها أشعة شمس الصباح جمالاً على جمالها • وعندما بدأ فارس بالسير نحوها تضاحكت وهربت مسرعة واضعة في نفس الوقت شالها حول كتفيها حتى وصلت إلى الانهدام الذي يرعى فيــه قطيعها ويلعب كلباها بالتقلب أحدهما فوق الآخر على الأعشاب الناعمة •

وانتشرت أشعة الشمس الصافية فوق البريــة • وفي هــذا الجو البلوري الصافي يمكن للعين أن تمسح الآفاق البعيدة عبــر الهضــاب السمراء والبطاح الخضراء • وخطرت في السماء الزرقاء بعض السحب البيضاء • وهبت قنبرة سعيدة ترتفع أكثر فأكثر في نشوة التغريد • وفوق السهوب مازالت تتهادى الرياح الدافئة الناعمة • هذا هو الصباح

الذي استيقظ فيه الحب في قلب فارس • وبعد الافطار كان علينا أن نتابع مسيرتنا • أعادت تويسا إشعال النار في الموقد وخلطت بعض الدقيق بالماء البارد وجعلت العجين في أرغفة صغيرة رقيقة وخبزتها على حجار النار • وأثناء الافطار أخذت تغمس التمر في الزبدة وتضع هذه اللقمات في فم فارس وفي فمي بالتناوب •

وسألت تويسا حبيبها الجديد : « هل ستعود ؟ »
فأجابها متسائلاً : « هل ستذكريني ؟ »
فأجابته متسائلة بدورها « وأنت ؟ »

ثم قادته من يده نحو فرسه • وعندما رمى نفسه على ظهر الفرس أخفت وجهها عند ساقه وبدأت بالبكاء فانحنى ورفع رأسها بلطف من الذقن ونظر طويلاً إلى عينيها • ولما تاق وجهها المرتفع نحوه التقت شفاههما للمرة الأولى ولامس جفنها خدّه • وقال لي فارس فيما بعد : « تلمست أسنانها البراقة عندما فارقت شفتاي شفاتاها فوجدتها كطعم الحليب • »

وصاحت تويسا بعد انطلاقنا : « ابقيا » فصاح فارس : « يشهد الله أن حبّك منذ الآن سيكون رفيق قلبي الدائم • » فقالت : « السلام عليك يافارس • »

وكلما التفتنا إلى الوراء وجدنا تويسا واقفة بجانب قطيعها بدون حراك وهي تحدّق فينا•وعند التلة الأخيرة نزع فارس كوفيته ولوّح بها إلى صورة الفتاة البعيدة فلوّحت له بشالها بالمقابل •

الفصل الرابع

ملاقاة أخي في الدم ثانية

ابتسم الهدوء والسعادة على العالم • وهنا وهناك لمعت بركة مطر في انهداد • بينما الشمس والريح جففت قسم التلال • وانتصبت أمامنا زوبعة كنست الأرض كالمكنسة واقتلعت الأعشاب والورود الصغيرة أو اختطفتها أو مزقتها وخلفت وراءها أثراً متكسّراً كأثر حية ضخمة • أما نحن فقد غطانا الغبار والطلع • كانت أصوات الهدهد تنبعث من بين الأعشاب بينما كانت الحبارى وطيور الحجل مشغولة باصطياد البرقات الحمراء الناعمة • وفجأة عند وصولنا قمة إحدى الهضاب رأينا خياماً سوداً في أسفل السفح المقابل • بعد قليل سأرى الأمير فواز ثانية •

وانتصبت خيمة المضافة بعيداً عن المكان الذي كانت فيه . تلك الخيمة التي استمتعت فيها بضيافة نواف وتعرفت على ابنه فواز الصغير قبل سنوات طويلة مثيرة • ومع ذلك فقد بدا كل شيء على حاله • وشعرت وكأني أعود إلى ذلك الزمان والمكان • وبدت نفس الصفوف المتناثرة من الخيام السود الصغيرة المفتوحة من الأمام ونفس قطعان الجمال المنتشرة في الصحراء اللامتناهية تحت أشعة الشمس البراقة • ووسائد شداد الجمال التي اتكأت عليها في خيمة الضيوف • والنار في الموقد حيث يغلي ماء القهوة بدت نفسها دون تغيير وجناح النساء في

الخيمة بما فيه من السروج والخرج والفرشات والوسائد وما إلى ذلك كلها بدت كما رأيتها آخر مرة .

وعلى يسار خيمة الضيوف انتصبت خيمة أخرى . وخرج من الخيمة بدوي شاب بملابس عادية ولكنه محاط بأربعة عبيد يحملون صقور الصيد والى جانبهم مجموعة من كلاب الصيد السلوقية . وعندما توجهت لملاقاته تملكني شعور غريب من الوهم . لقد عرفت بالطبع من هو ولكنني في تلك اللحظة لم أستطع أن أشعر بأن هذا الشيخ المهيب الذي يتقدم نحوي بوقار كان ذلك الصبي الصغير اللعوب ذلك المتشرد المتسخ المحبب الذي أخرجناه ذات ليلة من خرج الجمل . ولكنني على الفور أدركت شيئاً واحداً : فواز لم يعرفني واسمي — كما يقتضي واجب الضيافة العربية — لم يلفظه أحد بعد وأن أخبار مقدمي لم تسبقني إليه .

ورمى أحد العبيد سجادة صغيرة على قدمي — وهي سجادة سوداء ذات إطار مزخرف وملون عند هذا الرمز الصغير المقدس تبادلت التحيات مع الأمير . ووضع يده اليمنى على قلبه وقال « سلام الله عليك » ثم قادني إلى داخل الخيمة .

فرش العبيد الأربعة سجادة المناسبات الثمينة فغطت أرض الخيمة كلها . وعلى الجانب الآخر من الموقد تكدست كومة عظيمة من جلود الغنم والسجاد والوسائد تجاه أسرجة الجمال لتكون ديواناً رائعاً وهو عرش زعيم الصحراء . خلع فواز صندله وأشار إلي بالجلوس إلى يمينه . واصطف الوجهاء والعبيد وأفراد حرس الأمير على السجادة العظيمة . لم يتكلم أحد . كل الأعين اتجهت نحو القهوجي الذي نبش بضع جمرات من رماد الموقد وأضاف كمية جديدة من بعر الجمال الجافة وقطع صوت الماء الغالي في وعاء القهوة الكبير السكون السائد . وأخذ

خادم الأمير الخاص « **مناحـي** » عوداً من البخور من ثنايا كوفيته وقطع قطعة منه وألقاها على جمر بعر الجمال المتوهج ،إنه نفس الشخص الذي فرش سجادة اللقاء • وعبر قماش السقف الأسود تسللت أشعة الشمس الضعيفة ورسمت صورة من الأضواء والظلال على الأرض • وتحلـق الوجهاء والفرسان والعبيد على شكل نصف دائرة صامتة • ومقابل هؤلاء الأشخاص المقرفصين كان « **مناحـي** » وحده واقفا • اتخذ مكانه على يسار سيّده ووقف هناك بلا حراك وقبضة إحدى يديه القويتين على مقبض سيفه الفضي •

واسترقت النظرات الخفية إلى مضيفي • فقد أحاطت كوفيته بوجه نسائي بيضوي له ملامح منتظمة وأنف معقوف قليلاً يدل علـى نسبة الأصيل • وعيناه السوداوان الواسعتان البراقتان يعلوهما حاجبان كثيفان عريضان وجبهة ضيقة نوعاً ما • وعندما تبسم بدت أسنانه البيضاء المتألقة تحت شاربه الأسود الصغير • وكلما أكثرت من النظر إلى هذا الشاب الرومانتيكي كلما تعرفت فيه على ذلك الأخ القديم الصغير الجريء • وقد كلفني الكثير من جهد الارادة لأكبح جماح قلة اصطباري وعـدم الإعلان عن نفسي ولكن كان علي أن أنتظر اللحظة المناسبة • فحتى الآن لم ينبث أحد ببنت شفة • وكلما بدا ـــ أو تظاهر بذلك ـــ بانـه مهتم حصراً بالقهوجي الذي مازال يجهز القهوة قرب الموقـد • وفقاً لآداب السلوك في الصحراء يعتبر إثقال الضيف بالأسئلة الشخصية من أبواب عدم اللياقة • وأخيراً قدّم لي فواز المفتاح المنتظر بأن التفت إلي فجأة وقال : « مهما كانت البلاد التي أتيت منها أيها الغريب فمرحباً بك • » فأجبته : « أيها الأمير فواز ! لايمكن أن أدعى غريباً بين قومك • لأنني في يوم من الأيام وفي هذه الخيمة نفسها عرفت صبياً أطول قليلاً عندئذ من هذا السيف تحت قبضة خادمك • وبعد ظهر أحد الأيام عندما كان

ذلك الصبي وأصدقاؤه يرمون بالمقلاع حدث ــ بمشيئة الله ــ أن اقتربت من ذلك المكان فأصابتني حصاه رمتها يد ذلك الصبي تماماً بين العينين • وكان بإمكان أي شخص أن يقول أن الله وضع نور الدم علاقة على جبهتي ولذلك طالبت عندها بثمن باهظ لدمي • »

أصغى فواز برأس مطرق وعينين خفيضتين كما لو كان يتذكر ثم رفعهما ثانية • وحدق في لحظة كما لو كان في غيبوبة • ثم أضاء وجهه وقفز واقفاً يصرخ من الفرح وأمسك بكتفي وضمني إلى صدره صائحاً « عزيز » مستعملاً الاسم الذي أطلقته علي قبيلته في أيام طفولته « عزيز ! لقد عدت ! الحمد لله ! » • وقبلني على الخدين وضمني إليه مرة بعد مرة وقال : « الآن فهمت الكلمات التي تعلمتها من استاذي (أنت يامن يتبع ببصره جناح الطير أو مسار حصاة تطلقها يدك ماذا تعلم من تدابير الله ؟) » •

نعم لقد عدت • وأصبحت ثانية بين البدو لأرحل ثانية مع قطعانهم ولأنام تحت سقوف خيامهم ولأقطع فرسخاً بعد فرسخ راكباً على جمال السباق تحت الشمس والنجوم ولأعدو على ظهر خيولهم الأصلية التي « تشرب الريح » وإلى جانب مواكبنا تجري كلاب الصيد السلوقي •

الفصل الخامس

حب في الصحراء

إنه فصل الخصب العظيم هنا في الجنوب قرب وادي السرحان • فالمطر والزخّات الرعدية فوق كل الأراضي • أصبح وجه الأرض واحدا عظيماً • وضروع النوق المنتفخة يتصبب منها الحليب • وصغار الإبل كثيرة ــ مخلوقات مضحكة خرقاء طويلة الساقين • وملأ الجو خليط من الاصوات يمتزج بالهوادج التي تئن وتصر على ظهور الجمال التي تظهر من تحت ظلالها الأمهات السعيدات يداعبن أطفالهن • إنه ربيع السنة عندما تنبض الطبيعة بالحياة فالنساء يلدن الأطفال في الخيام وفي الظلال **بين الحيوانات الحبلى أيضاً بالصغار** وفي الشجيرات الصغيرة وأعشاب الجبال يمكن أن يسمع المرء زقزقة صغار طيور الصحراء وصغار الحباري • والصحراء القديمة الذابلة جددت نفسها بأعجوبة وأصبحت جميلة من جديد مع تفتح الصبا •

وقبلات المطر والشمس تداعب عشرات الآلاف من الورود • وخضبت التلال والوديان ضباب شفاف من **الفضة والخضرة** وتألق اخضرار المراعي التي تناثرت فيها الورود في الانهدامات العريضة فبدت أعمق وأغنى • والنسمات الربيعية الناعمة العابقة بالعطر هبت خفيفة فوق الأرض الفاتنة وكانت عيون الرعاة برّاقة بالامتنان ورغم ذلك فإن

النساء ـ صباحاً بعد صباح ـ يسحبن أعمدة الخيام من تحت السقوف المثناه ويطوين الخيام الشعرية ويضعنها على الجمال القوية .

وتبرز إحدى الذكريات من تلك الأيام التي تتحرك فيهـا الشمس شمالاً وتتحرك معها القبيلة وهي الأيام التي ذهب فيها فارس يوميـاً تقريباً لزيارة خطيبته .

في صباح أحد تلك الأيام قال لي فارس : « دعنا نذهب للصيد » وطلب من « مناحي » أن يناوله بندقية للصيد الآلية التي كنت قد أعطيتها له كتذكار . واتجهنا نحو فرسينا اللتين وقفتا بصبر بين الصفوف فأرخينا رسنيهما وامتطيناهما ثم **اتجهنـا** نحو السهل .

وعندما اجتزنا قمة إحدى الهضاب رأينا عن بعد قطيعاً من الغزلان يتجه نحونا بسرعة وكان القطيع يغيب عن بصرنا من آن لآخر وعندمـا اقتربت منا رأينا أنها تهرب من بدوي يطاردها فوق فرس أسمر . كـان البدوي بكل وضوح يبغي عزل ظبي أبيض ـ الزعيم ـ عن القطيع . ومرة تلو الأخرى وجد الظبي ملجأ له بالاندساس بين الغزلان المندفعة ولكن الفرس السمراء كانت سريعة ومدربة والفارس ماهراً . وقد تفرق القطيع وتشرذم عدة مرات أما الفارس فكان يقترب من طريدته . وفي النهاية أطلق النار عن قرب وتعثر الظبي عدة مرات ثم توقف عن الحركة .

وعندما اقتربنا من الصياد الذي كان يذبح طريدته لاحظنا بدهشة شديدة أن الصياد ليس رجلاً على الاطلاق فصاح فارس : « بديني إنها فتاة . » وحثثنا فرسينا على الجري وكنت الأول الذي يلاقي الصيادة . نهضت وسكينها الملطخة بدماء الظبي في يدها ورفعت بيدها الأخـرى لثامها حتى عينيها لتخفي ملامحها ولكني كنت قد تعرفت عليها فصرخت

بسرور « توبسا » وللحظة لم تظهر سوى عينيها الضاحتين ثم تركت لثامها يسقط من على وجهها ومدت يديها إليّ فسحبتها نحوي وقبلتها على جبهتها .

وتظاهر فارس ـ الذي كان لايزال على ظهر فرسه ـ بالدهشة وصاح برياء تام : « هل تعرف هذه الصبية ياعزيز ؟ » وجاريته في هزله فهززت راسي وقلت « لا . ولكنها تبدو لي مألوفة أو تشبه فتاة اعرفها . »

ولكن نزق الحب قضى على هذه المسرحية الصغيرة . ترجل فارس عن فرسه وعانق توبسا وبدأ يثرثر ليعبر عن فرحته للقائها على غير ميعاد ثم أخذ إحدى يديها ووضعها في يدي قائلاً : « هذه أختك ياعزيز ولو لم تكن خطيبتي لكانت لك . أليس كذلك ياتوبسا ؟ » فأومأت بالايجاب على استحياء .

وعندما ساعدها فارس على ربط الظبي فوق مذيلة الفرس لاحظت بدهشة كبيرة أن الفرس لم تجفل من رائحة الدم فقالت لي توبسا أن فارس قد دربها . لقد ركب الفرس في إحدى الغزوات وأرسلها إلى والد توبسا مؤخراً كهدية عريس . كانت الفرس محجّلة وقد سمّاها فارس « صباح » بسبب لونها ـ سمراء ذات غرّة بيضاء وقوائم أمامية بيضاء في أسفلها وصهلت الفرس الجميلة برقة ووضعت جبهتها على كتف توبسا فقال فارس « إنها تداعبك » . وبعدة طعنات جدية وخبيرة من سكينها قطعت توبسا الرأس والرقبة عن جسم الظبي وأهدت إليّ تذكار الصيد الدموي هذا . ثم التقطت بندقيتها كالشباب وامتطت ظهر الفرس بقفزة واحدة من الجانب وانحناءة واحدة من جسمها ورمقتنا بنظرة وداع خبيثة وابتعدت .

وآمسك فارس بكتفي بقوة وصاح بنشوة « إنها خجولة كالظبي الصغير . هل يعقل أن توجد صبية أخرى بمثل جمالها ؟ »

وفي اليوم التالي أتى بي فارس لمرافقته لزيارة منزل تويسا . وبعد أن تبادلنا عبارات المجاملة مع والدها سرحان دهبنا الى خيمة النساء حيث كانت تويسا لوحدها لأن بقية النساء خرجن من الخيمة .

ووضع فارس ذراعيه حول محبوبته قائلة « يانعامتي » ثم ألقت برأسها على كتفه فأجابها « يانعامتي الصغيرة » .

وحالاً ناولت تويسا محبوبها أحد أرغفة الخبز البدوية الملفوف كالزلابية وفي داخله حلويات صغيرة من صنع تويسا ومن النوع التقليدي الذي تقدمه الفتاة البدوية المخطوبة إلى عريس المستقبل . وقسم فارس الرغيف بما فيه إلى ثلاثة أقسام ووزعه بيني وبين تويسا وبينه . شكرها بجدية ثم لاطف شعرها وقال : « مقابل هذا سأجمع لك باقة من الورد الذي لن يذبل وسأحضر لك أيضاً زوجاً من الخلاخيل الفضية » . ضحكت تويسا وقالت « أزهار برارينا ليست أكبر من قبة غضبي وأنت تعدني بجمع باقة منها ؟ وأين ستجد خلاخيل وليس هناك صائغ ؟ » .

فأصر قائلاً « في الحقيقة يافتاتي الجميلة ، ياسيدتي ، سأقطف لك باقة من الورود النادرة لتتزيين بها لساعات أفراحنا في الهضاب . »

ولما كانت لاتزال غير مصدقة سخرت منه عابثة برأسه بسرور حتى انتزعت عقاله وكوفيته ثم صاحت « لكم أنت مهل » إذ سقطتست جديلات شعثاء فوق كتفيه فجذبته نحوها ووضعت رأسه في حضنها . ثم بدأت تعيد ضفر خصل شعره بطريقة صحيحة وأخرجت من طرف شالها حفنة من روث الغزال الجاف مثل براعم الكبر الخضراء الداكنة

الصغيرة . وانتشرت منها رائحة الزعتر والبابونج عندما سحقت الكرات بين راحتيها ودلكت المسحوق ـ مثل المسحوق العطري على جدائل الشعر . وبقي فارس ساكناً بدون كلام . وأخيراً أتمت عملها وأعاد فارس كوفيته وعقاله إلى رأسه ثم أعلن قائلاً : « الآن جاء دور عزيز . »

وسواء رضيت أم لم أرضَ كان علي أن أضع رأسي في حضن تويما وأن اسمح لها ـ بمساعدة فارس ـ أن تضفر شعر رأسي وأن تدلكه بعطرها الغريب . ياله من منظر ! إني نادم دائماً على أنني لم أتصور عندئذ . على كل حال فرح فارس وتويما بهذا العمل لدرجة جعلت الناس من الخيام المجاورة يجرون إلى الخيمة ويضحكون على عزيز رضوان .

وعندما كنا عائدين على مهل إلى مضاربنا في تلك الليلة سمعنا وقع حوافر بعيدة خلفنا . وبدأ الصوت يرتفع فوصل فوج من الفرسان ـ نحو إثني عشر بدوياً على جياد سريعة . وفي ضوء القمر رأينا ضفائرهم وكوفياتهم تتراقص وعباءاتهم تتطاير في الهواء . **وما ان مروا بجوارنا حتى** أن تجاوزنا ملوحين ببنادقهم ومحيين كل منا باسمه بأصوات عالية . حثثنا خيولنا وأسرعنا خلفهم الى خيمة الزعيم .



الفصل السّادس

« قائـد رحلنـا »

عندما شددنا الأعنة كان العبيد قد أضرموا ناراً هائلـة كإشارة لجمع فرسان القبيلة . قيل إن حملـة غزو كبيرة من البشري (قبائـل العنزة الثلاثة المتحالفة : فدان ــ سبا ــ أمارات) تتقدم نحونا . وقيل إن عددهم حوالي خمسمئة راكب جمل وبضع مئات من خيول الحرب، ربما كانت الأعداد مبالغاً فيها .

في تلك الليلة اتخذ الأمير فواز كل الترتيبات وعين فارس قائـداً للحملة وقبل أول خيط من خيـوط الفجر كان فارس بجـانب فراشي وسمعته يقول ضاحكاً « انهض إذا كنت تريد الركوب معنـا » . قفزت واقفاً وبدأت بالاستعداد للسير . ناولني فارس قربة مليئة بالماء وكتلة من التمر وبضع كرات من الجبن البدوي القاسي بحجـم قبضـة اليـد وكدسة من الخبز الطازج . وبمساعدة مناحي ــ الذي عيّن مرافقاً لي وضعت كل شيء في خرج ذلولي وأسرجـت **سدحـا** فرس الحرب البيضاء وربطتها من رسنها الى حزام الذلول . عندما بدأنا السير كـان الظلام سائداً إذ أن القمر قد غاب . كان الليل هادئاً وأصوات الفرسان الذين يغنون أثناء السير لم يرجع لها صدى بل عبرت الصحراء كموجة صوتية : خفية ، سحرية ، جميلة . وبدت في الظلام خيالات الجمـال

وبين الهينة والأخرى كنت أسمع صوت النعال الخفيف، أو صرير السروج • وهكذا ـ كفرسان من عالم آخر ـ تابعنا مسيرنا الصامته بين التلال حتى طلع الفجر علينا وأشرقت الشمس •

وقد زينت رقاب وجوانب جمالنا بالسائل الفضية الدقيقة والأحزمة المضفورة والأرسنة الملونة المزخرفة بالخرز الأزرق والأحمر • وبجانب الجمال هرولت الجياد برقاب مقوسة قليلاً وظهور ناعمة مشدودة وذيول عالية وتربطها إلى الجمال القطعة العليا **الزاهية اللون من تجهيزات رؤوسها** لأن البدو في الجزيرة العربية ـ بعكس البدو الأفارقة ـ لايستعملون الشكيمة ولا اللجام • **ومرشمة** السرج الرقيقة تصنع من جلود النمر أو الغزال ويربطها الحزام الجلدي الضيق •

وربض الركاب المرافقون خلف رفاقهم على سنام الجمال العالية وبنادقهم جاهزة كقطط برية بأعين براقة وعضلات متوترة • وتماوجت فوق أكتافهم أطراف كوفياتهم التي لنوّها حول رؤوسهم ورقابهم •

وفي الظهيرة كان فارس يركب في مقدمتنا بين حراسة السود فأعطى الإشارة بتبادل الركوب • وكان قد رأى سحابة غبار سببتها على مايبدو سيارتان تقتربان بسرعة •

وفي لمح البصر رمى سبعة وستون رجلاً قوياً أنفسهم ـ وبنادقهم في أيديهم ـ من ظهور الجمال إلى ظهور الجياد وسحبوا الأرسنة من أحزمة الجمال • ثم غرسوا اكعابهم العارية في جوانب خيولهم وانطلقوا إلى الامام وضاعوا في سحابة من الغبار تاركين فرسان الجمال خلفهم الذين لايسمعون سوى الصيحات الحماسية وصهيل الخيول وطرقات حوافرها • انطلاقة الخيول الجنوبية جعلت فرسي « سادها » متحفزة

فسحبت رسنها وأفهمتني بأنها تريد المشاركة أيضاً . تناولت بندقيتي الموزر وقفزت من ظهر ذلولي إلى ظهرها . واستجابت بسهلة لضغط ساقيّ وانطلقت وراء الآخرين كالغزال عندما ناديت اسمها ووجهي تقريباً يلامس شعر رقبتها . واقتربت أكثر فأكثر من العصبة الهادرة أمامي وسرعان ماتجاوزت المؤخرة ولحقت بفارس وحرسه .

وظهرت الآن السيارتان فوق تلة وأدركنا على الفور أنهما سيارتان الرولة الحربيتان فوقفنا جميعاً وانتظرنا وصولهما . وثبت أنهما تحملان الأمير فواز نفسه يرافقه محجم وعدة رجال آخرين . لقد قبضوا في جوار المضارب على كشاف من بني صخر فرفض الإجابة على الأسئلة ومنع الأمير رجاله من انتزاع المعلومات منه بالتعذيب . ومنذ ظهور الجاسوس في تلك المنطقة وجد الأمير الشاب من المنطقي الاستنتاج بأن قبيلة بني صخر قد حملت السلاح ضد الرولة المهددة من الجهة الأخرى من البشري أيضاً . ولذلك قسم قواتنا : ثلث القوات الآن بقيادة محجم تبقى لمواجهة البشري والثلث الآخر بقيادة فارس ينحرف الى الجنوب الشرقي ضد بني صخر .

وبالطبع وضعت نفسي تحت أمرة فارس . وقبل افتراقنا عن الآخرين اشتريت ناقة سباق رائعة عمرها ست سنوات كان صاحبها الرولي قد غنمها من الشرارات وهي ذلول أغبر لها رأس أسد وعينا غزال واسعتان . لقد همت بحب هذا الحيوان الرائع من النظرة الأولى . كانت موضع اعتزاز صاحبها وكلفتني أكثر مما حلمت بدفعه لشراء ناقة سباق ــ ٦٥ جنيهاً استرلينياً ــ ولكنها كانت تستحق هذا المبلغ .

وأجمل شيء فيها وماسحرني أكثر من أي شيء آخر هو الخط المثالي الطويل للظهر وخط المعدة المرتفع من عظم الصدر حتى الفخذين

الخلفيين • هذه البنية السباقية منحتها حرية للخطوات الرائعة : متناسقة وخفيفة ـ سلسة وواسعة•كانت سريعة ولاتعرف الكلل سواء في العدو أو في الخبب كما برهنت على ذلك يوم اشتريتها • إنهـا لمتعة عظيمة أن يحق المرء ركوب هذا الحيوان الأصيل • حقاً ان شرائي لها كان صفقة موفقــة •

إنها نحيلة ولكن لها قدرة احتمال غريبة رغم أنها كانت مثقلة في أغلب الأحيان ورغم حجمها وبنيتها الخفيفة وعظامها الصغيرة فإنها حملت أثقالاً عظيمة • ومن حيث الحيوية كانت تضاهي اكبر وأقوى جمال السباق • ودون أن تفقد أية ذرة من رشاقتها وجمال منظرها حملتني هذه النـاقة الأصلية لعدة أسابيع شاقة في تلك المسيرة الشاقة في النفوذ والعودة إلى المضارب دون أن تفقد بشرتها المخملية لمعانها • وحتى نفسها الحلـو كان أبهج من نفس أي حيوان آخر من جمال السبـاق التي خبرتها • كان فخذها ورقبتها وساقاها نحيلين وسنامها صغير ولكنه صلب وصوتها رقيق وحنـون سواء في **القرقرة أو النشيج** • وكانت على العمـوم تخاطبني بواسطة عينيها الناطقتين أو بدفعة رقيقة من أنفها على كتفي أو ساقي • وكانت تحب كثيراً أن تحك جسمها عليّ وتلعب معي وفي الليل أثناء اجترارها **تكنكـن** وتلتوي بذكاء لتؤمن لي منامة مريحة بجانب جسمها الدافيء •

كان شدادها المزركش المصنوع من خشب الأكاسيا المرضع بالفضة والمساند الجلدية الثلاثة وجلود الأغنام لايزال مستقرا فوق أرض غرفتي، وكثيراً ماأجلس عليه في المساء وأقرأ أو أحلم **بمهـا** (١) الشرارية السريعة • وعلى جدران غرفتي احتفظت بزركشات شدادها وأخراجها الشعرية الكبيرة

---

(١) مها : يقصد اسم الناقة التي يصفها .

دات الصفوف الطويلة الشرابات المعقودة والحافّات المضفورة التي كانت تتدلى حتى بطن مها وتتأرجح بانسجام معَ مشيتــها ولا أزال أحتفـظ برشمتها أيضاً ـ تلك الرشمة الصوفية الجميلة الملونة بالأحمر والأزرق والأزرق فوق خلفية سوداء •

واتجهنا نحو الجنوب نصيح على بعضنا بسرور ونغنـي أغانـي الجمال • في الجزيرة العربية لايحتاج المرء الى مهـاز او كرباج لحثّ الخيول أو الجمال . فأغاني الراكبين الإيقاعيـة البهيجـة وحَوْرَ بتهم المرحـة وأصواتهم الرخيمة الصافية تكفي فالصوت العربي يختلـف تماماً عـن النعيب الرتيب الناعس الأخـن عند المصريين والسوريين • وأغاني الجمال (الحداء) البدوي أيضاً منغّم وجريء ومسترجل مما يجعل الجمال والخيول تحت هذه التسلية أثناء المسيرات يفنون ساعات وساعات ـ هؤلاء الراكبون النحاف الاشداء • ولكنهم غالباًمايصمتون عندما يضنيهم الجوع والعطش والغبـار وعندما يكون من المناسـب حماية الفم والأنف من الحرارة والرمال •



الفصل السابع

موت في الصحراء

استمر فارس وعصبته في السير بمعنويات عالية كانت السمـاء زرقاء والأرض مكسوة بالخضرة والهواء معطراً ومنعشا وامتدت البرية إلى الافق بلا انقطاع .أحيانا يفقد المرء الإحساس بالتقدم فهل كنا واقفين بلا حراك ؟ نسير في دائرة ؟ لأن المنظر لايتغير . ومع ذلك فالمرء لايكل منه ولايشبع من هذه الحركة البهيجة .

نرتفع ونهبط سيراً في السهوب والصحراء دون أن ندري والتلال لاتكاد تتميز عن الوديان سوى أن الوادي مازال يلمع قليلاً بعد الزخّة الأخيرة التي تكسبه لمسـة أنضر من الخضرة .

سافرنا لمدة ثلاثة أيام لم نر فيها أية خيام أو قطعان . لاشيء سوى البرية الخالية تحت السماء الصافية وقد بدت البرية أحيانا زاهية كالحة بالحصى والأحجار والحسم البركانية .

وفي اليوم الرابع ومن طرف جرف شديد الانحدار كما لو كـان جرفا بحرياً رأينا فجأة أمام أعيننا وادي سرحان في مكان عريض منـه : خليط من الضفاف الحورية ترتفع فوق صخور كلسية وسهول حجرية ومستنقعات مالحة وتلال رملية وشجيرات رماديـة ونجـود وأحواض طينية عميقة الأخاديد نتيجة عوامل الحت والتعرية .

وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى **ميكوع** وهو مورد قديم للرولة • كانت بضع مئات منهم ماتزال تحت الخيام هناك في ظل الهضاب الرمادية فبتنا ليلتنا معهم • وطوال الليل استمروا في سقي قطعانهم من الآبار العميقة حيث سمعنا الصرير المستمر للبكرات الخشبية الصغيرة المعلقة على قوائم خشبية بدائية وقد تدلى منها دلو كبير لغرف الماء من عمق يقارب ثمانين قدماً •

وبعد مسيرة ساعات قليلة بعد **ميكوع** دخلنا نجد البسيطاء الواسعة وهي على الأرجح البقايا المنبسطة لأقدم سلسلة جبال في الجزيرة العربية • ولاتزال بضعة قمم صغيرة (مغطاة بطبقة رقيقة من الرمال) تبرز عن السطح الذي يمتد لأكثر من ستين ميلاً وهي أرض مستوية تماماً بدون ماء وبدون مرعى ويبدو أن هذه القمم قد غطته بالحجارة السوداء • وفجأة تغير العالم البهيج ولم يبق حولنا سوى القفار • ورغم أن **البسيطاء** بدت مقفرة ورهيبة لأول وهلة الا أن بعد بضعة أيام من الامان فيها علمتني كيف أحب هذه القفار بكل كآبتها البائسة إذ خيّم عليها الانعزال والسكينة كأنها كوكب مهجور • وبين الفينة والأخرى كانت تظهر أمامنا بعض الوعول أو النعام الا انها تهرب منا بمجرد اقترابنا منها • وقلما مررنا بشجيرة ترتفع حتى الركبة أو ورقة خضراء أو وردة كما أننا لم نسمع تغريد أية طيور وحتى الأفاعي والسحالي تجنبت هذه القفار • وأحياناً في الصيف (حسب كمية المطر) ينمو في هذا النجد محصول غني غريب من **السمح في البسيطاء** وهو نبات قصير صغير الأوراق ينضج على أغصانه نوع من التوت الذي يحتوي على حبيبات بذور بنية مائلة إلى الحمرة • ويحمّص البدو هذه البذور ويطحنوها للحصول على دقيق مرّ داكن • وإذا عُجن هذا الدقيق مع الزبدة والتمر أو غُلي بالماء يعطي نوعاً من الطعام يعرف بالثريد •

وبعد تجديــد مخزوننا من المــاء من بئر **الهاوسا** تقدمنــا نحو **بير باير** ثم الى وادي سرحان الشمالي الشرقي وهو يمثــل مراعي بني صخر الفعلية .

واستطلعنا ــ واحداً بعد الآخر ــ المخيمات المتفرقة لعدونا المفترض مرسلين بعد كل استطلاع رسولين يحمــلان الرسائــل التي تقول بان تجمعنا الرئيسي سيكون قرب **أم وعل** وفي إحــدى الليالي زحف فارس ــ قائد حملتنا كما سميناه ــ حتى اقترب من خيام بني صخر الى حــد جعلــه يسمع حديثــم . وبدت النتيجــة الإجماليــة لجهودنــا هي الاستنتاج المريح القائل بأن بني صخر لابد وأنهم تخلّوا عن خططهم لغزو الرولة .

ولكننا توخينا الحذر . وفي صباح أحد الأيام بينما كنا ننصــب كميناً على الأرض المالحة تحت غطاء بعض الشجيرات ظهــرت صفوف طويلة من الجمال في السهل وتفرقت لترعى . وخلف هــذه الجمال أتت الجمال المحمّلة بعائلات بني صخر المهاجرة . وتمنينا أن يخيموا قبــل حلول الظهر لنتأكد ماإذا كان فرسانهم معهم . ولكن بعد حلول الظهــر بوقت طويل استطعنا أن نراهم من مسافات بعيــدة يوقفون جمالهم . ورميت الخيام والأعمدة على الأرض وبدات النساء والأطفال والعبيد ينصبون خيامهم الجديدة بجد وحزم ووصل بعد ذلك فرسان خيولهم على خيولهم ورجال يركبون الجمال وهم الحراس الذين يحمون جناحي المجموعة الراحلة .

ونهضنا بدون ضجيج مغادرين مخبأنا وجرينا بخطوات واســعة خلف ناقة فارس الحبلى والتي كانت ضجرة طوال النهار وفجأة رفضت التقدم وناخت . كان هذا نذير خطر علينا لأن المستطلعين دائماً يتجولون

بجوار الخيام البدوية • وبالاضافة الى ذلك فليس هناك مكان أفضل للعدو ليفاجئنا بكمين اذ الصخور الكلسية بيضاء تحاصرنا من أحد الجوانب بينما في الجوانب الأخرى ركام حجارة سوداء لامعة وركام ترابي مغطى بالشجيرات •

وساعد عدد منا فارس على نزع عُدة ناقته لأنه اتضح أنها على وشك الولادة ولذلك اضجعت على جانبها • ونظر فارس إلينا خجلاً وكأنه يتوقع اللوم • ولكننا جميعاً ضحكنا على هذه البليّة•ولم تصدر أية كلمة نابية أو لعنة أو لوم للناقة البريئة بل ساد ذلك الهدوء والاتزان البدوي الذي أعجب بـه •

وبقي فارس يلاطف ذلوله المحبب برقة وعندما حلت اللحظة المناسبة أمسكت برأس الناقة وقام فارس وأحد عبيده بتوليدها • كان الوليد بطول الرجل • في البداية فكرت أنه وُلِد ميتاً ولكن بعد أن لعقته أمه لبعض الوقت بدت عليه علائم الحياة • في تلك الليلة استطاع الجمل الوليد الوقوف على قوائمه وسمحت له والدته بالرضاعة ولكن في الصباح أبعد عنها وقتل • وناحت الأم المسكينة وانتحبت بصوت عال على وليدها ولكنها هدأت عندما عاد إليها فارس • واستمرت في شم ذراعه وكتفه واستنشاء الهواء مما أثار فضولي فاقتربت • لقد خاط فارس قطعة من جلد وليدها كُمّ وكتف عباءته وهذا ماهدّأ الأم • وبعد الظهر ــ قبل ركوبنا ثانية ــ سمحت ركوبنا ثانية ــ سمحت الناقة بحلبها • كانت تنشج من وقت لآخر ولكنها تهدأ فوراً عندما يسد فارس بده أو يضغط بكتفه على خياشيمها •

وأخيراً ــ تقدمنا حوالي الظهر وأمامنا رجال استطلاعنا • ورأينا

النسور تحوم خلف أحد الجروف ــ وعند سفح الجرف البعيد وجدنا أرضاً مسهدة بالأقدام وجثة بدوي وجملة • كان الرجل قد جُرّد تماماً ولم نجد أية قطعة من الملابس أو الشداد أو العدّة لتدلنا على المكان الذي قدم منه أو القبيلة التي ينتمي إليها •

وفي تلك اللحظة عاد آحد رجال استطلاعنا ليقول إن جمال بني صخر ترعى على مسافة قريبة منا ومعها الرعيان والحراس •

وفجأة لمحنا عدداً من الرجال فوق أحد المرتفعات مختبئين خلف الشجيرات كما رأينا لمعان بنادقهم مصوباً نحونا فصاحوا باتجاهنا « أنتم هناك • ياراكبي الجمال • » ورد فارس : « أصدقاء » ولكن ما أن توقفنا • حتى لعلعت الطلقات فوق رؤوسنا • وضحك فارس ثم صاح : « بنو صخر ! وهنا يقف الرولي فارس بن نايف • سلام • السلام عليكم • »

ولكن الرجال لم يثقوا بنا إذ لابد أنه بدا لهم من المريب أن يظهر غزوة من الرولة في مثل هذه المنطقة البعيدة فلم يردوا تحيتنا وبدلاً من ذلك صدرت صرخات من حولنا « اقتلوهم ! اقتلوهم » وبدا أن أعداداً جديدة اخذت بالظهور من تحت الارض إذ من المؤكد أنهم تركوا خيولهم بعيداً عن المكان وزحفوا اليه تحت الحماية • وفي النهاية ــ عندما بدت صرخاتهم للقتل نذير شؤم ولعلع رصاصهم عدة مرات وبينما كنا نحاول افهامهم في هذا الظرف القاسي ــ خرج رجل من مخبئه وصاح « فارس بن نايف » •

ونزل قائدنا من ظهر ذلوله وصاح بسرور « جراد بن جنيب » إنه أحد شيوخ بني صخر وأحد أصدقاء فارس القدامى •

وفي لحظة من المزن خرج بنو صخر من مخابئهم والتفوا حولنا وامطرونا بوابل أسئلتهم عندما قادونا الى مخيمهم الواقع على مسيرة بضع ساعات . وفي الطريق حدثهم فارس حول أسرار أحد رجال استطلاعهم ورحلتنا السلمية إلى مراعيهم للاستقصاء . واعترض ابن جنيب مراراً وتكاراً بأن بني صخر كانوا في « سلام لاتشوبه شائبة » مع الرولة وأن الجاسوس الأسير وإنما هو قاطع طريق وطريد من القبيلة أراد نهب الرولة لحسابه الخاص .

وعندما ترجلنا في ديار ابن جنيب ذبح لنا جملاً أمام أعيننا ووضع أحد العبيد دمه في إناء ثم امتشق حفنة من الأعشاب وغمسها في الدم ورسم بها الشعار القبلي على رقاب وجوانب رواحلنا . كان القصد من دلك ضمان نوايانا السلمية وضمانة لنا بين بقية بني صخر . كانت فصيلة منهم لاتزال تطارد البدو من منطقة الحمم الشمالية الغربية الذين دخلوا وادي سرحان وهاجموا — في اليوم السابق — رعاة بني صخر الذين كانوا يرعون جمالهم . وخسر الغزاة قتيلاً واحداً — وهو القتيل الذي وجدنا جثته — وجرح اثنان من بني صخر . .

رزت هذين الجريحين فوجدت أحدهما مصاباً بجرحين خطيرين في صدره وفي بطنه وهو على وشك الموت . بذلت أقصى جهدي لانقاذه — إذ اصطحبت معي حقيبة معداتي الجراحية والمورفين والضمادات — ولكن بعد فوات الأوان وكل ما استطعت القيام به هو تسهيل ساعاته الأخيرة بتخفيف آلامه . ولم يكن الرجل قد جاوز الأربعين من العمر . حمله أصدقاؤه إلى خيمة ابن جنيب القريبة ومددوه هناك . وبعدئذ قاد أحد العبيد راحلة جميلة الى المكان ومن المؤثر أن الحيوان الذكي شعر بقرب موت راكبه فداعبه مراراً ودار حوله بعينين قلقتين واسعتين ملامساً الرجال الغرباء بشفتيه المشقوقتين وخياشيمه الحريرية الناعمة .

كان الرجل يتحدث مع زعيمه **ابن جنيب** عندما أغمي عليه نتيجة النزيف الحاد • وعندما استفاق همس ببعض الكلمات إلى أحد العبيد وقبل أن أدرك ماحدث لوى العبد رأس الجمل ودبحه بطعنة سريعة من خنجره في الوريد الوداجي •

في الحال سلخ العبيد الآخرون الحيوان وفرشوا جلده أمام الخيمة ووجهها الوبري على الأرض • وبعد ذلك خلعوا ملابس الرجل الجريح ووضعوه على الجلد • كانت أمنيته الأخيرة أن يدفن في جلد ذلوله العزيز وقد أسعدته إمكانية تحقيق أمنيته وهو على فراش الموت•ولكني لست الوحيد الذي أسف لموت هذا الحيوان الرائع دون جدوى •

وعندما لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة في المساء قام أربعة حراس من اصدقائه ولمسوا ــ الواحد بعد الآخر ــ جبهته برؤوس أصابعهم • ركع ابن جنيب بجانب الميت ووضع يده تحت إبطه الأيسر وبعد فترة قال : « حقا إنه بارد • »

نهض ابن جنيب مسرعاً ولف الجلد المبلل فوق الجثة وطلب من عبيده أن يحفروا له قبراً في الرمال • وبدون أية طقوس أو أية انفعالات حملت الجثة وعهد بها التراب •

بعد مفارقة بني صخر اتجهنا ــ في طريق العودة ــ ببطء نحو منطقة **بير هاوسا** التي يكثر فيها الصيد •

وعند الآبار قابلنا رجالاً يسقون قطيعاً من الجمال انهم من الشرارات أصدقاء الرولة وقد ساعدونا على سحب الماء من الآبار التي يبلغ عمقها خمسين قدماً • وفي المساء انسحبنا وإياهم الى التلال القريبة وخيمنا في واد صخري بعد وضع الحراس فوق القمم السوداء • وتلألأت

النجوم علينا ونحـــن نتناول عشاءنا المؤلف من لحم جمـــل صغير طري مشوي والخبز **القصـــم** وحليب النوق الطازج المتبوع بالحلويات المعتادة من التمر الممزوج بالسمن . ولم ننم نحن الرولة قبل منتصف الليل ــ كل رجـــل تحت رأسه بندقيتـــه الملقّمة ــ لأننا لم نثق تمامـــاً بالشرارات رغم أننا أكلنا وشربنا معاً ورغم أنهـــم يعيشون تحت رعاية نوري الشعلان. ولكن انقضى الليل بسلام وفي الصباح ودّعنا مضيفينا بعد أن تبادلنا بعض الهدايا البسيطة .



الفصل الثامن

النسر والنعامة

قضينا بضعة أيام بين النجود البركانية في **جبل طبيق** حيث ترتفع الصخور الشديدة الانحدار والصخور القسية والمتشققة إلى مقدار ستمئة قدم فوق مستوى المراعي المفروشة بالورود والوديان المغطاة بالجلاميد البركانية السوداء • إنها منطقة ذات جبال وحشي تكثر فيها الغزلان وطيور الصيد •

وصدف هناك أنوجدنا ــ أنا وفارس أثناء مطاردةفريسة ــ ثلاث خيام منصوبة في أحد الأغوار • إنها تخص تلك المجموعة الغريبة **السلقان ؟ (المفرد : صليب) وهم قناصة وحرفيون بدو** .وفي العرف العام فإنهم يشبهون الغجر بَصّارون يطببون الانسان والحيوان ويحبون الموسيقى ولديهم ميل للأمور الغامضة والخرافية •

والسلقان يبزون البدو والآخرين كصيادين ومتتبعي أثر ومستطلعين ويعرفون الصحراء أفضل من البدو الرحل الآخرين إذا أنهم يعرفون دون سواهم كثيراً من الآبار المنعزلة • أصلهم لغز وعددهم قليل ولكنهم يتكتلون في تنظيمٍ عشائري بقيادة زعيم لهم ويدفعون الأتاوة للدولة والقبائل البدوية الأخرى • وبالمقابل تعيّن هذه القبائل من بين أفرادها « أخاً » **للسلقان** مهمته حماية مصالحهم •

وفي تلك الفترة كان رغيم **السلقان رالب** ولـد **تولهان** وثبت أن هذا المخيم الذي اكتشفناه يخص هذا الرجـل • كان **رالب** بصحبـة زوجته وأولاده وأخويه وعائلتيهما في طريقه إلى الرولة في الشمال (إذ أن مابين / ٥٠٠ ـ ٦٠٠ / ميل لاتعني شيئاً لهؤلاء الناس) ليعمل مـع « أخيه » هناك على استعادة ثلاثين جمـلاً **صليبياً** اغتصبتها ـ كما قال ـ عصابة رولية مجهولـة •

إحدى خيام هؤلاء الغجر البدو صنعت من جلود الغزلان المخيطة وبدلاً من الأوتاد استعملوا قرون بقر الوحش•لاحظت أن هؤلاء القوم ليست لديهم أواني مصنوعة من الخشب إذ أن كل مارأيته مصنوع من الجلد فبدلاً من السجاد والوسائد استعملوا جلود الحمير والنعامات والنسور وبقر الوحش كما أن ملابسهم أيضـاً ـ باستثناء العباءات ـ مصنوعة من جلود الحيوانات المدبوغة وغير المدبوغة •

واقترح فارس على **رالب** أن يكون دليلنا الى النفود ووعده بأن يأخذ على عاتقه مسألة الجمال ويجمعها حالما يعود إلى القبيلة و في نفس الوقت تتجه عائلة **رالب** شمالاً بدونه • قبل **رالب** هذا العرض وبعد ذلك بوقت قصير غادرنا **جبل طبيق** المقفر •

وتبعنا قيادة **رالب** لعـدة أيام هادئة حتى وصلنا أحـد الوديان فأشـار **رالب** إلى آثار نمر تركنا جمالنا تحت الحراسة وتبعنا الأثر على ظهر جيادنا لبعض الوقت وعندما شخرت خيولنا فجأة عبر خياشيم مفتوحة حتى آخرها لأنها شمّت رائحة الطريـدة • نزلنا عن الجيـاد وزحفنا بحذر نحو أحد الجروف التي افترض **رالب** أن النمر يختبيء عندها • حقاً كان النمر هناك ولكن آثاره استمرت بعد ذلك : تأكـد

الصليبي أن النمر اصطاد غزالاً في ذلك المكان وسحبه بعيداً • إذن لابد أن يكون النمر الكبير قريباً وعلينا أن نضاعف الحذر• تفرقنا في الوادي وتقدمنا فرادى •

وحالاً رأيت ـ على مسافة أقل من خمسين خطوة ـ بجانب ضفة ناتئة تلمع فوقها الشمس نمرين صغيرين يلعبان وحولهما بقايا وجبة الطعام الأخيرة : متكسرة وقطع متناثرة من جلد غزال • كما أنني رأيت الأم ممددة في الظل ولايظهر منها سوى جزء من الظهر والذيل • أشرت إلى **فارس ومناحي** وراقبنا المشهد النادر لفترة من الوقت بحثنا بانظارنا عن **رالب** ولكن عبثاً وبالطبع لم يكن بإمكاننا الصراخ • رفع فارس بندقيته وأفهمني بالإشارة أنه ينوي التصويب على الأم فلربما يمكن الاستيلاء على الصغيرين أحياء • وفجأة انطلقت رصاصتان من الجانب وامتزج صداهما في الوادي وبذلك انتهت لعبة اللصين الصغيرين إذ ارتميا على الحصا يرتجفان ويترفان • واستيقظت الأم من نومها فقفزت فجأة ورمت بنفسها فوق صغيريها وآمسكت بأحدهما بين أسنانها وحاولت الهروب لكن مناحي الذي كان يراقب بهدوء أطلق النار • قامت النمرة الكبيرة بقفزة بهلوانية وارتمت بلا حراك • وتدحرجت الحجارة والرمال من الضفة فلم يتحرك الحيوان فبدا من كل الدلائل ان النمرة قد ماتت • عندها صرخنا فظهر **رالب** معتذراً لإطلاقه النار على الصغيرين لأنه لم يستطع رؤية الأم من مكانه •

استقرت الرصاصة القاتلة في زور النمرة • صاح رالب « يابنت الرهيبة » حقاً إنها قطعة هائلة • كانت أكفها الصغيرة القوية مزودة بمخالب بطول إصبع الانسان ولابد أنها مزّقت الوريد الوداجي من الغزلان والوعول وقصمت ظهر الكثير من الماعز •

وغرز الصليب سكينه الطويلة في جسم النسر ثم سحبها عبر الزور والأكعاب وقطع الرأس والأكف ورماها عند قدمي كتذكار • ثم فتح معدتها وصدرها وانتزع القلب • وكأي حيوان وحشي غرز أسنانه في لحمها الدامي وامتص ملء فمه من دمها معتقداً أن هذه الجرعة الفعالة تضيف شيئاً إلى جسارته وقوته •

وأثناء مسيرنا اكتشف **رالب** آثار أقدام كبيرة ـ زوجين من أصابع القدم ـ « للحيوان الذي ليس له أذنان » كما يسمي البدو النعامة • وتبعنا الأثر الواضح حتى استطعنا رؤية الطائر من بعيد بواسطة المنظار وهو يأكل • تقدمنا بحذر مما جعلنا نقضي ثلاث ساعات في قطع ميلين أو نحو ذلك ثم انتظرنا بينما كانت النعامة تتمتع بحمام شمسي • وفي الحال ظهرت نعامة أخرى من الأرض المجاورة لم نكن نراها من قبل وانضمت إلى النعامة المستحمّة وهي اشارة واضحة الى أنهما يحضنان صغارهما وأن العش قريب جداً •

أثناء حرارة الظهر استراح الطيران ثم عادا إلى الأكل في المساء وقد اختفيا عن ناظرنا عدة مرات ولكن **رالب** أكد من خبرته السابقة أن العش قريب من تلك البقعة التي ظهرت منها النعامة الثانية وقبل غياب الشمس عاد الطيران إلى نفس المكان •

وتقدمنا ـ فارس ومناحي وأنا ـ بحذر متبعين حرفياً تعليمات **رالب** الذي بقي مع الخيول • وزحفنا نحو الطيرين القاعدين حتى مسافة خمسين خطوة واختبأنا • ونظراً لذهاب الوهج بعد غياب الشمس استطعت بسهولة أن أميّز الذكر من الأنثى •

وفضحت نفسي بحركة خفيفة وفي الحال نهضت النعامتان وركضتا

بجنون وهما ترفرفان بجناحيهما • ثم هربت الأنثى مع سبعة من صغارها وتبعها الذكر للحماية • ولكن الصغار ركضت في كل اتجـاه واستطاع فارس إمساك ثلاثة منها وربطها بأحزمة جلديـة •

واتى رالب مع الخيول فحذرنا من مطاردة النعامتين لأنهما ــ في حال الهروب ــ لايمكـن أن يلحق بهما ولا أسرع الخيول ولكـن إذا نزعجتا فسيجريان في دوائر ثم يعودان إلى صغارهما •

واهتم فارس باصطياد الذكر فطارده • ولكن الذكر في المؤخـرة حارساً وتلفت مراراً الى الخلف أثناء جريه وهو يحرك بجناحيه وعندما رأى الفرسان يطاردونه ترك عائلته واندفع إما باتجـاه مستقيم وإمـا باتجاهات متكسرة •

وانضم رالب ومناحي وأنا الى المطاردة وخـلال ربع ساعة اقتربنا لدرجة جعلنا النعامة تجري باتجاه فارس الذي رمى نفسه من على ظهر حصانه السريع والذي جرى لبعض الوقت قبل أن يتوقف•وركع فارس وصوب ثـم أطلق النار مرتـين • وبعـد أن انطلقت الرصاصة سقط الطائر وتمدد على جانبـه وهو يرفرف بجناحيـه • نهض فارس ورمى بندقيته وعباءته ثم ركض نحو الطائر الذي يعاني من سكرات الموت • أخرج سكينه من نطاقه وغرسها في رقبة الطائر قرب عظام الصدر • ثم حنى الجناحين الثقيلين إلى الخلف وانتزع الريش الأبيض الذي يبلـغ طوله قدماً واحداً •

واعتبر رالب الفريسة ثمينة فسلخ الطائر بخنجره وفتحه وأخـرج أفضل أعضاء الصدر بعينه الخبير وبعد الشوي كان طعم اللحم الطري يشبه لحم الحباري أما بالنسبة لي فإن الكبد والقلب كانا أفضل ووجدت

أن القلب صغير جداً بالنسبة لجسم هذا الطائر الكبير .

آثناء مطاردتنا لذكر النعام لاحظت أن الانثى عادت بعد دورة كبيرة الى مكان العش وأن الصغار استجابت لنداء الأم فخرجت من مجبئها ووضعت نفسها تحت رعاية الأم . ولكن الصغار الثلاثة التي أمسك بها فارس وربطها لم تستطيع الإفلات . وعبثاً حاولنا أن نجدها وعندما يئسنا تقريباً وجدناها مختبئه في الرمال وساكنة كالفئران . فأخذها فارس وضعها في خرج جمله .

وأثناء الرحلة الطويلة كان فارس يطعمها البراعم والأغصان الطرية وخصوصاً البرقات . كانت النعامات متوحشة وخجولة في البداية ولكن أخضعها منذ اليوم الثاني وقبل بضعة أسابيع بدأت بكل اطمئنان تأكل من أيدينا .



الفصل التاسع

النفـود

وقع نظري لأول مرة على النفود في جوار **شداد أم كر** . وياله من منظر ! أمواج الصحراء الحمراء تعلو وتهبط بانتظام وتمتد إلى مالانهاية . والقسم التي تأخذ شكل الهلال والمخروطات المنحرفة تبدي تناقضاً بين النور والظل . مستويات حمراء داكنة ترتفع حتى الضفاف على الجوانب تلتهب تحت أشعة الشمس . وبين الجدران في الممرات الحمراء التي يبلغ عمقها ٦٠ — ١٦٠ قدماً وميض من الفضة والخضرة . الشجيرات والأشجار الصغيرة المتناثرة ذات السيقان البيضاء الحليبية والأغصان الطرية المتدلية والتي تحمل الغصينات الريشية والأبر الخضراء الرمادية .

حبست أنفاسي مغموراً بالدهشة والاعجاب . وبخطا صامتة تقدمت بها إلى أول شجرة ومدت رقبتها النحيلة وقضمت برفق الغصينات الصغيرة الصفراء والابر الخضراء الجديدة لنبات **الغادة (الطرفاء)** التي تتواجد على امتداد الكثبان الرملية وهي هبة ونعمة للانسان والحيوان . وتتغلغل جذورها في عمق الرمال الحمراء الكوارتزية الصافية لأنها تزدري أتربة الصحراء الأخرى .

لقد خبرت مها النفوذ وتنقلت فوق المنحدرات الشاقة التي أدت —

(١) اسم الناقة التي يركبها المؤلف .

كالبحر المتلاطم الأمواج ــ من الحوض إلى القمة وعبر الفجوات العسيقة إلى المنحدر التالي • من المستحيل أن يسير المرء في خط مستقيم كما يفعل في الحماد **والحرّة (اللجاة)** • وتابعنا طريقنا عبر لوالب وانحرافات لامتناهية فوق التلال ووسط الوديان • وبين الفينة والأخرى مرّت الطريق في سهل منبسط صغير ولكنه دائماً يؤدي إلى كثبان كبيرة على جانبها الآخر دائماً حفرة أو فوهة بركان وهي تشكل غريب مختلف تماماً عن الكثبان الرملية التي عرفتها في شمال الصحراء الكبرى •

وأحياناً ينخدع المرء بامتداد من الأرض الصلبة فيحاول الجري عبر ضفة رملية منخفضة ولكن مها كانت أكثر خبرة بهذه الكثبان الغادرة ولاتسرع أبداً • كانت تلك التموجات الرملية ذات الأطراف المتدرجة خطرة جداً رغم ماتبديه من امن واستقرار إذ غالباً ما يتبعها انحدار شديد إلى القاع في الجانب الآخر • وكنا نقضي أحياناً أكثر من نصف ساعة لنعبر بين كثيب رملي وآخر • واجهت مجموعتنا الصغيرة من راكبي الجمال صعوبة في البقاء مع بعضها • ولكن ربما كانت الجمال أكثر قدرة منا على البقاء مجتمعة • وقد عهد فارس بي كلية إلى قيادة مها إذ كانت أنها تقضي عدة شهور من كل عام في النفوذ وعرفت بالعزيزة (كما بدا لي) كيف تعرف مسبقاً أماكن الخطر •

ستبقى هذه المسيرة في النفوذ معي كذكرى لاتنمحي وخصوصاً بعد ظهر ذلك اليوم عندما رأيت ملامحها الحمراء ترتفع مهددة بالخطر فوق الرمال المنبسطة •

هذا الافتتان خلال الأيام الأولى جعلني أتلهف لقطع كامل الصحراء الحمراء رغم إدراكي بأن مثل هذا العبور سيكون مرهقاً حقاً • من

موقعنا على الطرف الغربي للنفود كانت المسافة حوالي ثلاثمئة ميل إلى الطرف الشرقي وإذا كان باستطاعة جمالنا مسيرة ثلاثة أميال في الساعة في هذه الكثبان ـ وأقل من نصف هذه المسافة عند طيران الغربان ـ فمعنى ذلك أن هذه الجمال كانت تسير سيراً حسناً • وعندما عبرت عن هذه الرغبة لفارس اعترض بعقلانية بأننا غير مجهزين لمثل هذه الرحلة وأن علي أن اكتفي بتسديد فارس لمسيرتنا على الطرف الجنوبي الشرقي للنفود • وهي تتوسع هنا لأنها تسد رؤوساً عريضة إلى السهل العربي في الجزيرة الغربية وقد سافرنا أولاً فوق هذه الرؤوس أحياناً بين الكثبان العالية وأحياناً لمدة يوم كامل عبر النجود المنبسطة• سافرنا حول الجروف الصخرية التي حطمتها العوامل المناخية وعبر الانهدامات المنخفضة ذات البرك المطرية الجافة حتى وصلنا إلى النفود نفسها ثانية • وهناك وصلنا إلى أقصى نقطة جنوبية في رحلتنا وحسب رواية فارس أصبحنا على مسيرة يوم واحد من **تيماء** أي أننا أصبحنا على مسافة خمسين ميلاً من تلك الواحة الشهيرة •

واستمرت طريقنا صعوداً ونزولاً كما لو كانت تمر فوق سنامات عشرات الآلاف من الجمال الضخمة الرابضة حتى أن رواحلنا كانت تبدي بعض العصبية احياناً مما كان يتوجب علينا قيادتها • وكان علينا أحياناً خلع صنادلنا أو أحذيتنا لنستطيع السير فوق السفوح الشديدة الانحدار حيث نغرس أقدامنا بقوة أو نجرف خطواتنا بأكفنا وأقدامنا • ومن حسن الحظ أننا ركبنا ذللاً معتادة منذ الصغر على النفود • فالجمال التي الفت العيش في الصحراء الصوانية أو المناطق البركانية ترفض بإصرار على أن تطأ هذه الرمال الغربية •

كانت خدود الكثبان مشبعة بأشعة الشمس متوهجة بالحمرة القانية

في أواخر النهار • لقد توهجت كما لو أنها اكتست بالحرير الناعم • ترى هل هناك كثبان رملية بكر لم تطأها أرجل البشر ولم تعرف إلا الأقدام الصغيرة البريئة للغزلان الرشيقة ؟

يبدو شمال غرب النفود في الربيع مليئاً بالصيد ففي معاقلها يتكاثر النعام الذي يهاجر فيما بعد مع صغاره إلى الشمال كما تتكاثر أيضاً الغزلان والوعول طريدة النمر الشرس • كما أن تيس الجبل أيضاً والنسر من **جبل الطويل القريب** حيث لاتزال هذه الحيوانات متواجدة تصل في رحلاتها الربيعية إلى **القفار** الغربي •

ولنعد إلى زحفنا فوق الكثبان بعد ظهر ذلك اليوم إذ لفت انتباهنا من بعيد شيء يتحرك تحت **الطرفاء** • أوقفت راحلتي وركزت منظاري فظهر لي شيء خلاب • مجموعة من غزلان الريم البيضاء كالثلج أقدامها مغروسة في الرمال الحمراء ترعى الأغصان المتدلية في جو حفي أخضر • وبتدقيق النظر رأيت مجموعات أخرى من الغزلان بالقرب منها : بعض الغزلان يغالبها النعاس والبعض الآخر تشم بعضها أو تتناطح بقرونها ورؤوسها • مناحي أيضاً كان ينظر فأخرج بندقيته من خرجه ولكني رجوته ألا يطلق النار وان يدع هذه الحيوانات الجميلة **بسلام** فتقبل وجهة نظري • أشار إلى فارس والى الآخرين فساروا في غور بين الكثبان بينما تخلفت أستمتع بمنظر هذه المخلوقات الفاتنة • إنها تروي عطشها بالندى الذي يتجسع في الصباح على الأوراق والأزهار كما يقول البدوي •

وقدّر لي أن أنال مكافأة في تلك الساعة من المراقبة والتأمل الصامت إذا لابد أن بعض الحركة أو الضجة المريبة نبهّت الغزلان لأنها

انتصبت كلها واقفة في عدة مجموعات بيضاء في الرمل الأحمر منتصبة الآذان وكلها تحدق باتجاه الغرب • وفجأة ظهر فوق السفح مجموعة من احدى عشرة نعامة بخطى طويلة بطيئة ــ ثلاثة ذكور وثماني إناث ــ إنها طيور رائعة• وتسلل خلفها غزال فضولي لكن النعامات بدأت بالعدو واختفت في متاهات الكثبان الرملية •

وعندما سرت في إثر رفاقي قطع طريقي أحد الثعالب وطارت غربان كثيرة من بين شجيرات الأكاسيا • كانت الشمس تشرف على المغيب والهواء الجاف يميل نحو البرودة وأمامي الأمواج الرملية بقممها الذهبية الحمراء تلقي ظلالاً داكنة نحو الشرق • وستر وجه البريّة حجاب بنفسجي وخيم على النفود سكون عجيب • غسق قصير ثم يأتي الليل والريح تحمل إلي صوتاً خافتاً • إنه فارس يبحث عني فأجبت النداء وركبنا جنباً الى جنب إلى أخدود آمن محاط بالكثبان العالية جعلت منه مراحة جمال ممتازة ومخيماً مثالياً •

قال فارس « دعونا نتناول طعامنا » وسحب شداد الثقيل وقربة الماء من على ظهر ذلوله • وسرعان ماأشعلت النار من أغصان الطرفاء وخلال ثوان قليلة أصبحت دافئة واشتعلت بدون دخان وبلهب لا لون له تقريباً وغذّاها الرجال بالجذور والأغصان بحجم الذراع • في هذه الأثناء جهّز العجين • وعندما أصبحت هناك كومة من الجمر المتوهج أحضرت صفيحة الخبز المعونية ووضعتها على النار • وكان طعم هذا الخبز الساخن رائعاً مع التمر والعسل وجبن الجمال الصلب •

وضع فارس الحراس فوق هضبتين رمليتين مشرفتين وكان علي أن أتولى إحدى نوبات الحراسة • ولفّت الصحراء ليلة صافية وعكست

كثبان الرمال والهواء ضوء النجوم بلون بنفسجي ذي بريــق فضي • كانت ليلــة تسحر الألباب •

ولكن أعظم أعجوبة هو ذلك السكون التام الذي سحرني فسكرت من جمال الاضواء الليلية الخافتة وعظمة السماء التي تنعكس في هــذه المرآة الرملية الفريدة • وجلست لعدة ساعات وحيــداً يغمرني هــذا السحر العجيب •

* * *

الفصل العاشر

العاصفة الرملية

لم نكد نغادر النفود باتجاه **جبل الطويل** الذي يبعد نحو مئة وخمسين ميلاً حتى بدأ مطر خفيف بالهطول • وبدا قوس القزح فوق الكثبان كسيف معقوف برّاق وأخذ الرعد يقصف من بعيد • وصاح فارس « ياقدير ! الصوت المبارك الذي يعدنا بالمرعى • » وانخفضت السحب حتى لامست ذيولها الرمادية قمم الكثبان • ولمع البرق المتشعب وقصف الرعد بكل جلاله يهز الهواء • تساقط البرد الصغير ثم انفجرت السحب بعدئذ • بدأ الرمل بالغناء تحت سياط المطر وتجعد وبر الجمال المبتلة نحو الأعلى وبدأت ملابسنا تقطر كما لو أننا انتشلنا من الماء •

وسرعان ما انتهى الطوفان وأخذ هواء دافىء في الهبوب يجفف الانسان والحيوان • وعادت الشمس تسطع من جديد ولم يحن وقت الظهيرة إلا وكان العسيق هو الشاهد الوحيد على هطول المطر •

وبعد يومين هبطنا إلى الأراضي المنخفضة وشعرنا بالرياح الخانقة التي تحمل سحباً كثيفة من الرمال وتحملنا اليوم الأول منها رغم أنها هبت بقسوة وبدون انقطاع • وفي اليوم التالي تطورت إلى عاصفة رملية عنيفة لدرجة يكاد المرء لايستطيع البقاء في **الشداد** . واقترحت العودة الى النفود والبقاء هناك في غور عميق حتى تنتهي العاصفة إذ أن المرء في

أمان في الرمال الحمراء نظراً لأن كثافتها النوعية أكبر كثيراً من الرمل الأبيض أو الأصفر وهي مكسوة بالخضرة الى حــدٍ ما بعد الامطــار الشتوية •

ولكن رفاقي ارتأوا أن حدة العاصفة قد انكسرت وأنها لن تدوم أكثر من يومين ولذلك استمرت مسيرتنا آملين أن تشرق الشمس في الغد ثانية فوق أراض هادئة • لكن اليوم الثالث كان تكراراً لليوم الثاني : رياح هوجاء عاصفة ، وسحب ورمال مندفعة ، والرؤيا متعذرة لأكثر من عشر خطوات •

كان بالامكان احتمال الحر ولكن الهواء كان حاراً ورطباً لدرجة جعلتنا تتصبب عرقاً من كل مسامات جسمنا ولم يكن بالامكان جفاف العرق في هذا الهواء الحار الرطب والى هــذه المتاعب أضيف التخرش الرملي • كان ذلك جديراً بالنسبة لي الجزيرة العربيــة فمهما ارتفعت درجــة الحرارة كنت أجد الهواء جافــاً • حتى في الشتاء بعد المطر أو العاصفة الرعدية فالهواء يبقى خفيفاً ومنعشاً •

وبعد شبه الاختناق في النهار تجمدنا حتى العظم في الليل تلــك الهبات الجليدية التي لسعت أجسامنا وجعلتها ترتجف من القشعريرة • تشققت أيدينا ووجوهنا وحتى ألسنتنا أخذت تؤلمنــا رغم وفرة الماء • ونفذ الرمل الأبيض الناعم إلى كل مكان : تحت الثياب ، في الأنوف ، في الآذان ، في العيون وغطى الشعر • أصبحت شفاهنا جافة وحميت عيوننا وحلوقنا وحناجرنا مــن الالتهاب والألــم وأصبح التنفس لهاثاً ونبض الدم في القلب والصدغين •

وجرّت جبالنا نفسها بأقصى جهد تئن وتشتكي•وفي أحد الخروج

حملنا أحد العبيد الذي انهار من الانهاك في اليوم الثاني لمسيرتنا .

وعانى فارس أقصى المتاعب من نعاماته الصغار وإطعامها . ولكنه رغم العاصفة نجح في تدبر العلف لها وأحضر شيئاً ما : يرقات ، خنافس، أعشاب خضراء وغصينات ، سحلية ، بيض الحبـاري . وعدة مرات في اليوم يوجه بضع دفقات من الحليب من ناقته (التي ولدت كما ذكرت) في أفواه النعامات المفتوحة . ورغم كل جهوده فقد أودت العاصفة بحياة واحـدة منهـا .

في اليوم الثالث مـن العاصفة مرض فارس بنوبة مفاجئة : التقيؤ أولاً تبعته قشعريرة وحمى بقيت بجانبه ولكن ضعف لدرجة خطـيرة حتى اضطرنا الى استعمال الخرج كنقالة لحمله .

في الليل هدأت العاصفة قليلاً ولكننا لم نر أي أثر للنجوم . كان الليل مظلماً وبارداً واستمر الرمل في الهبوب .

في اليوم الرابع جنّت العاصفة من جديد وصفرت الريح أعنف من السابق . وكادت الرمال **تملأ رئاتنا** . وتلمسنا طريقنا بعد أن أعيتنـا الصدمات والسهر المستمر وآلام المفاصل والإنهاك الشديـد . وسقط جملان فاضطررنا لتركهما ووزعنا راكبيهما وحمليهما على بقية الجمـال المنهكة . وأسوأ من هذا كله أن فارس أخذ يهذي . وفي خرج جمـل آخر جلس العبد ذادان (الذي أصابه المرض قبل يومين) في ذهول تام أقرب إلى الموت منه إلى الحياة .

وأخيراً بدا شيء ماعبر سحب الرمال الكبريتية اللـون . وبدأت ملامحه تتضح حتى تحول إلى شكل متجسد يبعث على الراحة.إنه جرف

صخري وملجأ أمان • تجمعت الجياد على بعضها بينما صفرت العاصفة فوقنا حاملة الرمال عبر قمة جدار الملجأ • وغاص الرجال والحيوانات المنهكين في الأرض •

أما فارس الذي كان ممدداً على **السجادات** فقد غطّ في نوم شبه الغيبوبة • حاولت تبديد جبهته المحترقة وأسقطت بضع قطرات من الماء بين شفتيه الجافتين • وبعد بضعة ساعات استيقظ وهو يبدو أحسن من السابق وعليه علائم المعافاة • أما الآخرون فقد استلقوا على جلود الخراف كالمقعدين الذين ينامون كالأموات • وأخيراً استندت إلى مها وغلبني النوم •

استيقظت في الليل ولأول مرة وهلة ظننت أنني في حلم فقد أطلت سماء صافية متلألئة بالنجوم على قفر غارق في هدوء تام • أزحت فروتي التي اتدثر بها ونهضت لأعتني بمريضي • وعندما انحنيت فوق فارس فتح عينيه وكلّمني • شكراً لله • أنه أحسن حالاً في الجسم والعقل• وشكواه المريرة الآن هي الجوع والعطش فحضّرت له كل مايسدّ حاجته • وبعد أن قدمت العون إلى ذادان (الذي تحسّن أيضاً وأصبح قادراً على تناول الطعام) لففت نفسي ثانية في فروتي وفي الحال عدت الى نوم عميق •

وانبلج الصبح فوجدني نصف مستيقظ وواع إلى حدٍ ما رغم أن عيني مازالت مغلقة ولكن ماأزعجني هو أن مها بدأت تشمني باستمرار• ولما لم تكن لدي أدنى رغبة بالنهوض دفعت برأسها بعيداً • ولكنها استمرت تشمني وتشكو برقة ذات معنى حتى اضطررت لفتح عينيّ اللتين وقعتا على منظر جديد • كانت الجمال جاهزة للرحيل وفارس — — لم أكد أصدق عيني — يطعم نعاماته وذادان يسقي الجياد ومناحي

يمشي بين صفوف الجمال حاملاً عباءته التي تحولت إلى كيس وناثراً من الغصينات التي جمعها للجمال وقرب « نار القهوة » قرفص راالب يغلي القهوة المرة التي عطرت نكهتها الجو .

طلعت ثانية الشمس على عالم متجدد لانهائي الأبعاد يكشف عن جو شفاف بعد أن صقلته عاصفة الأيام الأربعة .

* * *

الفصل الحادي عشر

أيام الطمأنينــة

كان هدفنا التالي ينتصب أمامنا ـ الجـدران الحجرية الرمليـة الداكنـة **لجبل الطويل** ومن سفح هـذا الجبـل هناك مسيرة ثماني ساعات على ظهر الجمال للوصول الى واحة الجوف في الطرف الجنوبي من وادي السرحان . خططنا مسارنا باتجاه وسط السفح مارّين فـوق قمم الجبل المحاطة بالصخور السوداء . بين الشقوق العميقة للسلسلة القديمة عرف فارس كيف يختار الشق الذي يوصل الى **ممر مستندا)** الذي نستطيع أن نسر من خلاله إلى السهل خلفه وجدنا هناك مخيمـاً روليأ استقبلنا بأذرع مفتوحة وهناك قررنا أن نبقى لمدة اسبوع كامل لنستريح ونرعى جمالنا .

خلال هذا الاسبوع استطاع فارس تأمين الخلاخيل التي وعـد حبيبته بها . ذهب إلى الجوف وهناك قايض إحـدى نعاماته الصغيرة مقابـل الخلاخيـل .

كان الاسبوع بالنسبة لي لاينسى : اسبوع من التفكير والتأمل بالاضافة إلى الانطباعات الجديدة . تجولت مع مناحي في معاقل جبـل الطويل : أنا لمجـرد التمتع بوجودي هناك وهو بحثاً عن الصيد .

اصطاد مناحي عدداً من ماعز الجبل بينها بعض النماذج الرائعة .

ولكن رغم وجود هذه التيوس البرية فإن السلسلة مقفرة إلى حد كئيب ولونها السائد داكناً بل مائلاً إلى السواد ، وبـدت صخورها البارزة الحمراء والزرقاء الأردوازية تعمّق هذا السواد بدلاً مـن التخفيف منـه .

في صباح أحد الأيام تركت (مناحي) يذهب إلى الصيد لوحـده وبدلاً من الذهاب معه التحقت بأحد الرعاة . كانت الجمال الموكولة إليه ترعى بعيداً عن المخيم لذلك أتى إلى المخيم مرة كل ثلاثة أيام .

كانت المنطقة صخرية ، وتجولت الجمال فيها طوال النهار بحثاً عن الطعام بـين الصخور التي ارتفعت أحياناً حتى رأس الإنسان . جمعنا القطيع ظهراً وقدناه إلى ظل بعض الصخور العالية حيث تمددنا علـى الأرض نصف نائمين ، باسترخاء متكاسل طيلة ساعات الحر . وعندما تلبدت السماء بالسحب اضطررنا للحركة الدائمة لتجنب البرد الشديد ، متوقفين قبل أن تغرب الشمس للحصول على بعض الحليب في وعـاء خشبي لعشائنا .

كانت النباتات بـين الصخور مليئة بالأزهـار العطـرة البيضاء والبنفسجية والحمراء . بعضها أكسب حليب جمالنا نكهة خاصة لذيذة تذكرنـا **بالقصعين** أو البابونج أو بعض النباتات العطرة . هذا الحليب خال من مرارة حليب بعض المناطق أو حليب وادي السرحان المائي المالح وحتى شوك الجمال يزهر هنا عند سفح جبل الطويل كما أن الأكاسيا الصغيرة تبعث رائحة حلوة . وأحياناً غطى الطلع الأزرق والأصفر قطيعنا الصغير .

كان رفيقي الراعي فتى نابهاً . وبـدلاً من الجلوس علـى جمله

بالأسلوب المعتاد برع في التمدد لساعات طويلة خلف سنامه متعلقاً بــه كالعلقة • حاولت أن أقلده ولكنني قضيت أكثر من يومين حتى اكتسب هذه المهارة : كيف تثبت ركبتك في عظام ورك الجمل ثم تتمدد إلى الأمام وتستعمل سنام الحيوان الوبري كوسادة لمعدتك لتركب براحة مدهشة • قدنا الجمال بالعصي الخاصة بضربها برفق على هــذا الكتف أو ذاك • وهكذا سرنا ببطء جنباً إلى جنب والجمال ترعى أثناء سيرها وتتوقف أحياناً • ولكن كان علينا أن نراقــب جمالنا جيداً لأنهــا كانت تخادع باستمرار •

في هــذه الأيام الثلاثة تعلمت الكثير • أدركت أهمية الأصوات الخاصة بالجمال • تعلمت أن في التناغم المرتفع في قرقرة المعدة وفي غرغرة الحنجرة يكمن معنى لا يمكن أن تعبر الكلمات عنه • وحتى التجشؤ بملء الحنجرة تعبير عن أفكار نبيلة • تعلمت كيف أعالج الأشواك التي تخترق نعال الصنادل والأحذية وكيف أعالج لسعة النحلة التي تجعل شفة الجمل تتورم إلى حجم هائل • كما علمني رفيقي أيضاً كيف أسد ضرع الناقة لمنع سقوط الحليب وبالتالي ضياع الحليب الثمين وكيفية منــع الجمل من « الشرب لعدة ساعات » من ضرع أمه بتثبيت وتد خشبي على أنفه • وتعلمت أن أستدل من الآثار على التربة الحصوية القاسية فيما إذا كانت الجمال التي عبرت كانت جمال ركوب أو جمال أحمال كما تعلمت أيضاً قضايا العمر والجنس والتوالد وقضايا أخرى كثيرة •

أصغيت بأنفاس حبيسة إلى رفيقي يقص علي أن الخرزة الزرقــاء المربوطة إلى أوبار رقبة الجمل أفضل تعويذة ضد العين الشريرة • كما أخبرني أيضاً عن القراد (الذي يبلغ حجمه حجم الحنظب) الذي يوجد في جلود الجمال ؛ وعن الغربان الزرقاء ــ السوداء الجميلة التي تقفز على

ظهر الجمل بأمان تلتقط بمناقيرها المستقيمة هذه القرادات والطفيليات الأخرى التي تعيش بأمان في وبر الجمال الكثيف .

إن بهجة مراقبة الجمال الصغيرة جعلت أيام تجوالي الثلاثة ثمينة . يالها من حيوانات رائعة ! لكم تعشق لعق وشم بعضها ! إنها تمشي بصعوبة على قوائمها الطويلة جداً في مجموعات مؤلفة من خمسة إلى ستة جمال وتدلك رقابها النحيلة الطويلة .

عندما يسقط المطر على وبر الجمال الكبيرة أو الصغيرة فإنها تنقلب إلى تموجات وتجعيدات وحواشي تسر أي حلاق نسائي عصري .

عندما جلسنا أمام النار وظهورنا إلى الصخور . وأخذ رفيقي يروي القصة تلو القصة استمتعت برؤية الجمال تقترب وتتزاحم وتصغي باهتمام بالتشجؤ ثم تعود بهدوء الى اجترار مخزونها من الأعشاب المزهرة والأشواك بمصاحبة صرير الأسنان العالي النشاز . إنها طريقة الجمال !

كنت في كل صباح أستيقظ لأستمتع بشروق الشمس أو النظر إليها بعد شروقها بين غابة كاملة من السيقان (لأن كل العالم يهوى السيقان الطويلة) أو تحت عقود من الرقاب الطويلة .

الفصل الثاني عشر

الجمال والنساء والاطفال والجراد

يالهذه الجمال ! إنها تثبت أقدامها وتسحق بها وتتزاوج وتتصارع وتبكي وتخاف (نعم !) وتضحك ! إنهـا ضعيفة ولكنها دائماً وأبداً هائجة • إنها تجري كالآلات لساعات طويلة ثـم تتوقف فجأة وترفض التزحزح • وبمجرد أن يكـون راكبها فوق الشداد تصبح حيوانـات منتصبة وفخورة وواثقة من نفسها ونبيلة تتحرك بخطى مرنـة ولكنها عندما يجلس الراعي الكسول فوق سنامها تصبح بليدة وكسولة وحتى نهمـة •

الجمل ليس مجرد حيوان للركوب فالبدوي يستفيد منه بطرق كثيرة أخرى • إنه يطبخ لحمه ويأكله رغم أن لحمه قاس حتى بعد الطبخ لدرجة تجعل أسنان المرء مثلمة أو مخلخلة نتيجة للجهد المبذول لمضغه • والبدوي يشرب حليب الجمل • وفي وقت الشدة يشرب حتى السائـل الحامض الكثيف الذي تفرزه معدته • في صباح الأيام الباردة يدفىء الناس أيديهم في بول الجمل وأحياناً يغسلون به شعرهم • إنه يقتل كل الطفيليات ! ووبر الجمل يجمع ويتحول إلى عباءات للرعاة وثياب للنساء والأطفال كما أن هذه الحيوانات المسكينة تنوء تحت أحمال لاتصدق • أما روثها فيستعمل وقـوداً لنيرانهم وتصنع من جلودهـا قرب الماء والنطاقات والصنادل •

في صباح أحد الأيام لاحظت امرأة تتجول بين الجمال الرابضة . وكلما رأت ناقة تنهض أسرعت إليها وجمعت بولها (الذي كانت بانتظاره) في وعاء تحمله لهذه الغاية . ويجب أن تتذكر أن بول الجمال تفوح منه رائحة الأعشاب والنباتات العطرية . وعندما عادت إلى خيمتها التي كان أحد جوانبها مفتوحاً رأيتها تجمع خصل شعر ابنتها الصغيرة في يدها وتغمسه في سائل الشعر الثمين ثم تمشط وتضفر الشعر الأسود الرطب على شكل الجدائل المعتادة . ثم رأيتها تعود إلى الجمال ثانية ولكنها تجلس فجأة . وبعد لحظة نهضت ثانية ورمت وعاءها وعادت مسرعة الى خيمتها ولكنها سقطت قبل أن تقطع مسافة طويلة . نهضت وركضت نحوها .

وعندما حاولت مساعدتها على النهوض لم تنبت ببنت شفة لكنها سحبت ذراعيها مني وجثمت على الأرض . لاحظت أنها في حالة ولادة . ولما لم يكن هناك أي أشخاص كبار في مدى السمع ناديت بنات المرأة وطلبت منهن أن يحضرن فرشاً وجلوداً صنعت منها وسادة للمرأة بين الجمال وأعدت البنات إلى الخيمة واتخذت من نفسي ستارة للمرأة وسترتها بأحد الجلود وهكذا ولدت صبيها الأول .

في الحال وصل زوجها واثنين من عبيد فارس . التقط الأب المولود الجديد وهرع ثلاثة رجال إلى جمل فضربوه على وركه لينهض وأخذوا يدلكون جنبه بأيديهم اليمنى حتى تبول فحمموا المولود الذي كان يصرخ فعمدوه بهذا الماء المعطرة من حيوان الصحراء إلى زمالة البرية المقدسة .

كنت ماأزال أفكر بالصورة غير المتوقعة التي تمت بها هذه الحادثة عندما روّعتني ضربات ثقيلة على سطح الخيمة والرمل في الخارج . في

كل مكان : على الخيام وعلى ظهور الجمال كانت السماء تمطر جراداً أحمر سميناً •

عندئذ كانت والدة المولود الجديد تقرفص في خيمتها الملأى بالدخان مشغولة ــ بمساعدة صديقاتها ــ في لف جسمه بمسحوق بعر الجمال والأقمشة القديمة وهو إجراءلابد منه عند البدو لحمايةالمولودين الجدد ولكن رغم الأهمية القصوى لهذه العملية فإن كل النساء باستثناء الوالدة اندفعن بعجلة شديدة لمساعدة الرجال والأطفال في جمع الجراد •

واستمر الجراد يأتي بأسراب بل بسحابة فوق سحابة • وبينما اندفعت الآلاف بأصوات عالية فإن الكثير منها توقف عن الطيران واستقر حولنا • فحيثما تطلعت وجدت الأرض مغطاة بالجراد كما لو كانت مغطاة بسجادة حمراء زاحفة •وفقدت الارض العشب والحشائش والشجيرات بفعل كتل الحشرات التي تلتهم كل شيء •

وسرعان ماكان الجراد فوق كل موقد وكان الرجال والنساء والأطفال يقرفصون متحلقين حول الموقد • التقطوا الحشرات بجناحيها الشفافتين وقطعوا الساقين وغمسوا الحشرات المشوية بالملح وأكلوها •

لم أستسغ طعم الجراد المسلوق إذ أن لها طعم اليخنة (الفثة) أو مثيلها من الخضراوات • لكنني وجدت الجراد المشوي مقبولاً أكثر فهو قصم من الخارج وداخله يشبه السبانخ الطرية • في كلتا الحالتين ليس له طعم اللحم • إنها حشرات نظيفة مقبولة كطعام ولكن المرء سرعان مايملّها عندما يتوجب عليه أكلها دون سواها يوماً بعد يوم •

استمر الستار الدخاني في كل المخيم طوال النهار مما دفع النساء

والأصناف للجري لجمع الجراد • وفي صباح اليوم التالي وجدت الأكداس من تلك الحشرات تجفف في الشمس وعندما غادرنا هذا المخيم بعد بضعة أيام لم يكن هناك أي كيس أو خرج فارغ وحملت جمالنا الأحمال الهائلة من هذه الحشرات المجففة • فالرجال والنساء والكلاب والجمال أكلت من الجراد ولكن لبضعة أيام فقط لأن الجراد قلب معدة الجميع • وما تبقى حفظ بعناية لأوقات عصيبة أخرى لأن الجراد عندما يتدفق بأعداد هائلة يستطيع المرء أن يتنبأ بالقحط والمجاعة •

وعندما سرنا في إثر هؤلاء الغزاة وجدنا الأرض جرداء عارية إذ أن كل قطعة عشب اختفت في تلك الأفواه النهمة • ولكن أدركت أن « وباء الجراد » لم يكن ماحقاً تماماً في الصحراء كما كان بالنسبة للفلاحين في شرقي الأردن وفلسطين ومصر • ففي الصحراء يعتبر نعمة بالنسبة للناس الأخرى سمنت من أكل الجراد كما أن أسراباً من اللقق تتبعت السحب الحمراء • والجراد مفيد جداً حتى بالنسبة لسكان الصحراء الآدميين • حدثني فارس أن عشرات الآلاف من البدو اضطروا أن يعيشوا على الجراد فقط لمدة أسابيع وأحياناً حتى جمالهم وخيولهم لاتجد طعاماً آخر • وخلال مسيرة الأيام الأربعة إلى الشمال ــ حوالي (٤٥ ــ ٥٠) ميلاً عن مخيمنا الأخير في جبل الطويل ــ وجدنا أن كل المراعي قد اختفت إذ ابتلعها الجراد حتى آخر نبتة • وفي سهل **البياز** فقط وجدنا انهداماً كثير الأعشاب لم يمسه الجراد فخيمنا هناك في حماية أحد الوديان •

أنزلت النساء والعبيد أحمال الجمال وفي الحال بدأت بنصب الخيام • فرشت أقمشة الخيام على الأرض مثل الجلود السوداء الكثيفة الشعر ورسمت الخطوط شرقاً وغرباً وغرست أوتاد الخيام في الأرض

بالمطارق الخشبية ووزعت أعمدة الخيام بالتساوي تحت شريط السقف. وبالرفع والدفع تنتصب الخيمة عموداً بعد آخـر حتى يستقر « بيت » الشعر فوق دعائمه . ويرتفع صف بعد آخر من الخيام التي ألقت بظلالها عندما لمعت أشعة الشمس الأخيرة على سقوفها القسية .

اشتريت جملاً ضعيفاً من رفاقي المسافرين وذبحته ووزعت لحمه على الجميع . وسرعان مابدأت طناجر أبناء **اسماعيل** بالغليان وجذبت روائح الطعام قطيعاً من الكلاب الجائعة . وأخذ أحد الرجال على عاتقه أن يلعب دور المضيف لي ولفارس ولعدد من الرجال الآخرين . ومـن قلب الظلمة تسلل قطيع جماله بهدوء وظهر فجأة في ضوء النار كأنه ظهر من تحت الأرض وجثم أمام خيمته . وشعرنا بالارتياح والألفة بجانب النار ضمن الدائرة الواسعة من الرجال والحيوانات .

ونقل طاهينا كتلة طينية عكرة من القهوة المطحونة من إحـدى القرب الجلدية إلى مصب القهوة الذي وضعه على النار . وعلى الخبير الأسود المر وبعد أن أزيلت الرغوة جيداً صب الطاهي جزءاً من القهوة في أصغر مصب متوفر ومن الأخير بدأ يصب بضع قطرات في كل مرة في فنجان خشبي وحيد لرجل بعد آخر في المجموعة . وبدأت كومـة بعر الجمال الذي جمعته النساء بالتوهج وبدا كل فرد على رؤوس أصابعه مترقباً عندما نهض وذهب إلى جناح النساء مـن الخيمة . وعلا منـه الصخب فالعشاء جاهز تقريباً ؛ وبالتأكيد ظهرت امرأة وأحـد العبيد يحملان « منسفاً » كبيراً مملوءاً باللحـم ووضعاه عند المدخل . وصاح فارس في الليل يدعو للعشاء حتى عابري السبيل في الجوار .

تجمعنا حول هذا الجبـل من اللحـم ورأيت في الضوء المتراقص الرجال الجائعين التواقين يقرفصون مقابلي بضفائرهم السوداء تحـت

كوفياتهم البيضاء والحمراء والتي ارتدت أطرافها فوق أكتافهم وبدؤوا الأكل بأصابعهم فنزعوا اللحم عن العظام والتهموه بجرعات كبيرة • أخذ مضيفنا يرمي إلي بقطع اللحم الشهي عبر المنسف الذي كان مزيناً برأس الجمل المفتوح ولكن بدون المخ • فالنساء فقط هن اللواتي يأكلن المخ لأن من المفترض أنه يجعل الرجال ضعاف القلوب كما أن قلوب الحباري والطيور الأخرى أيضاً لايرغب فيها أسياد الصحراء الشجعان •

بقينا أربعة في هذا الانهدام نظراً لوجود الكفاية من الطعام والماء • تناثرت الجمال في المنطقة المجاورة كما أن النساء انشغلن في اقتلاع جذور الشجيرات الصغيرة وجمع الحطب الذي حملنه الى المخيم بحزم كبيرة • الكثيرات من النسوة ذوات أجسام جميلة يمشين منتصبات وبخصور متمايلة حتى عندما يئنون تحت الأحمال الثقيلة • أطراف أثوابهن الزرقاء تنساب خلفهن على الرمال ولكن مقدمة الثوب تجمع وترفع بالقدر الكافي ــ والكافي فقط ــ أي حوالي عرض الكف ليتيح لهن حرية الحركة •

ووصلنا الى الحوز جنوب جبل عنزة وهو منطقة منخفضة مملوءة ببرك المطر بعد أحد عشر يوماً من السير المتمهل •

وهناك افترقنا ــ فارس وأنا ــ عن بقية المسافرين واتجهنا غرباً إلى أطراف الحماد **والحرة** (الصحراء الصوانية) قاصدين وادياً بجوار **أم دعال** • وادهمنا الظلام في المناطق المنخفضة ولكن في المناطق المرتفعة من الحرّة بقي من ضوء النهار مايساعدنا على الرؤية • وأوقفت مها لأن منظراً عبقرياً ظهر أمامي ــ مضارب الرولة في المساء •

بعد رؤية البرّية يوماً بعد يوم ولعدة أسابيــع ـ لاشيء سوى السماء الزرقاء والقفر ظهرت لنا فجأة مدينة من الخيام.وتصاعد الدخان من آلاف الخيام السوداء وبينها بدت قطعان الجمال ـ المئات منها تتخذ سبيلهــا نحو المبيت .

وأخيراً عدنا إلى المنازل مخلّفين وراءنا / ٧٥٠ / ميلاً من اعتلاء الجمال عبر صحراء الحماد والنفود البكر وجلبت معي ذخيرة لاتقــدر بثمن من الذكريات التي لاتنسى .



الفصل الثالث عشر

تويما

في اليوم التالي لعودتنا كنا ــ انا وفارس ــ مستلقين على أحدى الهضاب نراقب باسترخاء قطعان والده المتناثرة • تحدث فارس عن حبيبته بشاعرية المحب وعاطفة العاشق قائلاً : « التي تقترب في هودجها ••• المختبئة خلف أشعار الخيمة ••• المحروسة •••التي سيحملها الهــودج عبر الوادي الظليل العميق حتى تحمّر الشمس خديها بشعاعها • »

واقترب بدوية تركب ناقة وتسوق أخرى وصغيرها أمامها • وصاح فارس « تويما ! » إنها صديقة تويما • وانزلقت من على ذلولها وتحدثت إلى الحيوانات التي توقفت مطيعة التعليمات وانتظرت •

وسألها فارس : « أين أختي ؟ » فأجابت مبتسمة : « إنها تنتظــر عودتك يوماً بعــد يوم • » ونهض فارس واقترب مــن الفتاة قائلاً : « اطلبي منها أن تتذكر تلك الليالي التي كنا تتقابل خلالها بالسر •أخبري حبيبتي أنني أتوق للسير معها فوق الكثبان الرملية • إن أطراف ثوبهــا سوف تمحو آثار أقدامنا ولن يعرف أحد مكاننا • » واحتجت الفتــاة قائلة « يافارس ! » فرد قائلاً : « قولي لها إنّ نصل خنجري يذكرنــي أنني لن يهدأ لي بال حتى يستجب صدرها النحيل لعواطف حبي • »

بعد بضعة ساعات وصلت تويمــا إذ أن صديقتها أخبرتها بعودة

حبيبها • ظهرت فوق قمة الهضبة ثم سحبت الأغنية وقفزت من فوق فرسها الشقراء ووضعت الرسن بين قائمتيها الأماميتين وربطتها فوق عرقوبها وبهذا تستطيع الفرس أن ترعى دون أن تتمكن من الهرب •

واتجهت تويسا برشاقة الغزال فذهبنا لملاقاتها • ألقت بذراعيها حول عنق فارس وقالت برقة : « يا حياتي » فأجابها : « يا وعدي ! » ثم جلسنا سوية فوق قمة الهضبة • وتطلعت تويسا حولها وقالت بضحكة عابثة : « أين باقة الأزهار البرية ؟ باقتي الجميلة الكبيرة ؟ »

ــ « باقة أزهارك ؟ »
ــ « نعم ! والخلاخيل ؟ »

وتظاهر فارس بالجدية وخشخش بالخلاخيل في جيبه • ورمقته تويسا نظرة استغراب وقفزت محاولة الوصول الى يده التي في جيبه ولكنه امسك ذراعها بيده الأخرى وقال : « يجب أن تغمضي عينيك ولاتفتحيها حتى أقبلهما • »

فعلت تويسا كما أمر فارس • أخرج فارس من جيبه الخلاخيل الفضية التي اشتراها في الجوف وربطها حول كاحلي تويسا • وتوسلت كثيراً ليسمح لها بإلقاء نظرة واحدة على الهدية على الأقل فصاح فارس: « يجب أولاً أن أزينك بأزهار الصحراء الخالدة • » وأرخى المحب ضفائر الفتاة السوداء اللامعة واحدة بعد واحدة وأدخل فيها أربع عشرة ريشة بيضاء رائعة طويلة (طولها قدم) من ريش النعام • وبعد أن انتهى من ذلك سحب الضفائر الى الأمام فوق كتفيها وجمعها في إحدى يديه حتى تشكل الريشات المرتجفة باقة واحدة ثم قبّل جفنيها وقال « هاهي يا أختاه ! باقة الأزهار الدائمة التي وعدتك بها • فتحت عينيها

وحدّقت بإعجاب في هدية حبيبها • ثم دفنت وجهها بالريشات وطوقته بذراعيها •

•

مال فارس برأسه على كتفها ووضع يده على قلبها قائلاً « إنه يقفز كالأرنب البري • » فهمست قائلة « أليفاً بين يديك • » فسألها فارس : « ألم تستحي من قبل لشاب بوضع يده على قلبك ؟ » وتورّدت قائلة « مطلقاً ! أنت فقط • »

*   *   *

الفصل الرابع عشر

مسيرة الجوع

ذهب الأمير فواز إلى دمشق قبل فترة على اساس أن يلتحق بقبيلته المهاجرة عندما تصل منطقة الرويشدات على أن يتـم ذلك قبل نهايـة الاسبوع • وانتهزت هذه الفرصة القصيرة للقيام برحلة الى الحـرّة مع فارس وعدد قليل من أتباعه • ولم أستمتع بهـذه الرحلة كما لـم تستمتع بها الجمال رغم أنها كانت جمال ركوب نشيطة •

والحرّة صحراء حجرية طويلة تمتد من جبل الدروز (أو حوران) باتجاه الجنوب الشرقي وتتاخم النجد الصحراوي في الجزيرة العربيـة وتشرف عليها الجبال البركانية في الجزء الشمالي الغربي • ويقطع هـذه الصحراء شبكـة متقاطعـة مـن طرق الجمال القديمة لأن في الحـرة تتقاطع طرق كل من القبائل البدوية الغربية والشرقية والمنطقة حتى جبل عنزة مشهورة بكونها أبرد المناطق في شمال الجزيرة العربية • إنها ترتفع حتى ثلاثة آلاف قدم وهي معرضة لعدة أشهـر في السنة للعواصـف الشمالية الشرقية الباردة والرياح القارسة إذ تهبط الحرارة الى سـت درجات مئوية تحت الصفر احياناً •

في هذا العام كان الربيع معتدلاً في المنطقة كلها ولكن السطوح

لحجرية المتساوجة الريشة لم تبد سوى واحات من الخضرة الضئيلة قرب البرك المطرية في الاماكن المنخفضة.وفي بقية أجزاء المنطقة ساد الصوان المنبسط البراق والحصى الأملس والحقاف المنخور . وغطت الشظايا البنية والرمادية الزرقاء والسوداء الملطخة أرض الحرة كما لو كانت طبقة من الحراشف عمقها طبقة أو طبقتان لو أزحت هذه الحراشف لوجدت تحتها رملاً أصفر أو أحمر مخلوطاً بالصوان . وتحت وهج الشمس لمعت الارض بشكل لايحتمل حتى أن المرء لايستطيع النظر إليها دون أن تؤلمه عيناه . أثناء مسيرتنا فوق الأرض الحجرية التي جعلت سير الجمال صعباً . استمر صوت المضغ والقعقعة وانزلقت أخفاف الجمال الجلدية فوق الحجارة الملساء وكثيراً مافتقدت الجمال مواطىء اقدامها . هذه الصحراء القاسية لم تدخل على قلبي أي سرور على الإطلاق ولكن علي أن أعترف أن الهواء كان نقياً ومنشطاً .

عندما وصلنا الرويشدات في اليوم الموعود وجدنا فواز قد عاد من دمشق كما تجمعت هناك معظم قبيلته لأن الرويشدات بدت المنطقة الوحيدة في شمال الجزيرة العربية التي يوجد فيها ماء المطر في هذا الربيع . وهنا كان الرولة يسقون جمالهم ربما للمرة الأخيرة قبل وصولهم إلى آبار **أبي رجمين** على بعد ٢٦٠ ميلاً . واجهت الرولة **مسيرة شريرة** وهي مقامرة حياة أو موت . لم يكن باستطاعتهم التراجع لا إلى وادي السرحان ولا إلى حوض الجوف . عليهم التقدم عبر المناطق المعادية تحت تهديد المناوشات وربما الحرب الحقيقية مع القبائل البدوية المعادية لهم وبدا أن الأخطر من ذلك كله بالنسبة للرولة هو الصراع مع الطبيعة . لازالت المراعي القليلة تغطي المرتفعات الصخرية والهضاب ولازالت سيقان النباتات الصغيرة تحتفظ بالقليل من الرطوبة مما جعل الجمال قادرة على الحصول على القليل من الغذاء

والرطوبة • ولربما أسبغ الرحمن الرحيم على الروِلة بعض نعمه أثناء مسيرتهم إلى الشمال وأنزل عليهم المطر الذي يتوقون إليه • لم تهطل الأمطار لمدة أسابيع كثيرة ماعدا في منطقة الرويشدات حيث هطل المطر مدراراً وحيث امتلأت المنخفضات بالماء والبرك الصغيرة في كل أنحاء المنطقة •

وأخيرا حان موعد الرحيل • وعجّ الحوض الصحراوي بالحياة والقطعان المتحركة بكتلة هائلة وعلا ضجيج أكثر من ثلاثمئة ألف حيوان نشرت في المنطقة كلها رائحة مسكية نفّاذة •

وعلى جانبي القطعان سارت الجمال المثقلة بالخيام والمعدات والأطعمة وما إلى ذلك تحت حراسة سائقها وعلت بينها مئات الهوادج : **مثاب** الشيوخ والأغنياء ـ تلك الخيام الراحلة ـ ذات القرون المنحنية والمتوازنة فوق ظهور الجمال • داخل هذه الهوادج مزين بالأقمشة الحريرية والكشمير الغالية وأرضها وجوانبها مغطاة بالسجاد ومحاطة بالوسائد • وتراقصت جوانب هذه الهياكل الكبيرة الهوائية فوق بحر الحيوانات المتلاطم كأجنحة الفراشات الكبيرة •

اندفع نهر الجمال من الحوض بلا انقطاع ليتوحد في موجة مد هائلة عرضها أكثر من خمسة أميال • وبدأت صفوف قوافل الإبل الهائلة بالتشكل • وبطاقة لاتعرف الكلل • وفي هذا الحر والغبار والصخب تدافع الفرسان من جانب إلى جانب فوق الخيول التي تصببت عرقاً يوجهون القطعان الى حيث يجب أن تكون • وتجاوب الهواء مع صياح الجمال وصهيل الخيل وصياح ولعنات الرعاة وصرخات النساء ونحيب الأطفال • وركب الرجال المسلحون يرافقون عائلاتهم المتناثرة هنا وهناك بين الخطوط المتسعة بين الجمال المهاجرة • وهكذا فمن

الفوضى الظاهرة ظهر نظام صارم من الهجرة القبلية العامة يندفع إلى الأمام إلى البريـة المجهولة .

وعندما تقدمت بصحبة الأمير فواز بين الصفوف السائرة تلقينا التحيات من جميع الجهات . هرول رجال القبيلة على خيولهم ليتسنوا لحظ والسعادة للأمير . ترجل العبيد وقبلوا قدميه أو وضعوا وجوههم عليها للبركة . وأطلقت النساء والفتيات الزغاريد أو صحن بابتهاج: الله يقوّيك ! تقدم على بركة الله ياعاطي : عاش أميرنا ! حقّق الله الآمال ! » .

* * *

الفصل الخامس عشر

المجاعة والحرب

طرفة ـ أخت الأمير فواز ـ التي تزوجت محجم بن مهيد أمير الفدعان ـ ماتت فجأة • وبالتالي ماذا يستطيع الأرمل ابن الخامسة والخمسين أن يفعل سوى أن يخطب أختاً أخرى لأمير الروله وهي فوزه ابنة السبعة عشر ربيعاً • رفض الأمير فواز وصرّح علناً أمام الرجال في المجلس أنه يعتبر ابن مهيد عجوزاً كزوج لأخته الصغيرة ولذلك استشاط أمير الفدعان غضباً وأقسم على الانتقام • حرض القبائل المجاورة للفدعان على الانضمام إليه في حرب ضد الرولة • وبدا الآن أن المجاعة التي يهدد بها الجفاف في الحماد ومناطق الرعي الأخرى ستكون حليفاً قوياً لأعداء الأمير فواز • سيضطر خمسة وثلاثون ألفاً نسمة من الرولة بخيامهم التي يبلغ عددها سبعة آلاف خيمة وجمالهم التي تبلغ ثلاثمئة وخمسون ألف جمل الى غزو مناطق رعي أعدائهم ما لم يهطل المطر الكافي على الحماد خلال الأيام القليلة القادمة •

حتى الآن سارت الحياة سيرها المعتاد ولكن خيم فوق الجميع شبح العطش والجوع والموت • الرولة لاتخاف الحرب • ألم يكونوا الأقوياء والمنتصرين لمدة مئة وسبع وثلاثين سنة ؟ لم تثر نشاطات ابن مهيد حتى الآن شكوك الرولة ولكنه عملياً ضم الى الفدعان

ثماني قبائل أخرى ولم يبق سوى الذريعة المناسبة وساعدتهم الطبيعة في نفس الوقت على تحطيم معنويات الرولة الأقوياء .

وهبت الرياح الحارة فوق الحماد والسهوب السورية دون أن تسقط قطرة واحدة من المطر وخيم فوق شمال الجزيرة حر شديد أدى الى ذبول كل شيء واندفعت الرولة إلى الأمام أسرع وأسرع وأطالوا مسيراتهم اليومية . وغطّت القطعان البرية من الأفق وبدا كما لو أن الرعاة فقدوا كل سيطرة على الحيوانات الجائعة العطشى . في كل صباح كانت تغطي الجبال الصحراء ـ كسحب الجراد ـ على جبهة عرضها ١٥ ـ ٢٠ ميلاً . وكانت النباتات الصغيرة الذابلة . الطعام الوحيد كما كانت كمية الرطوبة القليلة في النباتات هي منقذهم الوحيد من الموت عطشاً .

هناك شيء هائل خيالي في صراع الانسان والحيوان للبقاء ضد قوى الطبيعة الغاشمة . فالذين لم يكونوا أنداداً لهذا الصراع استسلموا بهدوء . تحركت القطعان التي لاتحصى ببطء فوق السهول الواسعة التي أظهرت هنا وهناك بعض اللمسات الخفيفة من الأعشاب الأقرب إلى اللون الرمادي منها إلى الأخضر واكتشفت لدهشتي أن اليرقات السمينة المغطاة بالشعر ذات اللون الأحمر الآجري الموجود على كل ساق وزهرة ـ رغم الجفاف ـ ساعدت ليس فقط على تغذية مئات الآلاف من طيور الصحراء والحبارى والغزلان بل أيضاً جمالنا وخيولنا . قطعان الغزلان هربت من الموت في الصحراء محاولة بجهود أخيرة للوصول إلى نهر الفرات البعيد . وبدا كأن نيراناً هائلة انتشرت من قلب الجزيرة العربية وأن الانسان والحيوان يهرب من أنفاسها الهالكة .

قانون الطبيعة الآزلي يجري كحقيقة : الموت للضعيف والمشـوه والمنبوذ • يدوس القوي على الضعيف مكتسباً قوة وقدرة احتمـال جديدة على الاستمرار من ضحاياه • ورغم أن المجاعة اجتاحت البـلاد فإن العبيد في مخيمات الزعماء قدموا لضيوف رؤسائهم كل مايحتاجون إليه • في كل صباح قدم لي للافطار صحن قريب مـن البيض المنزوج المصنوع من عدة بيضات صغيرة من بيض **الطيهوج الصحراوي** ولـه نكهة قنص خاصة وكذلك الصحن المشابه المصنوع مـن بيض الحباري الأكبر حجماً • وقد شويت الكمأة على جمرات النباتات وبعر الجمـال وتشققت قشورها من الحرارة • في كل صباح وجدت بجانب إناء الحليب إناء من العسل البري تطفو على سطحه قطع كثيفة من زبدة حليب الغنم • وأثناء الأكل كنت أراقب العبد يخبز الخبز • كان يصب خليطاً من دقيق القمح الذي يشبه العصيدة والبذرة والحشائش المطحونة فوق صفيحة معدنية محدبة حارة مرتكزة على ثلاثة مساند فوق النار • في البدايـة انتشر العجين السائل فوق هـذه الصفيحة ثـم انكمش بفعل الحرارة وشكّل أرغفة كبيرة بنيّة وسميكة انتزعها العبد واحداً بعد الآخـر ورماها إلى أحضاننا • ومزّقنـا قطعاً شريطية من هـذه الرقائق البنية الهشة الأطراف ولففناها حول أصابعنا وبهذه اللقم اصطدنا الزبدة من العسل • نحن الغرباء والضيوف لـم نعان من الكفاف رغم أن معظـم الزولة وحتى بعض الزعماء عانوا من الجوع •

ومن المؤثر أن ترى البدوي نصف الجائع يحمل إلى خيمة شيخه أرنباً وحشياً أو غزالاً أو أية طريدة أخـرى كإسهام في تغذية ضيوف الأمير • حتى الأطفال والنساءأتت كل يوم الى خيمة الزعيم وأخرجوا من أكياسهم بضعة كمآت أو حمامة برية • في إحـدى المرات أحضر لي أحد الأولاد سحلية ثمينـة كبيرة قتلها بحجر ثم أحضر لي **غريـراً**

ثم نسرا أصفر الرأس • وتساءل الولد فيما إذا كنت أسمح له ــ في مثل هذه المجاعة ــ أن يقدم لي مثل هذه الحيوانات كطعام •

وسارت الرولة وراء قطعانهم المشرفة على الهلاك ببطون خاوية ومعنويات منهارة • واستمروا بالضغط نحو الشمال بالقرب من أراضي عدائهم • وفي كل يوم سقط في الطريق مئات الجمال وكثير من الناس بينما أجهد الأحياء أنفسهم بيأس متزايد للوصول إلى تلال **أبي رجمين** وبقي الضعفاء حيث سقطوا وكلما بدأ أحد الجمال ــ بعد نفاذ قوته ــ بالتأرجح وأنذر بالسقوط قفز الركاب المجاورون من على راحلاتهم واندفعوا نحو المخلوق المسكين ووضعوا حداً لآلامه • وفي نفس الوقت تابع الآخرون مسيرتهم دون أي اهتمام ودون قيود • ويقطّع الرجل المتخلف الجمل خلال بضع دقائق ثم يسرع للحاق بالقبيلة تاركاً خلفه الاحشاء والرأس والسيقان على الأرض المطروقة •

تزايدت الخسائر في الجمال يوماً بعد يوم من بضع مئات في اليوم الى أعداد مشؤومة إذ حسب أقوال فواز مات حوالي ألفي جمل في اليوم أو اضطروا لقتلها •

إلى الأمام دائماً إلى الأمام • رغم أن القبائل المعادية حاولت وقف هذا المد من الناس والحيوانات الجائعة واغتصب **السابا والفدعان** بعض القطعان الصغيرة ولكن القطعان الرئيسية للرولة مازالت بأمان حتى الآن • تزايد عدد المناوشات والغارات بابتعاد الرولة عن أراضي ابن سعود المستقلة وعبور الأردن والدخول إلى سورية . وهنا أنذر الوضع بالخطر • حلّقت الطائرات الفرنسية فوق هذا البحر القلق من الرجال والحيوانات ولكن هذه الطائرات كانت استكشافية فقط تحاول التأكد من قوة الرولة الغزاة •

لايستطيع الفرنسيون ـ دون احتجاج ـ السماح لأمة كاملة من البدو والمحاربين بالتجول ضمن أراضيهم وغزو سورية • والمستوطنون في منطقة الانتداب الفرنسية ارتعدت فرائصهم خوفاً من الحرب بين القبائل البدوية والاستعدادات للدفاع عن قراهم وحقولهم • وعلى العكس من ذلك فإن الدروز ـ وهم قوم محاربون في جبال حوران ـ فرحوا توقعاً للاضطرابات الجديدة في سورية التي يمكن أن يكسبوا منها أكثر مما كسبوه من الاضطرابات الأخيرة التي لم يتخذ فيها الرولة ـ الأعداء التقليديون للدورز ـ موقفاً ضد الفرنسيين • وأدركت السلطات الفرنسية الخطر في الحال وأمرت فوراً بأن يكون طريق القوافل القديم من دمشق إلى تدمر ودير الزور (والذي يمر جنوب هضاب أبي رجمين ويتفرع قرب تدمر باتجاه بغداد) أقصى حد شمالي لاتستطيع الرولة أن تتجاوزه طلباً للكلأ • لايستطيع أحد أن يعبر هذا الخط إذا كان راكباً أو مسلحاً • الآن بإمكان أعداء الرولة أن يحققوا انتصارهم فالسبابا والموالي والحديديون والآخرون انضم إلى جانبهم قانون البلاد وقوة الحكومة الفرنسية وهم كلهم حلفاء ابن مهيد ! ماذا تهمهم آلام الرولة ؟ أنهم وجدوا فقط في متناول اليد الفرصة السانحة للانقضاض على الرولة الاعداد وامتلاك قطعانهم •

في أحد ايام نيسان بدا آن محنتنا وصلت القمة التي لايمكن بعدها الاحتمال ـ عندما أحاق الموت بكل رجل وحيوان • دخلت خيمة فارس المنصوبة على هضبة صغيرة على مقربة مني • وجدت الخيمة فارغة • ربما كانت أمه وأخته تجمعان الكمأة والجذور والأعشاب الجافة للوقود • عندما استلقيت قرب الموقد المتوهج داخل الخيمة سمعت صوت فارس ابن نايف خلف الخيمة عالياً ومنفعلاً وهو شيء استثنائي بالنسبة له لأن

هدوءه وتساءلت نفسه حتى الآن كانا مضرب المثل . لم يكن فارس ماديا ولامتدينا بل رجلاً أخلاقياً لم أصادف مثله بين البدو ولذلك استغربت سماع فارس يشاحن شخصاً آخر بهذا الانفعال . ولكن عندما مشيت حول الخيمة ورأيته زال الاستغراب . وقف فارس بقبضتين مطبقتين ووجه مرفوع نحو السماء في وضع المتضرع . لابد أنه ظن أنه بعيد عن المراقبة البشرية وأنه لايخاطب البشر . إنه يدعو الله ودعاؤه تعبير عن آلام روحه . وسمعته يقول : « إنك رحيم — إنك ترى معاناتنا وقد أصبح الموت قاسياً . أننا نموت جوعاً . واليائسون لا أمل لهم إلا عندك ... » كان فارس مسلماً بالاسم فقط . كان يصرخ كطفل يخاطب أباه . تضرع وغضب بالتناوب طرق الأرض بقدميه وأطبق قبضته بغضب العاجز وأطرق برأسه بتواضع ورفع نظره بغضب ولكنه أيضاً بكى بمرارة ومدّ يديه الخاليتين وصاح : « ياإلهي ! الناس تموت . الرجال والحيوانات تموت جوعاً . اعطنا المراعي أعطنا الماء ! أعطنا الخبز ! أعطنا السلام ! » .

ودون أن يراني عدت الى خيمته . جلست بجانب الموقد وأخذت أغرس الملاقط في البعر المتوهج ومددت يدي فوقه . وبحركة لاإرادية لمستها وفكرت في إيمان فارس الصبياني وبدأت — أنا أيضاً — في التضرع إلى الله طلباً للعون « لابد أن تساعدنا ! فالحاجة عظيمة ! القطعان تتضور جوعاً والأمة تموت . »

عندما رفعت بصري وجدت فارس يقف أمامي فسألني بحنان : « هل أنت حزين يا أخي ؟ »

نهضت وأمسكت بيديه الممدودتين وقلت له : « كلا ! لست حزيناً الآن لأن الله لن يحرمنا من بركات السماء » في تلك اللحظة رأينا الأمير

فواز مع حرسه يسر امامنا • ورأونا هم أيضاً فأتوا وجلسوا في الخيمة • وأثناء الحديث قال فارس للأمير « اسمح لنا أن نسافر ــ أنا وعزيز ــ إلى أعدائك وتتفاوض معهم • فإذا قبلوا وشاركونا في مراعيهم فلن يعترض الفرنسيون » •

وركز الآمير الشاب عينيه الغاضبتين على فارس وصاح : « سننصرف ولكننا لن نتفاوض معهم • سنستولي على مانريد من مراعي الأعداء فبدون طعام لن تكون هناك جمال ولاحياة لنا بدون جمال • ألم تدرك ذلك ؟ » ورد فارس بطريقته اللطيفة : « أفهم ذلك • أليست عادة عندنا أن يتوسل المرء للابقاء على حياته عندما تدفعه الحاجة ولو كان التوسل للأعداء؟ » حقاً ! إن طريق السلام أقصر من الطريق الذي يكمن فيه الدمار • » لم يجب فواز كما أن بقية الحاضرين في الخيمة لم يتكلموا • وفجأة نهض الأمير فواز ومشى الى العبد الذي كان يسقي فرسه فركب وذهب •



الفصل السادس عشر

فرصة جديدة للعيش

أنعشت التطورات الجديدة بصيص الأمل بأن الاجراءات المتطرفة يمكن تجنبها • وصلت رسالة من القائد ياسين بك في الرطبة في المنطقة البريطانية تدعو الأمير فواز إلى مؤتمر في تلك المدينة • وقد أبدى القائد استعداده للتفاوض مع زعيم الرولة بشأن قبولهم في المراعي والآبار في العراق •

قرر فواز قبول الدعوة • فلو استطاع التوصل إلى اتفاقية مع ياسين بك وصادقت عليها السلطات البريطانية ـ فإن ذلك يعني أن القبيلة كلها تستطيع أن تقضي الصيف بأمان قرب الفرات • ولذلك سيذهب إلى الرطبة وسيكون ذهابه محاولة أخيرة لانقاذ قبيلته بالوسائل السلمية من مأزقها الخطير •

ولكن أخباراً أخرى عكّرت هذا الاحتمال • عاد مبعوث من الرولة ـ في الحقيقة جاسوس ـ إلى المخيم بمعلومات تفيد أن ياسين بك يقصد الخيانة وأن دعوته ليست سوى فخ • فعندما يصل الأمير فواز الى الرطبة يلقى في السجن أو يقتل بهدوء • وهذه المعلومات تأكدت برسالة من أحد أصدقاء الرولة المخلصين في الرطبة وهو جندي في سلاح الهجانة هناك • ادّعى الصديق أن لديه معلومات عن تعليمات سرّية أصدرها

القائد وقد انسجمت هذه الأخبار مع اخبار الجاسوس . ولكنني لم أستطع تصديق ذلك . بدا لي من غير المعقول أن يفكر ياسين بك بمثل هذا العمل والدلائل ليست كافية بل أقرب إلى الإشاعة .

وبحثت القضية مطو"لاً في المجلس . وقد عبر محجم ـ شقيق الأمير عن قناعته بوجود خطر الفخ الخطير وطالب بالحذر الشديد . وتقضي خطته أن يذهب الأمير فواز مع مرافق واحد خبير بالتجسس ويتوقف عند مسافة مأمونة من الرطبة . وهناك يختبىء فواز بينما يتابع المرافق سفره بحذر الى القلعة ليتأكد من صحة الوضع . لكن نصيحتي كانت غير ذلك فقد اقترحت على فواز ألا يقترب من الرطبة ويتوجه مباشرة الى بغداد للتفاوض مع السلطات البريطانية العليا مباشرة . لكن محجم نفسه وذلك بعد أن نقل قيادة القبيلة أثناء غيابه إلى عمه طراد بن خطة محجم .

غادر فواز بالسيارة الى الرطبة مباشرة بعد الاجتماع وأخذ معه محجم نفسه وذلك بعد أن نقل قيادة القبيلة أثناء غيابه إلى عمه طراد ابن صطّام . وفي نفس اليوم وصلت معلومات من المؤخرة أن آخر الرولة قد أجتاز الحدود وبهذا اصبحت كل القبيلة في سورية وعندما استيقظت مع أشعة الشمس الأولى كانت إجراءات الرحيل قد بدأت . كان قطيع الجمال قد تجاوز صف خيمتي . كانت خيام قائدنا المؤقت طراد ابن صطام وأبنائه الثلاثة قد قوضت والعبيد يلفون أقمشة الخيام ويطمرون بقايا النار بالرمل .

أحضرت الجمال البيضاء لحمل نساء وبنات عائلة الشيخ وأنيخت لنصب الهوادج على ظهورها .

حملت صغار كل جنس في الهوادج والأخراج . ومن هودج أحد

الشيوخ العالي أطلت امرأة باسمة وعلى صدرها طفلها • وتدلى جمل صغير (لايقدر على السير على قوائمه الضعيفة) من سلّة كبيرة معلقة على سنام أمه وعلى الجانب الآخر أطل من الخرج وجهان فضوليان لفتاتين صغيرتين • وتجمع قطيع من الجمال الصغيرة التي لايبلغ عمرها أكثر من بضعة أيام فأتت أمهاتها وتحسّستها بخياشيمها وحاولت إبعادها •

وقد حملت المهار على الجمال في هياكل سروج خاصة أو تدلّت مترنحة من أذرع الفرسان وهي منهكة وجائعة لأن حليب أمها قد جفّ منذ أيام طويلة• أما الكلاب فهي السمينة الوحيدة لأنها أصيبت بالتخمة من قطعان الحيوانات الهالكة •

وتزايد حجم القبيلة المجتمعة بتاعها وقطعانها إلى درجات هائلة ولم يحدث مثل ذلك خلال عدة أجيال إذ أن القبيلة كلها اشتركت في هذه المسيرة التي لم تكن إحدى الهجرات العادية التي تحدث في الربيع والخريف بل كانت إحدى الحملات القبلية التاريخية التي تحدث مرة في كل قرن •

واحتشدت مئات الآلاف من الجمال فوق سطح البرّية وارتفعت الرقاب وهبطت بإيقاع وتماوجت وانسابت كما لوحملتها إلى الأمام حركة أرضية لامرئية والتهمت ــ كالجراد ــ المراعي الخضراء الرمادية القليلة أمام أفواهها الجائعة بشكل لم يبق بعد مرورها أي أثر للخضرة• ولم تترك الجمال خلفها سوى الأرض الجرداء وفوقها يرتفع ستار من الغبار والضباب في الهواء لعدة ساعات •

سار جمل أسمر يحمل فوق ظهره هيكلاً مزينا بالمئات من خصل ريش النعام الأسود والمزينات البربرية على رأس القبيلة المهاجرة أمام

مركز الخط الأول،هذا الهيكل الكبير من خشب الأكاسيا توازن وثبّت فوق شداد دي تصميم خاص، إنه **المركب المسمى « أبو الدهور »** ــ مركب اسماعيل • إنه المذبح الذي تقــدم أمامه البدو لعدة قرون بنذورهــم وقرابينهم هناك مركب واحد من هذا النوع في الجزيرة العربية كلهــا • خلال القرون الماضية لاينتقل المركب مــن قبيلة إلى أخرى ألا عندمــا تهزم القبيلة المالكة للمركب فينتقــل الى القبيلة الأخــرى المنتصرة • احتفظت الرولة بالمركب لما يقرب من مئة وخمسين عاماً • وأصبح بالنسبة لها رمز وحدتها وشعار حربها راية القبيلة العظمى إلى حدٍ ما : هذه الراية القديسة المقدسة ــ يقول الرولة تحركها الروح الإلهية في اللحظات الحاسمة من تاريخهم وخصوصاً في النزاعات الخطيرة والحاسمة لتلهمهم كل شيء حتى أين عليهم أن يواجهوا الأعداء ويدخلوا المعارك في هذا اليوم أيضاً توقعوا أن يروا الحضور الإلهي والحماية الإلهية تتجلى بالدلائل الغامضة من الهيكل القديم على ظهر الجمل •



الفصل السابع عشر

آلهة الحرب

أسرعت وطراد بن صطام إلى الرايـة المقدسة التي ارتفعت فوق الهوادج المهاجرة واتخذنا طريقنا بين الحشود الهائجة حيث امتزج أزيـز الرصاص واصوات النساء والاطفال مع انين وشكاوي الجمال المثقلة ولدى اقترابنا لاحظنا مجموعة من النساء السائرة على الأقدام تشق طريقهـا نحو الراية وتلوح بأغطية رأسها وتغني بصوت عـال . كانت النسـاء تواكبن صبية تتهادى في مشيتها في وسطهن . إنها تويسا التي يشع وجهها الجميـل الصافي بالصحـة وعيناها الهادئتان تتألقان تحت رموشهمـا الطويلة . رمقت بنظراتها السريعة طراد بن صطام الذي اختارها من بين كل فتيات الرولة لشرف الركوب في المركب وعندمـا تعرفت علي غمزني خداها بابتسامـة .

عندما وصلت تويسا ومرافقاتها إلى الجمل الذي يحمل الرمز القبلي (وهو جمل قوي ضخم يقوده عبد) جرت بجانبه لتفسح لنفسها مكاناً . وارتفع غناء النساء والتلويـح بالأيدي الى نوبة مـن السعادة وفجأة ابتعدت تويسا عن مرافقاتها وبقفزة سريعة أمسكت بحزام كتف الجمـل وصعدت بخفة الى ظهره ثم إلى المركب . وفي الزاوية الامامية اليسرى من الهيكل المقدس حيث يوجد مقعد ومسند للقدمين . جلست تويسـا كملكة الصحراء فوق رعاياها ثم خلعت غطاء رأسها وتساقطت ضفائرها

الرائعـة فوق كتفيها • وبإشارة منها صعدت مرافقاتها الى هوادجهـن بعد أن مشين بجانب الجمال لمسافة قصـيرة ، وأثناء ذلك سمعت مـن وسط الجماهير المهاجرة آصوات الطلقات التي أطلقت ابتهاجاً وسرعان ما انطلق الفرسـان إلى الأمام مـن كل الاتجاهات • تجمع الفرسـان وانطلقوا بكتلة واحدة نحو المركب وعلى رأسهم فارس • وسط هديـر الحوافر وبريق البنادق وارتفع غناء الرجال الهائج عندما احتشدوا حول ملكتهـم •

ونهضت تويما ووقفت منتصبة في الهيكل وتغيرت ملامحها إلـى نشوة من البهجة وفجأةوضعت يديها علىخنجرها ومزقت ثوبها وانطلقت في آغنية بهيجـة • وارتفعت وصدرها عار تماماً مجهدة جسمها اللـدن حتى توازنت فوقالمركبرافعةباقة من ريشالنعام الأبيض كالثلج•وبدت تويما كإلهة ــ أجمل وأشجع فتيات قبيلتها العظيمة • ألقت على مسامع الشباب كلمات بليغة عاطفية فألهبتهم بحماسها الحربي وحثتهم على تذكر الأبطال الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل الى هذا المركب بقيود خيولهم الحديدية حتى لايتخلوا عن ملكتهم بـل ليدافعوا عنها حتى النفـس الأخـير •

تركزت عينا فارس بنشوة على تويما فوق عرشها العالي ولمـع في يـده سيف **(جيدوا)** وهو بطل عظيم من أبطال الرولة • رفع النصل إلى شفتيه بكلتا يديه وقبله وصاح : « ياتويما ! ياحارسة روحي ! ثم انعطف بحصانه وانطلق مع فرسانه • » •

أخذ طراد بن صطام رسن جمل تويما من العبد ومشى بهـا أمام القبيلة المهاجرة • ورغم كل الكرب الشديد سرت في الجميع روح البهجة إنه يوم عيد لأنـه أصبح للدولة ملكة من جديد ــ عـذراء في المركب

المقدس وتحت قيادتها الرمزية تدافعوا إلى الأمام الى مصيرهم المجهول .

حل المساء وخيّم الجميع ثانية ولكنهم بدأوا مسيرتهم من جديد مع خيوط الفجر الأولى . طافت السيارات المسلحة حول القطعان المنتشرة وحرست جوانب الهجرة العظيمة . ورغم أننا سافرنا بصفوف متراصة فقد كان من المحتم في هذه الظروف أن بعض العائلات أو بعض مجموعات العائلات ستتخلف مع قطعانها أو ستسافر منفردة . إنها في هذه الحالة فريسة سهلة للعدو الذي كنا نحس بوجوده من الهجمات المفاجئة التي قامت بها يومياً العصابات المحمولة القوية وظهور عـــدد من السيارات المحاربة العدوة .



الفصل الثامن عشر

جنة الخلاص

في كل مساء يحتل الرولة مرابض جديدة مخيفة من كثرة الجفاف الى الشمال من سابقاتها . لقد أقلعت منذ وقت طويل عن التنعم بمسح وجهي في الصباح بمنديل مبلّل • في منزل الأمير كان مناحي مسؤولاً عن تقنين الماء رغم أنه لم يعرف شيئاً عن مقاييس السوائل ولكنه سرعان ماأوجد طريقة لهذا الغرض • وضع حصاة ــ احتفظ بها دائماً في متناول اليد ــ في إناء خشبي صغير ولكل فرد من أفراد العشيرة صبّ فوقها مايكفي من الماء أو الحليب لتغطيتها ولم يكن هذا المقدار كافياً أبداً •

فالجمال التي اعتادت في المراعي الجيدة أن تعطي من أربعة إلى خمسة ليترات من الحليب يومياً أصبحت الآن تعطي أقل من ليتر واحد • ولتوفير هذه الكمية القليلة للبشر والخيول اضطر الرولة أن يقتلوا الجمال الرضيعة التي كان منظرها يدعو للأسى • هزيلة منهكة يغطيها الغبار •

وبينما كنت أحدّث الشيوخ عن بعض الأراضي الرعوية الواقعة إلى الشمال الشرقي من موقعنا قال فارس الذي سمع حديثنا : « دعنا نذهب ونستكشف « أبا رجمين » والهضاب التي خلفه ونلقي نظرة على المراعي حتى نطمئن جماعتنا • » وقررنا فوراً أن نذهب إلى تلك الأراضي المرغوبة والمحظورة • وقمنا باستطلاع بالسيارة أنا وفارس وإثنان من العبيد ــ

أدى الى نتائج لم نكن نتوقعها عند ئذ ، فقد اتبعنا اتجاهاً شمالياً حتى عبرنا طريق القوافل القديم بين تدمر وبغداد الذي أصبح الرولة يسمونه « طريق الموت » لأن الادارة الفرنسية منعتهم من اجتيازه والذي كانت خيامهم على بعد حوالي ثلاثين ميلاً عنه •

تغير المنظر بعد أن اجتزنا هذا « الحد » لأن السهل الفسيح ارتفع باتجاه التلال البعيدة بنسبة تكاد لاترى • السحب البيضاء سارت في السماء الزرقاء ، هذا المنظر الممتع الذي افتقدناه طويلاً والذي كان أول دليل على المطر رأيناه منذ اسابيع عديدة • كان العشب نامياً هنا • أكثر كثافة وأكثر طولاً وفيه أزهار • وكلما تقدمنا نحو الشمال والهضاب العالية كلما أصبحت أغنى بالخضرة وكلما بدأت الطيور والغزلان بالظهور أثناء تقدمنـــا •

وبدون توقف تابعنا سيرنا في المراعي البكر بسرعة ٢٥ــ٤٠ / ميلاً في الساعة رغم الهضاب والروابي الكثيرة المتقاربـــة حتى قطعنا حوالي ١٠٥ ميلاً عن الخيام ولكن ليس بشكل مستقيم لأنني ــ وأنا السائق اضطررت للقيام بدورات طويلة لتجنب خيام الأعداء • وكنا نرى أحياناً بعض المجموعات المعادية التي تظهر بصورة مفاجئة وتطلق علينا النار • ولكننا كنا دائماً خارج مرمى النيران ودون أن نصاب بأي أذى أو نضطر لإطلاق النار وصلنا بعد الظهر إلى مراعي نشل في السفوح المرتفعة من الهضاب الشمالية •

خرجنا من السيارة إلى بحر متماوج من الأعشاب والزهور وحملت النسائم الى أنوفنا الرائحة العطرة لهذه الأرض الخضراء ، واستنشقنـــا بعمق الهواء المعطر وحدقنا بأعين تواقة بهذا المنظر الخصب والسحـــب

المطريـة العالية في الأفق • وفتح فارس ذراعيه كما لو أراد أن يعانق كل كل شيء •

وتماوجت على عباءاتنا السيقان الطويلة الخضراء للأعشاب الناعمة وحلقت فوقنا بسرور قبرة مفردة على هضبة مزهرة عالية • بينما غنّى الهدهد عند أقدامنا • ما أشهى رائحة النعناع والمريسية ووقفنا بهـدوء شاكرين هده الجنة التي وصلنا إليها •

خلع فارس عباءته عن كتفيه وابتعد قليلاً ثم توقف وتأمل في هذه السهوب الرائعة ، تلك المراعي التي خيم فوقها سلام الجزيرة العربيـة الرعوي • وهكـذا وقف وحيداً منعزلاً كأمير قيدار الذي تغطي خيامه وقطعان جماله وهضاب ممدين وعفرا •

وأحاطت نظراته بهذه الوفرة ــ الخيرة كجنة الخـلاص ــ التي تصورها تعج بقبيلته وقطعانها • ثم أطرق برأسه • كيف أستطيع أن أعبر عن الأفكار التي راودتني عندما نظرت إلى الرأس المطرق وسط هـذه الخضرة ؟ صحت بصورة لا إراديـة « ليعش اسماعيل أمامك ! » كان فارس حزيناً على قومه (الذين كان غريباً بينهم) مطرق الرأس تثقل عليه مأساة المراعي الميتة هناك في السهل الظامىء الذي تجوبه قبيلتنا • واعترت جسمه رعشة خفيفة فسقط على ركبتيه ووضع راسه على العشب يلمس الأرض الغالية بحنان وصاح بلوعة « ياأمي ! » كانت البرية وطنه الغني الجميل العزيز لأنه لم يعرف المدن إطلاقاً •

وقبل العودة الى المخيم انتزع فارس باقات من العشب من جذورها إذ على كل منا أن يعيد معه ملء ذراعيه ليدلل على خصوبة الأرض التي استكشفناها •

عندما وصلنا إلى المخيم وجدنا مئات الرجال جالسين أمــام عتبة خيمة طراد بن صطام ينتظرون أخبارنا عن الأرض في الشمال • أحضــر العبيد الحطب والأعشاب الجافة ورموها على النار الهادئة وســرعان ما اندلع اللهيب يفرقع ويعلو حتى السقف وأصبح داخل الخيمة السوداء أحمر متوهجاً •

وفرشنا ـــ دليلنا الصامت ـــ أكوام العشب والحشائش والزهور التي لم تتناقص قيمتها بذبولها • وطوال الليل توارد القوم حتى من أقصى أطراف المخيم ليروا الأعشاب ويلمسوها • داعبوا الحشائش الطويلــة بأصابعهم بابتهاج وحمدوا الله • وبين الفينة والأخرى أخذ ابن صطام ساقاً من النبات فانتقل من يد إلى يد حتى أن البعض رفعــه الى شفتيه صائحاً « ياحياة ! » • وكلما عرض ابن صطام أحد هذه النماذج الغالية من مراعي الأعداء صاح قائلاً « هاهي دلائل الحياة • قولوا لأبنائكــم أننا سنتقدم • » وقفز الرجال فوق ظهــور خيولهم واختفوا في الليــل ليعرضوا رموز الأمل على نسائهم وأبنائهم وجيرانهم وليحدثوهم عــن عجائب مراعي المرتفعات •

في مساء اليوم التالي كنت أتحدث مع بعض الرولة بجناب النار في الخيمة الرئيسية بينما بعضهم يأتي ويذهب عندما سمعنا صوتاً مشهورا يدعونا للقهوة • ودون أن يلاحظه أي منا دخل الأمــير فواز وجلس • نصحت بصوت عال « شكراً لله على عودتك ! » سأتنازل عن مكاني لك بكل سرور • » قدمت له مكان الشرف •

عاد فواز من الرطبة صفر اليدين • ثبت ان الشك في الخيانــة من قبل ياسين بك لاأساس له • ولكن الفرنسيين أصروا على قرارهم السابق وأظهر البريطانيون عدم الاهتمام فلم نكسب شيئاً •

في هذه الحالة اقترحت على الأمـير فواز أن يسمح لي بمحاولة الوصول إلى تفاهم مع أعدائه البدو • ولكنه لم يوافق علـى ذلك إلا بصعوبة متناهية ليس لأن لديه شيئاً ضد تدخلي الشخصي في أمور قبيلته بل لأنه خشي أن مثل هذه الخطوة نحو المصالحة سيفسرها أعداؤه على أنها دليل ضعف • وبعد أن تحادثت معه لوقت طويل بددت مخاوفه قال فجأة « حسناً ! بسم الله ! إذهب إلى ابن مهيد ! ألم يكن صهري دائماً صديقك ؟ » وأرسل في طلب شقيقه مجحم وفارس وأمرهما بمرافقتي في مهمتي • وأرسل حرساً لنا مناحي وعبد الكريم صديق فارس وأحد زعماء ولد علي من سورية وعبده سليمان •

استخدمنا سيارة نوري الشعلان المفتوحة لرحلتنا وتجنبنا كل ركاب الجمال وخصوصاً عندما كانت ترافقهم الخيول •

بعد الظهر قصدنا مكانا منعزلاً ومحمياً من الريح في سفح هضبة صخريـة وجمعنا الحطب والجذور اليابسة لنشعل نـاراً نشوي عليها الحباري التي اصطادها العبيد في الطريق • قطعت الطيور ورميت القطع على الجمر الحار كما شويت الحواصل والأمعـاء المملوءة بالأعشـاب والبرقات شبه المهضومة بنفس الطريقة وأكلناها كمقبلات شهية •

كنا ننوي الاستراحة هنا لبعض الوقت • وكنا نتحرى المناطـق المحيطة بنا من وقت لآخر مـن نقطة عالية طلبـاً للحيوانات الشاردة أو البدو المحمولين أو السيارات ولكننا لم نر أي أحياء على امتداد البصر إذ أن البرية امتدت حتى الأفق دون أي تطفل •

أثناء تناول الطعام ضاحكين متمازحين انتصب أمامنا فجأة ستة رجال كما لو أنهم ظهروا من باطن الأرض • لايمكن أن يكونوا قد أتوا

إلينا على ظهور الخيول أو الجمال لأن محجم وسليمان ـ قبل لحظات ـ
مسحوا المنطقة المجاورة بالمنظار . لابد إذن من أن الرجال الستة زحفوا
على يديهم وركبتيهم من مكان قريب اختبؤوا فيه . لم نكن لديهم بنادق
لكنهم وجهوا إلينا مسدساتهم أخفوها تحت عباءاتهم لم يتكلم الرجال
في البداية ولم يجرؤ أحد منا على الحركة . عندئذ بدأ إثنان من الغرباء
الجدال ناظرين إلينا بطريقة عدائية .

عابرو السبيل المشاة الذين يقابلهم المرء في الصحراء على هذه
الصورة هم عادة قطاع الطرق والقتلة الذين لايثنيهم شيء عن تحقيق
أهدافهم . ليس هناك مايجمعهم مع غزاة الأغنام والجمال الذين يركبون
الإبل والخيول والذين يسكن النظر إلى أفعالهم على أنها جزء من
مغامرات الفروسية .

تبادلت النظرات مع فارس وتحسسنا تحت امتعتنا على الأرض
وصولاً إلى بنادقنا . والآن استطعت استجماع شجاعتي والتحدث إلى
زائرينا المتطفلين .

ـ ماذا تريدون منا ؟
ـ بعلم الله .
ـ كيف وصلتم إلى هنا ؟
ـ من هناك .
ـ إلى أين ذاهبون ؟
ـ إلى هناك .
ـ من أية قبيلة أنتم ؟
ـ من بني آدم .

بدت الإجابات وقحة وخطيرة ولكننا معتادون على أساليب

الصحراء وقدم الغرباء أنفسهم بإجاباتهم الغامضة على أنهم قطاع طرق . فلو أجابوا على أسئلتي بطريقة صريحة لجعلوا أنفسهم وقبيلتهم مسؤولين عن سلامتنا .

ولكنا في تلك الحالةنزعنا كوفياتنا وعقلنا أو لمسنا أحدهمبطريقة ما وطلبنا بالتالي حمايته . فحتى البصق على الرجل (وهي طريقة فريدة في اللمس) وبالتالي طلب حمايته مباح ومؤثر في إنقاذ الحياة إذا لم يكن في نفس الوقت حماية الممتلكات .

هؤلاء الرجال لاحاجة بهم للتقاليد العربية النبيلة . فهم ليسوا مسؤولين أمام أحد وبإمكانهم قتلنا بدم بارد وإحجامهم لايسكن فهمه .

وكمحاولة أخيرة على نوايا الغرباء عرض عليهم محجم السجاير فهزوا رؤوسهم بالرفض ولكن انتباههم شرد عنا مؤقتا . وكالبرق اغتنم فارس الفرصة ورفع بندقيته وأطلقالنار فوق رؤوسهموأطلقنا ــ محجم وأنا ــ النار من تحت عباءاتنا حيث كنا بانتظار الإشارة .

وتراجع اللصوص الذين أخذوا على حين غرة . رمى إثنان منهم أنفسهم على الأرض بينما أطلق الثالث مسدسه علينا فخدشت رصاصته ذراع سليمان الأيسر فضغط على زناد بندقيته فأصاب اللص في فخذه . وأمر فارس ومحجم اللصوص الذين تبدلت أوضاعهم برمي عباءاتهم والاتجاه نحو الجانب الآخر فأطاعوا دون أية كلمة وعندما سقطت العباءات عن أكتافهم رأينا أن حزام كل منهم يحمل مستودعاً صغيراً من الخناجر والمسدسات . أمرناهم بوضع مسدساتهم في قرابها ورمي أحزمتهم إلينا .

هؤلاء الرجال الستة ينتمون في الأصل إلى قبيلة الدليم وقد حصل فارس منهم على هذه المعلومات باستجواب شامل ودقيق وبما أن الدليم

حلفاء الفدعان فإنهم في طريقهم إلى حلفائهم للحصول على الخيول والجمال • قطاع الطرق الكسالى من أمثال هؤلاء لايحملون البنادق لأنهم يجدون أن الأسلحة النارية الصغيرة أكثر ملاءمة لأغراضهم •

والآن اعترفوا بصراحة أنهم ظنوا أن سيارتنا هي سيارة شيخ العمارات ولم يخطر بذهنهم أن سيارة رولة مسلحة يمكن أن تدخل منطقة الأعداء ولكن عباءاتنا السوداء أو البنية فضحت هويتنا كأعداء محتملين لدى اقترابهم منا •

شكرنا نجمنا المحظوظ لهذه الغلطة التي أنقذت حياتنا وتركت اللصوص يتابعون سيرهم دون أي أذى ولكن بدون أسلحة أو ذخيرة • وحملنا جريحنا معناإلى مخيم ابن مهيد •

وقبل أن يغادرنا هؤلاء اللصوص وصلت بهم الوقاحة إلى درجة يطلبون منا الانحراف عن طريقنا وإيصالهم إلى جوار مخيم السبع لغزوه • يالهم من أوغاد أصيلين ! وصحت بهم مندهشاً : « لكن السبع حلفاؤكم • » فأجاب قائدهم : « وماذا في ذلك ؟ إنكم أعداء السبع » فقال محجم متهكماً : « أيها الدليمي الشهم ! إنك مخطىء • إننا في مهمة سلمية • » فأجاب الرجل بتهكم مماثل : « الله ! يالك من متأنف ! » وأدار ظهره إلينا •

تطايرت كوفياتنا وعقلنا مع الريح عندما أسرعنا فوق السهل المتاوج ومن وقت لآخر ظهرت مجموعات صغيرة من راكبي الجمال والخيول فتوقفوا عند مرورنا يراقبوننا عن بعد •

كما لاحظنا أيضاً ثلاث سيارات موازية لنا عن بعد ولكنها غالبا ما أختفت خلف الهضاب أو في الوهاد • وبعد احدى هذه المرات ظهرت

على مقربة منا • توقفنا وأشرنا إلى السيارات فدارت حولنا وبنادقها جاهزة للعمل • ثم ترجل الركاب من السيارات وتقدموا نحوها وبنادقهم مصوبة إلينا •

وعندما اقتربوا صاحوا بأننا جواسيس أتوا لاستكشاف الأرض والمخيمات• وتعرف أحدهم على الجريح الدليسي وبدأ باستجوابه ولكن الجريح لم يجب بل كرر بأنه لن يتحدث إلا أمام الشيخ • وسمعت عرضاً بضع كلمات دلّلت على أننا نواجه خطر الموت الفوري فوجدت من الضروري على الأقل أن أحذّر عقيدهم فقلت : « إننا في سورية • فليس ابن مهيد فقط بل الفرنسيين أيضاً سيعتبرونك مسؤولاً عن سلامتنا • » فرد قائلاً : « برهنوا إذن عن نواياكم الصديقة • » فعرضت مرافقتهم إلى مخيّمهم • قبل الرجل اقتراحي بعد أن سلمناه بنادقنا وسمح لنا بالاحتفاظ بمسدساتنا •

وسرنا خلف أعدائنا باتجاه شمالي شرقي وبعد عدة أميال صادفنا أوائل الرعاة وقطعان الأغنام والابل وبعد نصف ساعة أخرى وقع نظرنا على مخيمات الحلفاء من الفدعان والسبع والعمارات : خيمة إثر خيمة بصفوف طويلة • وخلال هذه الفترة وصلت عائلات جديدة وجمال بأحمالها واتخذت أمكنتها على السهل الواسع بينما سارعت النساء والعبيد إلى نصب الخيام السود •

واقترب منا أحد معارف **برجاش بن هديب** وتعرّف عليّ • رافقنا إلى خيمة المجلس الكبرى حيث تجمع الشيوخ وفي الطريق أخبرني أن بعض الفدعان زاروا قبل عدة أيام قبر **تركي بن مهيد** زعيمهم وبطلهم القديم في عقلة **سواب** •

كان تركي قد قتل في المعركة ضد الدولة رغم أن ابنته تركية

متزوجة من أحد زعماء الرولة صطام بن الشعلان • وكقربان لذكرى سلفه ذبح ابن مهيد جملاً سميناً فوق القبر « حتى يطّلع الله على مافي قلبه وينصره على الرولة • » إنها عـادة وثنية سابقة على الاسلام بين البـدو والعرب •

يبدو أن ابن مهيد ومساعديه قـد قاموا ليس فقط بالاستعدادات المادية بل والروحية لمعركة حاسمة ضد الرولة •

عندما وصلنا كان أعداؤنا مجتمعين ومؤتمر الزعماء في أوجه • بدا ابن مهيد عجوزاً وأضفت مرارة أفكاره قسوة على ملامحه • هذا الانطباع السيء تعمّق بلحيته وحاجبيه التي صبغها بالسواد • التف على رأسه وحنجرته شال صوفي سميك رغم الطقس الصيفي الدافيء • كان ابن مهيد يعاني من حمى الهزال التي أصابته ــ كما أصابت الكثيرين من الفدعان الآخرين ــ في أراضي الفرات المنخفضة المضرة بالصحة •

لدى قدومنا نهض ابن مهيد ومشى خطوة إلى الأمام ولكنه عندما تعرّف على وجوه أعدائه تراجع وأشار إلى رئيس حرسه الخاص الأسود، ولم يلق بالتحية المعتـادة حتى عليّ بـل رمقني بنظرة سوداء • لحسن الحظ أدركت فوراً أننا وضعنا رؤوسنا في عش الدبابير وهمست إلى رفاقي بألا يدخلون حلقة الشيوخ بدوني مهما حدث ؛ ولـم تصـدر عن الشيوخ أية تحية أو سواها بل أشاح البعض بنظره بازدراء متفاخر. كان ابن مهيد يهمس بانفعال ــ وظهره إلينا ــ في أذن خادمه الشخصي الأسود الذي كان يستمع مطرق الرأس • وقف رجال الحرس وعيونهم على هذين الشخصين وأيديهم على أعقاب مسدساتهم في قرابها مستعدة للإشهار دما •

في هذه الأثناء ــ وبدافع الغريزة أكثر من التصميم ــ جلست

قرب ابن مهيد وأشرت إلى فارس ومحجم بالجلوس (كان عبد الكريم والعبدان ينتظران في سيارتنا) • وانفجرت الاحتجاجات الغاضبة من كل فم ضد الحرية التي سمحتها لنفسي مما جعل ابن مهيد يلتفت بدهشة ، وتأمل فارس ومحجم بصمت وحاجبين منخفضين وعينين شريرتين • وتنبأت بل وشعرت بالقتل يجول في ذهنه فبأشارة منه ينهي صديقي وربما ينهني أيضاً •

ولم يكن هناك مجال لإضاعة ولو جزء من الثانية ، هتفت بالقهوجي الجالس قرب الموقد وصحت به « ياولد ! الله يقويك ! نظر إلى العبد العجوز مجفلاً ولكنه لم يجرؤ على الجواب لكنه جال ببصره بخوف بيني وبين سيده • وفجأة أصدر ابن مهيد إشارة جعلت حرسه يسحبون مسدساتهم وهنا خانتني آخر آثار الشجاعة والثبات وبدأت ركبتاي بالارتجاف • ولكن المسدسات لم تصوّب لأن فارس ومحجم كانا أسرع من الحرس • وبحضور ذهني عظيم سحبا مسدسيهما وصوبا على ابن مهيد قبل أن يستطيع الحرس السود التصويب وبالتالي لم يستطيعوا التصويب الآن •

هذا البرود ساعد على استرداد ثباتي وصرخت بالقهوجي لأتحداه: « هل ممنوع في بيت ابن مهيد أن تقدم فنجان السلام إلى الضيف الذي دخل حماه ؟ » وارتجف العبد عندما مدّ يده على مضض نحو الفنجان الصيني الصغير المقلوب رأساً على عقب وأمسك مصب القهوة الكبير والتفت بقلق نحو سيده ، ونظراً لعدم رغبتي في الانتظار أكثر من ذلك نهضت وأسرعت إلى الموقد وأمسكت بالفنجان وأخذت المصب من الجمر المتوهج — أحرق المصب أصابعي بشدة ولكني تحملت الألم — وصببت القدر المعتاد • ذهبت إلى ابن مهيد وقدمت له الفنجان مصحوباً

بتحية لسلام • نظر إلي برأس مطرق من تحت حاجبيه المنخفضين •

لابد أن يخضع لقانون الصحراء لابد أن يقبل الفنجان المعروض عليه كما أنه لايستطيع التلاعب بحياة صديقي دون المجازفة بحياته فعند أول حركة عدوانية سيخترق الرصاص جسمه لأن فارس ومحجم لايزالان يصوبان مسدسيهما نحوه • أشاح بوجهه عني ولكني وضعت يدي على كتفه قائلاً « السلام » فالتفت ثانية وفي عينيه شعاع جنوني ولكنه رغم وجهه الغاضب فتح فمه الآن ليبادلني السلام وطلب مني الجلوس في مقعده •

عندئذ تجرأ فارس ومحجم على خفض مسدسيهما لأن كلمه « السلام » صورت من فم مضيفنا رسمياً وكدس العبيد لنا الوسائد أمام شداد الجمال • عندها أخذ ابن مهيد نفسه فنجان القهوة من يد العبيد وقدمه إلي قائلاً : « ياهلا ! عساك بخير ! » وكرر هذه الكلمات مرتين مما جعلها ضمانة للسلام والسلامة مما جعل فارس ومحجم يشربان معه أيضاً •

بالنسبة لنا ــ نحن المعتادون على الحضارة الغربية ــ مثل هذه السلسلة من الحوادث وتتائجها لابد وأن تبدو مستعصية على الفهم ولكن بعد أن يعيش المرء لفترة من الزمن بين البدو يفهم أن القوانين غير المكتوبة للنظام الاجتماعي البدوي مناسبة لظروف الحياة في الصحراء وكافية ــ منذ قديم الأزل ــ للوفاء بمتطلباتها المتعددة • ولولا قواعد اللعبة هذه (في الحقيقة) كانت كل معالم الحياة البشرية في الجزء البدوي من الجزيرة قد زالت منذ وقت طويل •

وبعد أن طلبت الأذن بالكلام ومنحني إياه ابن مهيد أعلنت عن

غرض مهمتنا وألححت على الشيوخ المجتمعين بكل ماأوتيت من البلاغة أن يسالموا الرولة و ــ كما في السابق ــ يقاسموهم المراعي كأخوة لهم• وركزّت على محاسن الوحدةومساوىء التفرقة وعززت حجتي بالإشارة إلى آنهم بسياستهم الحالية إنما يقعون في أيـدي القوى الأجنبية التي ستقوم بالقضاء التام على الجميع بعد إضعاف القبائل البدوية إفراداً • واستقبلت حججي ومناشداتي بصمت بارد إذ جلس معظم الزعماءبرؤوس مطرقـة ونقروا الأرض بعصيهـم في ملل ظاهـر ، ولكني تأكدت بأن لامبالاتهم تظاهرية ، ولذلك لن أقع فريسة اليأس ، وعدت مرة أخـرى إلى مهمتي فجمعت كل إمكانياتي في الأقناع وضاعفت جهودي لإبراز فوائد النيه الحسنة والسلام العادل أمام أعينهم • وفي النهاية نجحت في إقناعهم بالإقلاع عن سكوتهم العدائي والدخول في نوع من الحوار معي• ولكن يخطىء كل من يظن أنه بالإمكان إقناع البدو بسهولة • ومرّت الساعات حتى قاربنا منتصف الليل وعندها طلب فارس الاذن بالكـلام باسم الأمير فواز فوافق ابن مهيد • قال فارس « السلام ! حقاً إن عدوّ الحياة يضغط على الأحياء • والحليب من صدر الصحـراء انقلب الى غبار والعطاش يتذوقون المرارة فآبارنا قد جفّت ومراعينا قد أحرقتهـا الشمس وجمالنا تهلك في أرض الجوع والعطش وألوف البشر تهلك في دروب الأرض ونحمد اللـه الذي لايزال يغمركم بنعمه ولكنه أقفـل السماء بالنسبة للرولة•إننا لم نأت إليكم كأعداء ولكننا نريد أن ندخل مراعيكم كضيوف عليكم • » وأثرّت كلمات فارس إلى حدّ كبير لأنه تحدث كبدوي وتكلم باللغة التي يفهمها الجميع •

انسحب الشيوخ ووقفوا لمدة حوالي نصف ساعة تحت النجـوم وبين الجمال والخيول والأغنام يتناقشون ويتجـادلون • بعدها عـاد الشيخ وجلسوا بصمت متحلقين حول الموقد ولكن راكان زعيم السبع لم يعد وهي إشارة الى أنه اختلف مع ابن مهيد والآخرين حول شروط

السلام • كنا نعرف أنه أكثر أعدائنا خداعاً ومكراً وخطر لي في الحال أنه سينصب لنا كميناً في طريق عودتنا • وبعد أن دار فنجان القهوة مرة أخرى اتكأ ابن مهيد على وسائده وقال بوقار : « أيها المجتمعون ! إننا نرغب في الحفاظ على السلام مع الرولة ولكن شاءالله أن تنشب الحرب بين فواز بن شعلان وطراد بن ملحم (زعيم قبيلة ولد علي) وبين شيوخنا • ولذلك نقرر أن يعم السلام بين القبائل وتقتصر الحرب على الزعماء ! » وعلى ذلك مدّ لي ابن مهيد يده التي تلقفتها وشكرته وبقية المجتمعين على استعدادهم لتقاسم مراعيهم خلال الصيف القادم مع الرولة وولد علي والسماح للقبائل للعيش في وئام جنباً إلى جنب • كما عبرّت عن أملي في أن يعم السلام بين الزعماء المتحاربين الآخرين •

من العبث الآن هدر الكلام من أجل نبذ الخلافات بين الشيوخ وإذا أنجز ابن مهيد وعده بالسلام بين القبائل فسأكون أكثر من مسرور بنتيجة رحلتي • إنها تقترب من المعجزة •

كان الظلام لايزال مخيماً عندما استيقظت على قرقعة أواني المطبخ حيث كان الطباخ يضع أواني الماء على النار المتوهجة وعند عتبة الخيمة وسط الدخان اللاذع وقفت الفرس العجوز التي حملتني إلى هذه الخيمة بعد المؤتمر • خرجت من الخيمة • والوقت مازال ليلاً ولكن النجوم شاحبة. وفي الشرق غطت اضواء الفجر الرمادية الخضراء الصحراء بحجاب رقيق • وبين حبال الخيمة كانت جمال مضيفنا تجتر طعامها وخلفها امتدت السهوب المتماوجة وانتشر منها عبير منعش • في كل مكان خيّم الهدوء والسكينة وهذا ملأني رعباً • أين الخيام والقطعان التي غطت المنطقة عند منتصف الليل ؟ ركضت في المكان لمسافة قصيرة وتطلعت حولي فلم أجد هناك أية خيمة أخرى وبالتالي كانت خيمتنا كسفينة مهجورة وسط البحر •

اعتراني شعور غريب بالوحـدة لأول مرة في حياتي بين البدو ٠ وجدت نفسي مع قليل من الرفاق حيـث خيّم حولنا في مسـاء اليوم السابق الآلاف من البشر ٠ قوّض البدو خيامهم بهدوء وذابوا كالسراب مع نسائهم وأطفالهم وقطعانهم ٠ ناديت « فارس ! محجم ! » وذهبت لأوقظ النائمين ٠ وظهر أيضاً الشيخ نايف الصالح الذي نمنا في خيمته فأخذت يده وسألته : « ماذا يعني هذا ؟ » فأجاب : « أنت تسأل مـاذا يعني هذا ٠ ابن مهيد لايتراجع في كلامه ٠ والوعد الذي قطعـه لك في المساء ينجزه هذا الصباح ٠ » لقد جلا ابن مهيد عن مراعيه ليفسـح المجال للرولة ! وأشار نواف إلى مجموعة من الأشخاص في البعد أصبحوا الآن واضحين في النور القوي ٠ وبدا عليهم أنهم يستريحون حيث كانت خيمة ابن مهيد في الليلة السابقة ٠ ركبنا إلى المكان فوجدنا ابن مهيـد نفسه مع ستة من حرسه يجلسون على سجاداتهم متربعين كعادة البـدو وبجانبهم كومة من الرماد والأحجار الثلاثة السوداء التي انتصبت فوقها ركوة القهوة في الليلة السابقة ٠ وأشعّ منقل نحاسي بعض الدفء المريح في برد الصباح ٠ جلس ابن مهيد وهو يضع أكمامه الواسعة فوق المنقل ٠ نهض ابن مهيد عند مقدمنا وعندما ترجلت اتجـه نحوي ووضع ذراعه بأبوة على كتفي وقال بسرور « يابني ! هل ترى أن ابن مهيد قد صدق الوعد ؟ » ولكن عينيه قالتا أكثر مما قالت كلماته القليلة ٠ أمسكت بيده اليسرى وضغطت عليها بامتنان بكلتا يدي مودعاً : « حقق الله الآمال ! » وصاح في إثري : « تعالى لزيارتي هـذا الصيف وانصب خيمتك مـع الفدعان ٠ صحيح أنك رولي ولكننا نعتبرك واحداً منا أيضاً ٠ ليكـن اللـه معك أينما توجهت ! » ٠

الفصل التاسع عشر

الكمين

في طريق عودتنا إلى مخيم الرولة وبعد حوالي ساعة على فراقنا لابن مهيد هاجمنا البدو من كمين في الوادي . العمليات التي تلت ذلك كانت قصيرة ولكنها أودت بحياة عبد الكريم العزيز جداً على فارس بينما خلف المهاجمون وراءهم ثلاثة قتلى . ثبت أنهم من قبيلة السبع من بيت راكان .

كانت نهاية عبد الكريم فظيعة . كان يجلس خلفي مباشرة في السيارة فجرحته رصاصة مزّقت أحشاءه وعندما أدرك حتمية النهاية أمر عبده أن يطلق النار على رأسه أمام أعيننا . حفرنا له قبراً بسيطاً في الرمل . كنا لانزال مشغولين بالميت عندما قال سليمان (الذي كان في مركز الحراسة)أنه رأى خلال منظاره ثلاث سيارات تحاول عبور الوادي على مسافة قريبة منا للوصول إلى جانبنا .

دفعنا سيارتنا إلى مكان محمي في الوادي واتخذنا استعداداتنا للعمل . تقدم **السابا** نحونا بحذر لسوء الرؤية في الوهج الباهر ولكننا في النهاية أصبنا بعض الأهداف وتراجع العدو الى مابعد مدى بنادقنا .

بينما راقب سليمان وفارس تحركات أعدائنا بدأنا بالعمل لتبديل

الاطارات التي تمزقت في المعركة السابقة واصلاح المشع المعطوب • ولم نستطع أكثر من إتمام هذا العمل بالترقيع ولكننا لحسن الحظ استطعنا دفع السيارة الثقيلة من مجرى النهر والتقدم نحو الأعداء •

ولدى قدومنا انقسم السابلة بغرض مهاجمتنا من الجانبين • اتجه محجم نحو السيارة التي انعطفت فجأة وتوقفت وجانبها نحو الأمام أطلق علينا راكبو السيارة وابلاً من الرصاص ورغم ان عدداً من هذه الطلقات أصاب سيارتنا تمكنا من الأندفاع إلى الامام وأجابت بنادقنا على كل طلقة بطلقة مقابلة • ودوى الرصاص على الفولاذ ونسفت الريح عباءاتنا وصفر الرصاص حولنا وأصاب الرمل والحصى في أماكن عديدة وصدرت صرخات عالية من رفاقي ولكني شعرت أن البعض أصيب بجروح رصاصنا تناقص (في الحقيقة جرح مناحي وفارس جراحاً بليغة ولكنهما استمرا في القتال قدر استطاعتهما) •

وبوابل جديدة من الرصاص الفولاذي الغلاف استطعنا أخيراً أن نوقف ركاب سيارة أعدائنا عن العمل•فإن لم يكونوا كلهم أمواتاً أصبح بإمكاننا التأكد بأنه لم يبق منهم قادر على القتال • اندفعنا بسيارتنا الى بعد مئة يارده عن السيارة دون أن تجابهنا طلقة واحدة • ولكن حان الوقت الآن لنلتفت إلى السيارتين الأخريين اللتين ظهرتا على يسارنا وعلى مقربة منا •

اتجهنا نحوهما وبعد أن قطعنا مايزيد عن الميل توقف محرك سيارتنا المعطوب فجأة • وبالطبع لم يكن هناك أي وقت لمحاولة الاصلاح • لم يعد باستطاعتنا المناورة بالسيارة ناهيك عن الهرب بها فقال محجم «اخرجوا !» ولم يكن بوسعنا الا الصمود متخذين من السيارة تغطية لنا • عندها فقط اكتشفت مقدار خطورة اصابات فارس ومناحي•

لم يستطع فارس تحريك ساقه الأيمن وتوجب عليّ أن أحمله عملياً من السيارة ومن رحمة الله بنا أن سيارتي العدو لم تهاجما في تلك اللحظة الحرجة • لابد أن الأعداء أصيبوا بخسائر في الهجوم الأول أخطر من خسائرنا لأنهم تراجعوا وراء مدى بنادقنا وأخذوا بقضاء الوقت بمراقبتنا •

واغتنمت فرصة هذا الهدوء لإخراج حقيبتي الجراحية لتضميد الجرحى • لم تكن جراح صديقي العزيز فارس خطيرة كما تصورت للوهلة الأولى • الأخدود العميق الذي حفرته الرصاصة في القسم الأعلى من فخذه الأيمن أخذ ينزف بشدة ولكنه لم يكن سوى جرح لحمي • نظفت الجرح وضمدته بنصف دزينة من القامطات • أما الرصاصة التي جرحت مناحي فذهبت عبر كتفه واستقرت في عضلات رقبته ونجحت بإخراجها بسهولة • ولم يظهر على سليمان أسوأ من بعض الخدوش البسيطة في الرسغ • وبينما كنت أضمد هذه الخدوش صاح مناحي طالباً مني الإسراع لأن هجوماً جديداً قد بدأ •

التقطت بندقيتي ونطاق خرطوشي وجثمت تحت مؤخرة السيارة• شعرت بالمرض الى حدّ الاقياء كما شعرت بالضعف الشديد • كدت لا استطيع أن أفتح علبة بندقيتي وأدس مشط خرطوش جديد • ربما كان غثياني مردّه إلى الإتير الذي استنشقته لا إرادياً عندما أسعفت جرحانا • شعرت بالتحسن بعد أن جثمت لفترة تحت السيارة وبندقيتي تحت ذراعي •

في تلك الأثناء كانت السيارتان المعاديتان الواحدة بعد الأخرى مما جعل السيارة الأولى فقط هدفاً جيداً لنا • قذفنا الرصاص إلى جسم السيارة الحديدي ولكن لسوء الحظ ليس بالرصاص الفولاذي لأن محجب

جلب عدة امشاط فقط من هذه الذخيرة وأراد توفيرها للحظة الحاسمة وهو اقتصاد سيء كلفنا غالياً جداً •

والآن انزلقت السيارة ثم خفّفت سرعتها وأخيراً توقفت على بعد ستمئة الى سبعمئة ياردة عنا ولكن السيارة الخلفية اندفعت نحونا بسرعة هائلة وانحرفت بشدة على بعد حوالي عشرة امتار وعادت بنفس السرعة التي آتت بها ولم يستغرق كل هذا من ثلاثين ثانية •

في هذه اللحظات القليلة حلت بنا مأساة رهيبة اخشى ألا أستطيع ذكر تفاصيلها بدقة • أذكر أنه في اللحظة الحاسمة أدركت أننا أطلقنا طلقتين أو ثلاث فقط لأننا كنا قد أفرغنا معظم بنادقنا في وقت واحد على السيارة الأولى وكان علينا أن نعيد إعادة تلقيم بنادقنا وهذا ماسمح للسيارة الأخرى بالثواني القليلة لكي تهاجمنا دون مقاومة •

عندما توقفت السيارة الأولى (تعطلت بفعل نيراننا) لم يبق في مخزن بندقيتي ولو خرطوشة واحدة عندما بدأت بوضع مشط ذخيرة جديد سمعت صوتاً مكتوماً عميقاً خلفي وسقوط جسم ثقيل فوقي • نحيّت كتفي لينزلق الجسم فسقط الجسم مترنحاً على الأرض ــ إنه سليمان الذي حدقت عيناه الواسعتان في الفراغ • اخترقت رصاصه صدغه الأيمن وخرجت من تحت فكه الأيسر • في نفس اللحظة شعرت ثانية بأن السيارة المهاجمة لاتبعد أكثر من مئة ياردة وسمعت صوتاً يصرخ خائفاً محذّراً : « يارحيم ! يامنّان ! » إنه فارس الذي يصيح وعندها علمت أنه ليس بجانبي لأنه زحف من مخبئه لينال نظرة أفضل فأصبح مستلقياً على الرمال وهو مكشوف تماماً •

وعندما تجاوزنا سيارة الموت أصابت رصاصتها هيكل سيارتنا

ولكن رغم الانفعال المحموم وأزيز الرصاص حولي التقطت أذناي عدة مرات في دروة الضجيج تلك الأصوات المكتومة التي يعرفها كل من شارك في المعارك الحامية : صوت الرصاص في جسم الانسان ، كما سمعت أيضاً الأنين والتأوه . انتصبت قليلاً لألقي نظرة سريعة وجرى الدم بارداً في عروقي لأنني رأيت فارس يتلوى أمامي على الأرض .

وانطلقت رصاصاتي الأخيرة بحقد خلف السيارة المتراجعة وعندها انتصبت واتكأت على بندقيتي وتمايلت كالسكران إلى جانب صديقي الذي تمدد ساكناً بدون حراك ووجهه في الرمل فقلبته ، كانت عيناه كامدتين ولكنه لازال على قيد الحياة . أخذ الدم يقطر من زاويتي فمه ويلطخ وجهه الجميل وثيابه وبجانبه يستلقي عبد الكريم وقد ثقب الرصاص جسمه . ياله من منظر رهيب !

أحضرت إحدى قرب الماء التي ملأناها بالماء الكبريتي من تدمر وغسلت بها وجه فارس الذي كان فاقد الوعي مما سهل علي فحص إصابته ، فبالاضافة الى جرح الفخذ البسيط الذي أصيب به في الهجوم الأول أصيب الآن بجرحين مخيفين في ثديه الأيسر . بدالي بقاؤه على قيد الحياة شبهمعجزة لأن الرصاصتين استقرتا فيالعنق ومن غير الممكن استخراجهما بالوسائل المتوفرة وكل مااستطعت القيام به هو تضميد جراحه بمساعدة محجم . إنهار مناحي من الضعف فجعلناه يجثم على دوطىء السيارة . بدا كل شيء غير حقيقي . بدأت مع محجم بجمع البنادق المتناثرة وأفرغنا الطلقات المستهلكة وحشوناها ثانية وكدسناها بجانب مناحي . وبعد أن حملنا القتيلين إلى السيارة تغلب الإعياء على محجم فسقط فجأة كما لو أصيب بنوبة وبقي ممدداً على الأرض . وبما تبقى لدي من القوة حملت جثة سليمان إلى المقعد الخلفي وجلست على

موطيء السيارة بجانب مناحي . غطيت فارس بعباءة لأنه بدأ يبرد وشعرت بالعطش فأخذت القربة ذات الماء الكبريتي التي غسلت بها وجه فارس والآخرين وشربت بنهم وهذا أنعشني جداً . التقطت منظاري لأنه بدا لي أن شيئاً يتحرك في سيارة العدو المعطوبة ولم يخب ظني . بدا واضحاً أن الرجال يحاولون إصلاح محرك سيارتهم واستطعت بسهولة رؤية ثلاثة رجال يتحركون . أعطيت المنظار الى مناحي وطلبت منه الاستمرار في مراقبة العدو حتى أعيد الى محجم وعيه . وسرعان ما نهض وحاول التخلص من اغماءته فشرب بعض الماء وكذلك فعل مناحي .

اصبح لكل منا بندقيتان حشونا أربعة منها بخرطوش فولاذي الغطاء وقررنا استعمالها أولاً . واستعاد محجم وعيه تماماً فوقف بجانبي . وضعنا مقعداً لمناحي كي يشارك في الدفاع وهو مستند إلى السيارة . كانت الشمس تقترب من الأفق عندما تحركت سيارة العدو . في البداية ابتعد الأعداء عنا ولكن ذلك كان لمجرد إيجاد أرض ممهدة لكي يعاودوا هجومهم . واتفقنا على أن يطلق محجم النار لوحده وأن أمتنع ومناحي عن إطلاق النار من أجل القتال القريب .

أطلق محجم النار بتأن ولكن بسرعة كافية . أعطيته بندقية أخرى بخرطوش فولاذي . بعد الطلقة الثامنة اصطدمت السيارة المتقدمة وجانبها إلى الأمام على بعد حوالي مئتي ياردة . لابد أنها سارت بدون تحكم السائق خلال الثلاثين ياردة الأخيرة . رأينا بوضوح في مقعدها الأمامي جثة العبد الجاثمة ولكننا لم نر أي أثر لبقية الرجال وبدا أن كل علائم الحياة قد اختفت .

وبدون كلام بدأ محجم يجري نحو السيارة وبندقيته جاهزة للإطلاق . طلبت منه العودة . لكن دون جدوى فنهضت وجريت لأتجاوزه . وبعد

أن صرخت عدة مرات . توقف أخيرا حتى أستطيع اللحاق به . وتقدمنا جنبا إلى جنب مستعدين لإطلاق النار على أول علائم الحياة . وبدت لي الخمسون ياردة الأخيرة لا نهاية لها لأننا تقدمنا نحو سيارة العدو خطوة خطوة وبأعصاب مشدودة . لم يتحرك شيء .

كانت منظرا مروعاً في السيارة فالعبيد الثلاثة المكدسين فيها جراحهم خطيرة ويشرفون على الموت والسائق فقط لا زال واعيا . واستل محجم مسدسه الموزر وعندما أصبح خلفه أطلق رصاصة في رأسه . وبسرعة وضع حداً لآلام الرجلين الآخرين بينما جمعت بنادق الرجال ومسدساتهم وذخيرتهم . إنهم جميعاً عبيد راكان .

في تلك الأثناء اقترب الظلام واتجه بصري إلى سيارتنا المحملة بقتلانا وفارس الذي يتمدد بجانبها وهو يشرف على الموت . ولاحت السيارة في الغسق ساكنة كالشبح . ولكن هل أنا في حلم ؟ ففارس الذي تركناه ممددا على الأرض فاقد الوعي يجلس الآن في مقدمة السيارة ! رفع يده ولوّح لنا ! إنها ليست هلوسة ! تركت محجم واقفاً في مكانه وجريت نحو فارس .

عندما جلست بجانبه مدّ ذراعه اليمنى ببطء ووضعها على كتفي وهكذا اتكأ علي واسترحنا جنباً إلى جنب لفترة من الوقت . أضاءت نور في لوحة القيادة فسقط نور خافت على وجهه الشاحب . انتشرت رائحة عطرة مرضية من ثيابه المبللة بالدماء . حاول أن يتكلم ولكنه كان يعاني من آلام مبرحة فلم يستطع فتح شفتيه عن أسنانه .

عندما عاد محجم بدأنا الاستعداد لمتابعة مسيرتنا فأدرنا سيارتنا بعد عناء . ولم يعمل سوى مصباح أمامي واحد لأن الآخر أصبح قطعاً متناثرة .

أردت نقل فارس مباشرة إلى دمشق حيث يوجد عدد من الجراحين الفرنسيين الذين أعرف أحدهم ، ولكنه هزّ رأسه بالنفي وطلب مني ان أحمله إلى عائلته تويسا ، كان مقتنعاً بأنه لم يبق له سوى وقت قصير وليس باستطاعة أي طبيب مساعدته ، كما أنني لم يكن لدي سوى أمل ضئيل في شفائه مما جعلني أتوقف عن محاولة إقناعه وشعرت بالخوف من تحمل مسؤولية موته بعيداً عن أهله دون أن يرى حبيبته ثانية .

قال فارس متوسلاً : « إذا ذهبنا الآن سيمدّ الله في عمري لكي أرى تويسا وأتزوجها وبهذا أخلّف « اسماً » ليشرف عائلة والدي فيما إذا اقتضت مشيئة اللـــه أن أموت » .

فارس أيها الأصيل من سلالة اسماعيل .

البدو (والوهابيون ايضـاً) لايعظمون قبور موتاهم ولكنهم يعتبرون أرحام الأحياء مباركة . وهكذا قررنا تنفيذ رغبة فارس . قبل التوجه نحو المخيم ذهبنا إلى سيارة السابا وموتاها الثلاثة فانتزعنا اطاراً جيداً وبعض القطع الجيدة التي ارتأى محجـم فائدتها كما نقلنـا معظم وقودها إلى خزان سيارتنا وصب محجم باقي الوقود فوق السيارة وأشعل فيها النار . وعندما ابتعدنا أضاءت هذه النار الجنائزية الصحراء المظلمة وفظائعها الخفية .

سرنا ببطء وحذر وفي الصباح وصلنا إلى مخيم الرولة .

الفصل العشرون

« الغشاوة في عيني »

عندما رأينا الخيام الخلفية في الأودية بين الهضاب المتماوجة من
. . نة جرف كانت الشمس قد بزغت ، وبعض قطعان الجمال بدأت
. . هاب إلى المراعي ، أوقفت السيارة ونظرنا الى المنظر الهادىء الممتد
. . ما ، لايمكن أن يكون العالم أجمل مما كان في ذلك الصباح ،

ظهر على وجه فارس نفس الضوء الهادىء الذي يمجّد الأرض
. . . ت عيناه ببريق ضوء جديد مما جعلني سعيداً باحضاره إلى بيته ،
. . . ينظر فارس الى كل شيء نظرة من يوشك على الوداع ، إنه يعجب
. . مما لم يكد يلاحظه في السابق كما لو أنه يراه للمرة الأولى ، سألني
. . ما إذا كنت أعتقد أن الحياة « الاخرى » مماثلة لهذه الحياة فأجبته
. التأكيد » ، نظر إلى يديه اللتين نفذت منهما الدماء وقال : « في يوم
. الأيام كانتا قويتين أما الآن فلم تبق فيهما أية قوة ، إنهما صفراوان
. . . دور اليانعة وسيطرهما التراب ، » نظر إلى وجهي وقال بجدية
. . . ت منخفض « لنذهب إلى تويما ! »

عندما مررنا في ذلك الجزء من القبيلة الذي ينتمي إليه والد فارس
. . حول السيارة حشد واجم ورافقنا بصمت إلى منزل أبي فارس ،
فارس نفسه من السيارة بمساعدتي وبرأس مرفوع لأنه لايريد أن

يظهر أي ضعف • لكن شحوب وجهه المميت فضح حالته الحزينة كما أن سدادات مناحي والثقوب في السيارة أوحت بما جرى • ورغم أن المئات من الكبار والأطفال التفوا حولنا ورمقونا بنظرات الاستفسار والقلق فلم ينطق أحد منهم أي سؤال . حتى الكلاب التي تفرح عادة ويعلو نباحها لدى عودة أية مجموعة إلى المضارب بقيت الآن صامتـــة واكتفت بشم السيارة الملطخة بالدماء وبإرخاء أذنيها وانسلّت كما لو أن أحداً قـــد ضربهـــا •

علم والد فارس بالخبر المأساوي الذي تطاير من خيمة إلـــى خيمة وأتى متثاقلاً وجلس بجانب ولده المصاب وبذل الجهود المذهلة للحفاظ على مظهر التسالك الذي تتطلبه الأعراف البدوية • ولم يسأل عن أحوال ولده إلا بعد أن دارت القهوة على الجميع وحتى بعد ذلك لم يـــزد عن التساؤل التقليدي « بمشية الله يافارس ستبقى معنـــا » • ورد فارس « ياوالدي أنا حيّ والحمد لله ! وهناك ســـلام ! » وسأل نايف وبعض الحاضرين بدهشة واضحة : « سلام ؟ »

ـــ « أقرّ ابن مهيد السلام في مجلس شيوخه ونقل قطعانه بالأمس إلى المراعي الشمالية • »

ـــ « السلام ! السلام ! » وجلجلت صرخـــة السلام في الخيمـــة وانقلبت في الخارج إلى كورس • « هناك سلام بإمكاننا أن نتقدم ! »

خلف فارس ركعت أخته الصغيرة وأبناء طراد بن صطام الصغار الذين تساقطت دموعهم على وجوههم ولكنهم عضّوا على شفاههم • والآن تحدثنا عن مغامرتنا التي صاحبتها تعلـقات الحاضرين • وعســـل فارس (الذي خيّم على ملامحه الموت) بتسالك لايصدق على إخفـــاء

آلامه والمشاركة بالحديث الذي استمر بلا إنقطاع • وشمل الحديث كل تفاصيل القتال ببرود شديد كما تم بحث مصير فارس المحتوم بما يبدو للعالم الغربي على أنه تجاهل ظالم لمشاعره •

استمر هذا الحديث لمدة ساعتين وعندما نهض الحضور في النهاية حاول فارس أن ينهض لكن نزيفا حادا رماه على مضجعه وأصابه بالإغماء • وتم استدعاء أمه • عندما عاد إليه وعيه كانت امه تركع بجانبه ويديه في يديها وبإمكان المرء أن يرى أنها تتعطش لنظرة منه وهمست « يابني ! » وقبلته والدموع تنهمر من عينيها •

وعندما رأتها عينا فارس المتنقلة وقد هزّها الحزن ارتجف وجهه وقال مستنداً على مرفقه : « من هذه المرأة ؟ ابعدوها عني فإني لاأعرفها ! » وتبادل العبيد النظرات بارتياب، فصاح فيهم فارس «خذوها إلى الخارج • » عندها أخذت المرأة المسكينة من يدها وقلت لها بعض كلمات المواساة وأخرجتها من الخيمة • ولكنها انتزعت نفسها مني عند مدخل الخيمة وعادت مسرعة ورمت بنفسها عند قدمي فارس وجمعت الرمل من الأرض بكلتا يديها وصبته على رأسها ودعت الله أن يحفظ لها ولدها • ولمس فارس رأسها المطرق وقال لها : « اذهبي ياأماه ! سيمنحك الله القوة فأنا أريد أن تحيط بي الوجوه الفرحة •لا • هل عشت لكي أخاف الموت ؟ » وأشار إليّ لأبعد أمه •

عندما خرجت من خيمة المرأة وصل راكب على حصان أسمر يجري من مخيّم آخر في الطرف المنخفض من الوادي فانتظرت • إنها تويبا كما قدّرت •

كان جسمها كله يرتعش وصوتها تخنقه الدموع • حاولت تهدئتها

وأخبرتها بما جرى بين فارس وأمه • عندها تمالكت نفسها وقبّلت يدي ووضعتهما على عينيها المبللتين وسألت « ماذا سأفعل ياعزيز ؟ » •

ـ اجعلي ساعاته الأخيرة بهيجة ياتويما • أظهري له سرورك • هذا هو كل شيء • »

حاولت أن تبتسم وقالت متوسلة « اذهب أمامي » ولكن الدموع انهمرت على خديّها • وكررت قائلة « اذهب أمامي ! أريد أولاً أن أزيل الغشاوة عن عيني • »

تقرر أن يتم زواج فارس وتويما في ذلك المساء • كان فارس يسأل عن تويما بنزق متزايد • وعند مازففتُ إليه الأخبار السارة عن وصول تويما وأنها ستكون عنده في أية لحظة رجاني أن يرى والدته أولاً وللمرة الثانية • ذهبت بنفسي إلى قسم النساء لإحضارها • حوّلها حزنها إلى مخلوق ضعيف كالشبح : مشت بخطوات متثاقلة ولكنها تمالكت نفسها ركعت بجانب مضجع فارس • وضع ذراعيه حول أمه الحبيبة وضمها إلى صدره • ظهرت الدموع في عينيه وبدت أنها تخفف آلام أمه جلست بجانب ولدها مستقيمة كالسهم ورتبت ثيابه ووسائده وأعادت ضفر شعره الكثيف الطويل وقالت بضع كلمات مازحة حوله وحول تويما • وبعد الانتهاء من ذلك غادرت ثانية متكئة على ذراعي وقالت اولدها من عتبة الخيمة بأنها سترسل تويما •

كنا قد جهزنا مضجعاً عريضاً مريحا لفارس وعزلناه بالستائر ولكن إحداها فتحت دائما حسب اتجاه الريح حتى يستطيع فارس أن ينظر إلى الخارج مستلقياً والجزء الأعلى من جسمه منتصباً • وفجأة غمرت وجهه بسمة من السعادة ممزوجة ببعض الدهشة عندما دخلت تويما بعد أن

كانت قد توقفت عند عتبة الخيمة وفي حلقها صرخة مختنقة وعلى وجهها نظرة من الرعب لحالة حبيبها اليائسة • ولكنها سرعان ماسيطرت على نفسها مما جعل من العسير ملاحظة انفعالها ولم ير فارس سوى وجه ضاحك عندما أتت إلى جانبه • وخشخشت خلاخيلها برقة ثم صاحت « فارس فارس ياحبيبي ! » وركعت ووضعت ذراعيها حول عنقه وأخذت تلمس وجهه وجسده • وعندما قبّلته لاحظت آن فمها قد تلطخ بدمه ولكنها أبقت شفتيها ملتصقتين بشفتيه لكي لايرى الدم المتساقط من فمه على عنقها •

وقبل مغيب الشمس بقليل بدأت الخيمة تمتلىء بأقارب فارس وأصدقائه الذين حضروا كشهود على زفافه • وفي هذه الأثناء عادت تويما إلى بيتها في جانب الوادي المنخفض حيث انشغلت صديقاتها باختيار أجمل الهوادج وبدأت بتزيينه لهذه المناسبة • رفع الهودج بمظلة الزواج المزركشة إلى ظهر جمل مغطى بشداد فاخر قاده العبيد إلى خيمة تويما • هناك صعدت العروس إلى مقعدها العالي على الودج ورافقتها صديقاتها

أناخت تويما جملها أما قسم النساء الذي تم ترتيبه لكي يرى فارس كل شيء من على مضجعه ؛ فحيتها أم فارس وأخوته وعدد كبير من العبيد واستقبلن العروس بالمراسم المعتادة • وعلى مقربة منهم أمسك مناحي بفرس بيضاء عجوز من رسنها • وتدعى هذه الفرس « عودة أو الكحيلة لعجوز البكر » لأنها لم تتزاوج أبداً وكل الرولة يحبوها ويبجلونها • عندما كانت في سن الثالثة أهديت إلى مشاعل بمناسبة ولادة الأمير نوز وهكذا فإن الفرس تبلغ من العمر ٢٧ سنة وعلى جسدها آثار الغزوات الكثيرة • على ظهر الفرس وضع جلد خروف أبيض « جلد

البكارة » الذي تجلبه العروس البدوية إلى عريسها كهدية زفاف حسب العادات القديمة .

واختفت تويسا إلى قسم الحريم لكي تلبسها أم فارس وأخوته ثوب الزفاف ، عندما ظهرت ثانية بدت متألقة في ثوب من الكشمير الفاخر الأحمر والأخضر (وقد ارتدته والدة فارس يوم زفافها) وعباءة مقصبة بالذهب تتدلى من كتفيها . اتخذت مكانها بجانب الفرس البيضاء وتقدم بدوي عجوز وبين دراعيه حمل صغير لايزيد عمره عن الأسبوع الواحد فوضع الحمل عند قدميها وذبحه كضحية بهذه المناسبة ، وشخرت (عـودة) وتراجعت عند رؤية الدم لكن العجوز أمسك بالرسن وغمس أصابعه بدم الحمل ورسم وسم الرولة على عنق الفرس ، وبعد مسح أصابعه المغطاة بالدم بجبينه البيضاء ، أعطى الحمل المذبوح ـ حسب العادة البدوية ـ إلى فتاة يتيمة اختارها أحد الشيوخ .

ودون قبول المساعدة التي قدمها مناحي نظراً لثياب تويسا المتجرجرة، قفزت بخفة على ظهر الفرس البيضاء التي مشت بخطى وئيدة في كل المخيم وإلى جانبها ركب العبد الضخم الذي يحمل فوق رأسها سيف جنده وجدوده العظيم ويغني بطريقة فروسية .

« انظروا إلى عروس فارس !   انـظروا إلى العـذراء !
من أجل عيني تويسا وقطعان عالية .
من أجل فارسنا الأسمر وزوجته »

وهكذا سار الموكب في المخيم الذي اصطف كل سكانه أمام خيامهم السوداء وعنـدما مرّت العروس على فرسها البيضاء حيّاهـا الجميع بالزغاريد البهيجة رغم أن قلوبهم كانت مثقلة بالحزن .

والدي عودتها إلى خيمة فارس ترجلت وأخذت جلد الخروف الأبيض من على ظهر الفرس وفرشته على فراش العرس ثم اختفت في جناح الحريم حتى يستدعيها فارس •

هكذا تمت حفلة الزفاف • أما الذين انتظروا مع فارس لرؤية دخول العروس فقد نهضوا جميعا لننصرف •

بدأت النجوم تتلألأ فوق الهضاب عندما خرجت من الخيمة وذابت الخيام السود في الوادي في ظلمة الليل الحالكة وعادت القطعان أدراجها فبدو ملامحها لدى عبور الأراضي العالية ثم تختفي عن الأنظار في المنخفضات •

وعندما غادر الأصدقاء الخيمة ودعوا فارس صائحين : « النشاط ! الله معك ! » خلف الستار الذي فصل جناح النساء كانت تويما تنتظر رحيلنا • وعندما تم الوداع الأخير خلعت عمود الخيمة الأوسط من مكانه ووضعته على الأرض • هبط السقف فتدلت الخيمة في الوسط حتى مست تقريبا مضجع فارس ولكن الأعمدة الجانبية والحبال المشدودة بقت الخيمة قائمة بمستوى ارتفاع الرجل • تلك هي الإشارة المعتادة للإشعار بأن العروس مع عريسها •

في تلك الليلة مات فارس • عندما أتينا إلى خيمته في الصباح وجدنا تويما فاقدة الوعي بجانب زوجها الميت • وعلى مرمى من الخيمة انشغل الرجال بحفر قبر له •

عندما أودعنا أخانا العزيز ممدداً على الجلد الأبيض في باطن الصحراء وقفت النساء على مسافة منا وهن ينظرن وينتحبن على الميت

وشعورهن مشعثة وقد رسسن على وجوههن علامات الحزن برماد المواقد • وقفت تويما صامتة بين النسوة وعباءة وبر الجمال تتدلى من كتفيها ورأسها مرفوع وعيناها مليئة بالدموع وعلى وجهها نظرة من الألم الذي يفوق الوصف •

ومرة أخرى أشرقت الشمس وغمرت بأشعتها الأرض • وهبطت أعمدة الخيام وبدأ الرولة بالرحيل من جديد •••• ووطأ الأحياء فوق الأموات عابرين إلى الصباح الباكر والمراعي الجديدة والحياة الجديدة •

ومرة أخرى ركبت **(سادها)** إلى الكومة حيث دفنا فارس ــ تلك الكومة التي أصبحت من المعالم المنعزلة الضئيلة في الصحراء المترامية الأطراف • ولدى اقترابي انسلّ الكلب الذي كان يقف فوق القبر انتصبت باقة من ريش النعام الأبيض بين الأحجار السود الثلاثة التي شكلت في الليلة السابقة موقد تويما • كان ذلك وداعها الأخير لحبيبها • هبت الريح فكسرت « زهرة » من هذه الباقة التي لاتذبل ورمتها على الأرض • ترجلت عن فرسي لألتقط هذه الريشة البيضاء واحتفظ بها كذكرى لصديقي الراحل •

ركبت الفرس ورحلت ولكني توقفت ثانية وتطلعت إلى الوراء فوجدت الكلب قد عاد إلى القبر وأخذ يدور ويدور حول القبر قبل الجلوس والتقوقع كالنائم • إنه حزين على سيده الراحل • لم يهتم به أحد ولم يبحث عنه أحد فأين يجب أن يكون إلا هنا مع سيده العزيز •

كنت على وشك الرحيل عندما لمحت راكباً يتجه نحوي ــ بدوي على فرس شقراء محجلة بالبياض انفصل لتوه عن مجموعة القتب والجمال المحمّلة وأتى إليّ بسرعة هائلة •

وتوقفت على مقربة من المكان الذي انتظرتها فيه . آخذ حصانها يشخر بنزق . وقالت لي رافعة يدها « سلام ! » فأجبتها «سلام توبسا !» وتدفقت الدموع من عيني ، ثم صرخت « شوشان ! » عندها نهض الكلب من على القبر واتجه نحوها ببطء وعلى مضض ثم توقف وأدار رأسه فصاحت ثانية « شوشان ! » وعندما ابتعدت تبعها الكلب .

تابعت الرولة طريقها والأرض مغطاة بجمالهم . خلال بضعة أيام أصبحت تدمر محاطة بالعواصف . فيوماً بعد يوم وبدون توقف وصلت قطعان جديدة من الجمال إلى الارض **اليباب** لتتوقف عند سفوح الهضاب وتشرب حتى ترتوي هنا يخرج الماء الكبريتي العذب من الهضاب ليتحول إلى نهر صاف يتفرع الى مئة جدول في السهل والبساتين الصغيرة المحيطة بالمدينة القديمة .

في وسط الرولة الراحلين استأنف السير مع الأمير فواز بجانب أبي الدهور وهو شعار القبيلة المقدس ولكنه بدا الآن مختلفاً بدون حرس عسكري وبدلاً من ذلك الهوادج التي تحتوي زوجات وأطفال بعض الزعماء . الآن لانجد فارس بين الشباب يجري معهم على ظهور خيولهم وحواله كلاب الصيد تنبح كما فتشت عبثاً عن إلهة الحرب الشابة .

وصلت الى مسامعنا أنغام أغاني الرعاة القديسة عندما توغلنا في المراعي الجسيلة التي ازداد غناها بازدياد توغلنا .

لن أنسى ماحييت الصورة السعيدة للقبيلة المبتهجة وقطعانها الراضية ترعى الأعشاب الخضراء والنباتات النامية . فآلاف الجمال جرجرت نفسها بجهد يائس حتى آخر رمق فيها . ثم تسوت في الطريق بينما الأوفر حظاً منها تتجول في المراعي الخصبة التي أنقذتها من الموت .

مرت سنتان تقريباً وكاد الجميع ينسون مصاعب ذلك الربيع . ذهبت إلى الرولة مرتين في تلك الأثناء ولكن في زيارتي الثالثة فقط وجدت نفسي في مخيم فارس بن نايف الشسري لأن العشائر تتفرق في الفصل الماطر وتتجول أحياناً مئات الأميال عن بعضها وليس بالمسألة السهلة إيجاد من تبحث عنه لدى وصولي رحب بي أبناء طراد بن صطام الذين جاورت خيامهم منازل شسر وبعد فترة عاد والد فارس إلى البيت واحتفلنا بلقائنا الجديد .

في زاوية قسم الحريم من الخيمة ظهر صبي بدوي صغير يرمقنا — نحن القادمون الجدد — بنظرات فضولية خجولة . كان لايزال في بدء مشيته مما اضطره للتمسك بطرف ستار الخيمة البالي وصاح صوت نسائي من الداخل « منور ! » إنه صوت تويما وهذا إذن ابن فارس . خرجت وأخذت الولد من يده متضاحكة وأعادته إلى قسم النساء عندها ناديتها باسمها . استدارت بدهشة ورفعت يدها تحييني بالسلام ثم انحنت وهمست في أذن الطفل . أشار الصبي نحوي ونظر في وجه أمه التي أومأت برأسها مشجعة وعندها تهادى نحوي بذراعين ممدوتين . عندما أمسكت به وضممته إلى صدري ضحكت ولكن عيني امتلأتا بالدموع . وأخيراً صاحت تويما بانتهاج « عزيز ! » بعد ذلك بقيت ساكتة مندهشة لرؤيتي ثانية . وبإيماءة من عمها جلست على شداد جمل بجانبنا صافحتني خجلة برؤوس أصابعها ورأيت في عينيها السوداوين أحزان الذكرى منذ موت فارس انتمت كلية إلى عائلة ابن نايف التي عاملتها كابنة وأخت .

ضمت الصغير إلى صدرها بحنو واخذت تداعبه والسعادة بادية على الأم وطفلها . وقالت تويما : « في المساء فارقني الحبيب ولكنه عاد إلي في الصباح . » وقلت لنفسي « الصباح — إنها الكلمة التي قالها

فارس وهو يودعها ــ الصباح : أيها الصباح المصون ــ أيتها العروس البكر ! » .

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ركبت مع أبي فارس إلى بعض المرتفعات . وجلت بنظري فوق الحماد حيث كانت خيام الرولة وجمالها ترحل نحو الجنوب وشعرت بأيد خفية تحمل أصدقائي إلى البرية ، وتساءل الزعيم الشمري : « أليست حياة الانسان كالخيمة وسكانها ؟ ويوماً ما يرحل السكان وتصبح الخيمة مهجورة كما يقول امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كأنه الثريا علقت في مصابها . . . .

هذاالربيع أعاد بشدة إلى ذاكرتي ذلك الربيع الآخر الذي كان فيه فارس مع تويما وبدالي الآن كالحلم . وتحرك فيداخلي (كما تحرك في داخل صديق عظيم آخر للبدو) الأمل اللاهب في أن يكون دائماً هناك حيز كاف على الأرض لأصدقائي البدو . وعندما تنقلت عيناي بين الأرض والسماء والهضاب والأفق البعيدة،أصبح الفضاء اللامحدود مليئاً بالذكريات التي أعتبرها أجمل شيء في حياتي رغم الطبيعة الحزينة لذاك الفضاء .



الفصل الحادي والعشرون

« مركب اسماعيل »

يتخذ مركب اسماعيل بالنسبة للبــدو في الجزيرة العربية كأهميــة تمثال آلهة الحكمة بالنسبة لأهل طروادة فكلهم يعتقدون أن امتــلاك هذا الرمز يعني الأمان والقوة للقبيلة التي تملكــه بينما يعني فقدانــه الكارثة بالنسبة للقبيلة وبالتالي تشتتها • امتلك الرولة المركب لمدة حوالي قرن ونصف دون انقطاع ولايزال منظــر مركب اسماعيــل حتى اليوم والعذراء المختارة الجالسة عليه في أوقات الحرب تدفعهم الى البطولات العظيمة • والفرسان يؤلفون حرس الشرف له هم صفوة رجال القبيلــة ويحافظون على سلامته بحياتهم وأجسامهم وهــم دون سواهم أبطــال الجزيرة العربية •

قبل أن ينتقل المركب إلى الرولة كان في حوزة العمارات،وبالتحديد كان في حوزة عائلة ابن هذّال حتى عام ٧٩٣ • في تلك السنة شنت عشيرة ولد علي (من حلفاء الرولة) الحــرب على العمارات • واشترك في تلــك الحملــة **جدوة بن مبادر** وهو من قبيلة الرولة بزيارة ولد علي في تلك الأثناء • وفي أوج المعركة ــ كما تقول القصة ــ بعد استئذان زعيم القبيلة حمل جدوة على الفرسان الذين يحرسون المركب (وعــذراء العمارات فوقه) وشق طريقه منفرداً وبضربة من سيفه قطع أحد سيقان الجمل الذي

يحمل رمز القبيلة وأقعده على الأرض ، وبسقوط الراية المقدسة المفاخي ، انهارت مقاومة العمارات أيضا وأصيبوا بهزيمة منكرة بعد أن اعتراهم الهلع .

وعلى أرض المعركة وجد المنتصرون جدوة قتيلاً بكمين نصبه له أحد المشاة وكذلك جميلة (عذراء العمارات الجالسة على العرش) التي طعنت نفسها حتى الموت كي لاتعيش عار هزيمة قبيلتها ، ويدعي أبناء قبيلة ولد علي حتى اليوم أن جدوة كان عشيق جميلة لأنهم يقولون أن جسميها وجدا جنباً إلى جنب تحت المركب المنهار وأن يدي جميلة مازالت مطبقة على مقبض خنجرها بينما صافحت يدها الأخرى يد جدوة .

بعد هزيمة العمارات أهدى شيخ ولد علي المركب ومعه سيف جدوة الشهير إلى قبيلة الرولة لأن جدوة الرولي هو الذي أسقط المركب وبالتالي تسبّب بانتصار ولد علي ، ومنذ ذلك التاريخ بقي هذا الرمز المقدس في أيدي عائلة الشعلان وصاحب الرولة في كل حروبها الظافرة رمزاً لمكانتها المتميزة بين قبائل الجزيرة العربية .

وهناك أسطورة أخرى قديمة حول سيف جدوة (ذو المياه) رواها لي الأمير نوري الشعلان في القرن الخامس الهجري (الثاني عشر الميلادي) عندما كان البدو العنزة مايزالون يرعون جمالهم عند جبل بدر جنوب تيماء . وقع الحدث على طريق الحج من دمشق الى مكة ، كان جنده بن مبادر أحد أجداد جدوة يسافر مع عشيرته باتجاه خيبر بحثاً عن الديرة قرب الجبل الأبيض في وادي الرقة ، في ليلة هادئة مظلمة وبينما تراقصت النيران الحمراء في الخيام امتلأ الجو فجأة بهدير رهيب وشق هزيم الرعد لقوي عنان السماء واهتزت الأرض وتمايلت وبدا كأنه العالم كله

يتهاوى ، وصحت الأحياء كلها في رعب قاتل فتراكضت هنا وهناك . ومن وسط السماء المظلمة انبثق ضوء فوق الأرض المتراقصة ببريق متزايد سريع حتى ساوى في لحظة واحدة قوة ضياء شمس الظهيرة وفاق حرارتها وأعمى الرجال والحيوانات فخر الجميع أرضاً . انشقت الأرض وملأ الجو [illegible] سحب فوق الوسط وغطى الأرض المنكوبة دخان كبريتي .

وعندما بلج الصبح وجد الكثير من الناس أمواتاً متناثرة الأشلاء . أما المكان الذي سقط فيه النيزك فقد تحول الى حفرة تشبه فوهة البركان بالاضافة إلى ذلك فقد اختفى عدد من الرجال والجمال في باطن الأرض دون أثر ودفنوا تحت الرمال والحجارة .

وأما الخيمة الممزقة والمحترقة جزئيا مات جندة بن مبادر وفرسه الحربية واثنان من جماله ومن طرفي الصحراء المتعاكسين (من حلب في الشمال والطائف قرب مكة في الجنوب) وصلت التقارير حول هذا النيزك البراق وصوته المخيف كما سمع أيضاً صوت ارتطامه بالأرض .

بعد بضع سنوات قام بعض البدو الجريئين بفحص الحفرة الأرضية وتوسعتها وتنظيفها فاكتشفوا بكثير من الفرحة أن الحفرة تمتلىء بالماء فسموها بير الرعد . أثناء الفحص وجد هؤلاء الرجال قطعاً صغيرة من «رسول السماء» الممزق . أخذ أحد أبناء ابن مبادر قطعة النيزك وصنع منها سيفاً طوله ٧٥ سم . ولا يزال حتى اليوم يبرق (كما فعل في حينه) كما لو كان جديداً وبلون مائل الى الزرقة دون أية بقعة صدأ . وعلى طول نصله الثمين الخفيف كالريشة علامات فضية متماوجة . وقام أحد الصاغة في دمشق بصنع مقبض وقراب جميلين له كما قام فنان آخر بحفر بعض الحروف العربية على النصل وملأها بالذهب .

وبهذا المعنى يكون سيف جنده وجدوه بحق هدية السماء ولهذا يسمونه ايضاً « سيف الله » و « ذو المياه » .

وعندما دخل الروله مراعي الفدعان والسبع الخصيبة في نهاية فترة المجاعة المحزنة أهداني الأمير نوري الشعلان هذا السيف كذكرى تلك المغامرة ودري فيها . ولا حاجة بي للقول بأني آنس هذا السيف لنا جداً .

* * *

القسم الثاني

الصيد والحرب

الفصل الثاني والعشرون

عليّ « الحامي »

والآن انتهت هذه الأيام الرائعة مع الرولة وتوجب عليّ أن أودعهم لبعض الوقت لأنني عقدت العزم على زيارة الفدعان والقبائل الأخرى التي تتجول في صحراء مابين النهرين وشمال سورية . كان الكثير من زعمائهم أعداء ألداء للأمير فواز وفي بعض الأحيان يتحاربون فيما بينهم . ولكني عرفت بعضها من الأيام الخوالي أما بالنسبة للآخرين فقد علقت آمالي على القواعد المرعية للضيافة البدوية . كما أملت أن أجد على الفرات رفيقاً مناسباً تؤهله معرفته للبلاد وصداقته مع القبائل ليكون دليلاً وحارساً لي في نفس الوقت . ولمساعدتي في هذا الخصوص زودني الأمير فواز برسالة شخصية إلى هاجم باشا الذي كان عندئذ زعيم القسم الأكبر من الفدعان في الجزيرة بين دجلة والفرات بينما اقتنع ابن مهيد بزعامة الأقلية غرب الفرات في سورية . كان فواز وثيق الصلة بهاجم ...

ى ان هذه الصلات الوثيقة لم تمنع الزعيمين من الانغماس في الغزوات
الحروب المتبادلة كلما سنحت الفرصة .

نصحني الأمير فواز بالذهاب أولاً إلى حلب والاتصال هناك بوكيل
احمد باشا الذي سيؤمن إيصال رسالته كما سيؤمن لي رفيق سفر موثوق
عملت بنصيحته . لم أزر حلب منذ عام ١٩١٦ . في ذلك الوقت حاولت
عبثاً إيجاد ابناء شيخ يدعى أحمد حافظ الذي يعرفه قراء كتاب هومر
دافنبورت (بحثي عن الحصان العربي — نيويورك — ١٩٠٨) ومن أحمد
حافظ هذا اشترى دافنبورت (الذي تعرفت على أخته في كاليفورنيا)
ستة وعشرين حصاناً عربياً في عام ١٩٠٦

كانت مهمتي الأولى لدى وصولي إلى حلب وهي إيجاد الوكيل فقادتني
الارشادات إلى بناء قديم (من القرون الوسطى) قرب القلعة . وفي مدخل
البناء قامت بوابة خشبية ضخمة عليها مسامير حديدية كبيرة . ومن فناء
البناء خلف البوابة وصلتني لهجات البدو فطرقت على البوابة عدة مرات
دون أي جواب . وفجأة انفتحت البوابة الضخمة مترافقة بصرير المفصّلات
خرج منها أربعة فرسان مسرعين كادوا أن يرموني على الارض لولا أنني
كنت منكمشاً أمام احدى العضادات الحجرية . تابعت بنظري المذهول
هذه الكوكبة من الفرسان التي اختفت في سحابة من الغبار قرب المتاريس
البارزة للقلعة الصليبية القديمة .

عندما عدت ببصري إلى البوابة وجدت منتصباً أمامي في المدخل
بدوياً قامته أطول من المعتاد بالنسبة لقومه (أكثر من ١٨٠ سم) وهو
يتفحصني بنظرات متفحصة « دون أن يرف له جفن » ودون أن يرد تحيتي .
في النهاية وضع ذراعه حول كتفي ببرودة وجذبني إلى الداخل بطريقة
... شد بذراعه الآخر سلسلة طويلة صدئة أقفلت البوابة .

وقع نظري على خان جعلني أتصور نفسي أيام الخلفاء . فلعله لم يكن مرتباً ولكنه أفضل من كثير من الخانات التي رأيتها في استنبول وبغداد . تناثر في المكان بصورة فوضوية وربضا هادىء مجموعة مختلطة من الجمال والخيول والحمير والماعز والغنم . وبتكاسل أكلت الحيوانات الشعثاء الهزيلة التبن المقدم لها على الجلود البالية ورعاة الجمال الداثرين بعباءاتهم البالية جاثمون على الأرض والأطفال القذرون تقلبوا بصخب فوق سنامات الجمال واندفعوا بين سيقانها بينما الحيوانات تتحمل هذه الرياضة بصبر وآذانها متهدلة وأعينها ترف . ورفرف الحمام بصورة دائمة بين الفناء والحصون والمتاريس القديمة كما دارت النسور بأجنحة ساكنة وهي تطير على انخفاض فوق الجدران ذات الشرفات وتنعق من الجوع وعيونها تترصد اللحوم .

« من أين أتيت ؟ » سألني الرجل الضخم دون أية مقدمات وبقليل من الأدب . وضعت يدي في جيبة صدري وأخرجت منها رسالة التوصية بعد أن تجعدت واتسخت كثيراً ومعها ــ بدون قصد ــ نسخة فوتوغرافية عن لوحة **هومر دافنبورت** الشهيرة «**وداع حالب للصحراء**» . تظهر الصورة الشيخ أحمد حافظ وبعض أصدقائه البدو ويشهدون رحيل الحصان العربي الشهير الذي قدمه حاكم سورية التركي إلى دافنبورت كهدية . واختطف صديقي الطويل كلاً من الرسالة والصورة من يدي وأخذ نقلبهما بسماجة . وفجأة اكتشف في الصورة وجوهاً مألوفة . لم يكن بالامكان أن تحدث صاعقة رعباً في الفناء الهادىء أكثر مما أحدثته الصيحات المسعورة الصادرة عن هذا المارد لدى هذا التعرف المفاجىء على أشخاص الصورة . لكن دهشته بدت مضحكة . فحاول ــ وهو نتلعثم بانفعالاته ــ أن يفهمني ويفهم الجمهور بلا استثناء أنه وجد والده في الصورة فتصرف كالمجنون إذ أخذ يلوح بذراعه في الهواء ويرقص كدرويش منفعل وأخذ يضحك ويبكي معاً وترددت أصداء ...

العالي عبر الجدران حتى بدا كل شيء يتزلزل : لم يعد بإمكانه أن يهدأ ، وانتقل انفعاله إلى الحيوانات مما جعل الجميع يشاركون في هذه الضجة .
وعندما خيّم الهدوء من جديد وجدت نفسي بين ذراعي صديقي الجديد والتفّت أكمام عباءته الفضفاضة حولي كأجنحة الملائكة الرحيمة وأخذ يضمني إلى صدره ويقبّلني على الخدين صائحاً « إنك ابن دافنبورت؟ » بصورة جعلت صيحته أقرب إلى التصريح منها إلى السؤال . وحاولت عبثاً أن أشرح له الأمر ولكنه استمر في إصراره على أنني ابن دافنبورت ولم يكن مستعداً لسماع العكس .

وتدريجاً هدأ الرجل وأصبح التفاهم بيننا ممكناً . علمت أن اسمه علي بن أحمد حافظ وانه الابن الأكبر للشيخ الذي حاولت البحث عن عائلته عندما أتيت إلى حلب عام ١٩١٦ . يالها من ضربة حظ عندما يقدم لي القدر الآن في شخص وكيل هاجم باشا نفس الرجل الذي حاولت البحث عنه منذ أيام الحرب العالمية .

ولدى تذكره لرسالتي أخرجها من الجيب الكبير الذي حشرها فيه ـ أثناء انفعاله ـ مع الكثير من الأوراق الأخرى وأعاد الباقي واتخذ مظهراً من الأهمية وقال : « أنا علي وكيل هاجم باشا ومحجم بن مهيد عند القوم . » نظّف حنجرته وبصق كما لو أن خلق الله جميعاً تفاهات ثم تابع قائلاً : « وأنت بحاجة الى رفيق ؟ » فأجبته « وهذه الرسالة التي حملها بين يديك ستنقلها مباشرة إلى الشيخ لأنها تحتوي رسالة شخصية من الأمير فواز . » وقبل أن أستطيع منعه فتح علي الرسالة وأخذ يقرؤها بصوت عال : « بسم الاله المعبود . السلام عليك ياحامي الحمى بمشيئة الله دع هذا الغريب يعيش في كنفك كابن لأبيك . صادقه كما لو كان ... ، احرس أخي وحافظ عليه عندما يقيم عندك أو عندما ترسله إلى

أي شخص سواك يامن تقف أمام الله وضميرك مرتاح • ليسدّد الله في عسرك وفوتك ولنعش إلى الأبد جنباً إلى جنب بصداقة دائمه • »

عندهذه النقطة قطع علي قراءته بالدعاءالكثير ببركات السماء ولعنها على الأمير فواز • لم يساوره أي شك في أن الأمير الرولي الشاب يتمتع بهذه الفضائل والعواطف الرقيقة • وبدا أنه متأثر جداً فرفع صوته واستمر بالقراءة : « الحمد لله الرؤوف الوهاب الذي أسبغ علي ـــ عبده الفقير ـــ هذه النعمة القيمة • لقد وهبني الرحمن الرحيم الفرصة الثمينة لكي أخلص حليفك وأخانا برجس بن هديب سبعين فرسا • » وقفز علي على كما لو لدغته رتيلاء سامة • وبدلاً من الرحمات والبركات السابقة أخرج الآن من بين شفتيه سيلاً من اللعنات والسباب القبيح على رأس الأمير • وهاج ثانية كالمجنون • وشاركه في هذه النوبة البدو الآخرون واندفع المجانون ثانية . الرجال والحيوانات في الغناء • مما حوّل الغناء عاصمة جهنم • وفي نوبة غضبهم الوحشي بدأ الرجال يضربون الحيوانات المنفعلة والخائفة (الأغنام ـــ الحمير ـــ والماعز) بأسواطهم المرنة كما لو كان الزعيم الرولي المكروه نفسه بين أيديهم•وحتى أنا نفسي (الذي كنت السبب البريء لهذه النوبة من الجنون) أصبحت هدف أبشع توبيخات علي • كيف يمكن أن أرتبط بمثل هذا السفاح الشهير وقاطع الطريق المعروف ؟ ومرّ الكثير من الوقت حتى هدأ علي ثانية ومعه كافة جمهوره وبصوت مضطرب عاد لقراءة بقية الرسالة : « ليرحم الله أفكارك الحزينة وليكن التفكير المتفائل في القضاء المحتوم عزاء لك ورحمة لروحك (لم أستطع تمالك نفسي من الضحك الصاخب عند سماع ذلك • مما جعل عمي يقطّب حاجبيه باشمئزاز) كل شيء زائل وكل شيء مقدر من الله • ولتبق جثة من يشك في شجاعة فرساني بدون دفن • أفعال

.. ظاهرة وعلى ضوء هذه الأحداث المحتومة عليك أن تعترف بصدق
.. مي • (قلت لنفسي : يالها من فكرة رائعــة أن يعتبر الله مسؤولاً
.. سرقة السبعين فرساً • ليبارك الله النساء الجميــلات والفضيــلات
الرياني في حرز أخيك (طرفــة أخت فواز) • ليكن موقــع الأجرام
سماوية أفضل دليل لك • إن الله على كل شيء قدير » •

غرق علي في التفكير وبدا كأنه منزعج من آلاف الأفكار المتضاربة •
.. نفســه في النهاية قبــل باحترام وجهي • هــذا المثال النموذجي مــن
الدبلوماسية البدويــة • واضطر سّراً للاعجاب بهــذا الاحترام الذي
.. المرء في الجزيرة العربية حتى لألد أعدائه •

أمسك علي بيدي رغم أن الغضب مازال ظاهراً في عينيه ولكــن
صوته بدا مقبولاً عندما قال : « هذه الرسالة ـــ ياصديقي ـــ تساوي
.. صية من ابليس » • وبتكشيرة من الاحتقار رمى الرسالة في النــار •
.. كنت في الوقت المناسب من اختطاف هذه الورقة الموقعة من اللهب وفي
حقيقة لاعلي ولا أنا تجرأنا على تقديــم الرسالــة إلى أي من رعيــي
.. دعــان •

ولسروري العظيم عرض علي نفسه ليكن رفيقاً في رحلة صيد إلى
.. جزيرة ـــ خلال يومين بسيارة فورد قديمة تحملنا الى الفرات •

الفصل الثالث والعشرون

الثامر أن مع « نعامة الطين »

في اليوم الأول من بداية رحلتنا دخل عليّ على رؤوس أصابعه إلى غرفة نومي في الثالثة صباحاً وهمس في أذني لأنهض لأن كل شيء جاهز . ولم أكد أتبعه إلى الخارج حتى نسي مراعاته للخان النائم وصرخ كبوق الضباب عبر الفناء الهادىء : « ياابراهيم : أسرع » .
ومن الطرف الآخر للفناء وصلنا صوت البصاق والهسيس والنفح والقمقمة لأن سيارتنا / الفورد / قد دبّت فيها الحياة بعد صرخات علي وتحركت على عجلاتها المتمايلة كالسكران فوق الأرض الوعرة . لم نتمكن من رؤية أي شيء منها في الظلام وبعد فترة ظهر نور أصفر خافت خفق مؤقتاً ببريق أشدّ عندما ارتطمت السيارة بالأحجار الكبيرة . وبعد صرير طويل وقفت « مركبة الصحراء » أمامنا . وترجل السائق الحافي القدمين والملفّح الرأس والرقبة بمحاولة جزئية من الوقار بالرغم من عرجه الظاهر ولكنه لسوء الحظ أغلق الباب خلفه بشدة جعلته يخرج من مفصّلاته .

وقال علي : « إبراهيم » وبهذه الكلمة الوحيدة قدم لي السائق . ونزع علي ثلاثة أمتار من الشال الصوفي السميك عن رأسه ونظر إلي بعينه الوحيدة الباقية . يالهما من ندّين متكافئين : سيارة / الفورد / البدينة ثالث وسائقها الصغير الأعرج الأعور ذي الوجه المغطى بالبثور !

وتصنعت الابتسام ولكني في السر تصورت هياكلنا العظيمة (علي وإبراهيم وأنا) تتعرى من اللحم تحت ركام سيارتنا في مكان ما من الصحراء . وفي الساعة الثالثة والنصف صباحاً اتخذنا طريقنا إلى البرية .

في الأراضي الجافة قطعنا حوالي مئتي ميل في اليوم . لم نتبع لا طرق القوافل ولا آثار الجمال بل سرنا حسب إرشادات العرب الذين صادفناهم صدفة والذين تعلق بعضهم مؤقتا بالسيارة لإرشادنا . وانتهت معرفة علي بالأرض بمجرد تجاوزنا أسواق حلب وكلما تجرأت على لومه تخلص من ذلك بابتسامة ساذجة وبقوله بأنه أحبني من كل قلبه ولم يكن بإمكانه أن يدعني أسافر وحيداً .

لقد احبني بالفعل ولكنه في نفس الوقت أعد نفسه لرحلة مرح . باحترامه لي حمله مسؤولية إبراهيم وسيارة /الفورد/ والله وحده يعلم كم ربح من الاثنين .

قضينا ليال عديدة في العراء ولكننا أحياناً التجأنا إلى مخيمات البدو . وجدنا هاجم باشا قرب نهر الخابور . كان الشيخ مريضاً بذات الرئة الحادة التي تعرض لها في مستنقعات سهل الفرات . لم أستطيع البقاء عنده أكثر من بضع ساعات سرنا بعدها باتجاه دير الزور . أرسلت طبيباً من أول مركز عسكري فرنسي فأمر بنقل هاجم باشا إلى حلب ولكنه مات هناك بعد اسبوعين .

في هذه المنطقة الصحراوية يوجد جسر واحد يستطيع المرء العبور فوقه الى الجانب الشمالي الشرقي من النهر . وبعد مسيرة ثمانية أيام وجدنا أنفسنا في أقصى نقطة في الجزيرة ليست بعيدة عن الحدود

التركية وهنا تجولنا لعدة أيام بين القبائل البدوية الصغيرة ، مررنا بقرى قذرة متفرقة بيوت فلاحيها الطينية مخروطية عالية ومعظم سكانها من الجركس والأكراد ، ولكننا تعلمنا أن نتجنبهم لأن زعماءهم وموظفيهم المتحمسين كثيرا ماأعاقوا تقدمنا إذ أنهم احتجزوا جوازات سفرنا وجعلونا ننتظر حتى يتصلوا هاتفياً أو برقياً بحلب أو الرقة أو مثل هـذه المراكز البعيدة للاستفسار عنا وأحياناً استغرقت العملية عدة أيام قبل أن نتمكن من الرحيل .

وعلمتنا الخبرة أن نبتعد عن القرى وهذا ماسبب الانفعال الغريب لدى رجال الدرك وذات مرة ـ قرب الحسكة ، تعقبتنا سرية من الدرك ولكن أفضل جيادهم لم يستطع اللحاق بسيارتنا القديمة فأطلقوا علينا الرصاص دون أي نتيجة سوى أن هيكل سيارتنا أصيب بعـدة ثقوب رصاص كتذكـار .

وعندما وصلنا تقريباً إلى هدف رحلتنا الرئيسي وهـو بدو طيّ أصبنا بحادث مشؤوم ، احتجزتنا سيارة فرنسية مزودة برشاش وأخذتنا إلى القلعة المبنية حديثاً قرب مدينة نصيبين التركية المحصنة . قال القائد الفرنسي بإيجاز أنه نظراً للقلاقل المسلحة فإن منطقة بـدو طيّ ليست مأمونة وأن حكومته لاتستطيع أن تكون مسؤولة عن سلامة الأجانب فيها وأن علينا العودة إلى جسر الخابور ـ مسافة نحو مئة وخمسين ميلاً لو سرنا بخـط مستقيم ، وبالإضافة إلى ذلك أمرنـا بمرافقة جنديين سوريين في سيارتنا المكتظة سلفاً . كانت المقابلة قصيرة وجميلة ولم يكن بامكاننا سوى الخضوع .

في سيارتنا المتداعية تجمع الآن سـبعة أشخاص (ابراهيم وعلي ورفيقان بدويـان وجنديان وأنا) وغزال وكلب صيـد ودجاجتان .

احتشادنا الاسرفيين : اضطررنا للتمسك بأي شيء ومنعت أيدينا الثلاثة عشر متشابكة السيارة من الانفراط (كانت يد ابراهيم الرابعة عشر تمسك بمقود السيارة) كما لم يكن باستطاعة أي من الركاب السقوط دون جره الآخرين .

وفجأة توقفت السيارة . عندما فتح علي قبضته « المتجمدة » تحرر الجميع اليا من العناق الجماعي وسقطنا جميعا مع متاعنا . وبعد جمع الحقائب والصناديق والعلب والبنادق والحيوانات المتناثرة التفتنا نحو السيارة .

تربع علي المقاعد وكل شيء تحتها ليس مثبتا بالبراغي أو مسامير البرشام . وفك البدويان شمعات الاحتراق وفحصاها وانتزعا الأسلاك من كل أماكنها مثل الأشرطة التي تخرج من قميص المشعوذ الصيني . ابراهيم وحده احتفظ بما يشبه الهدوء . تربع على الأرض واتكأ على مقدمة السيارة وأخذ يداعب الخرزات الزرقاء المربوطة حول غطاء مبرد[1] السيارة . سألت ابراهيم « ماهو الغرض من هذه الخرزات الزجاجية ؟ » فأجاب كالحالم : « إنها تجلب الحظ السعيد . » ثم انتقل بمداعبته إلى ريشة لنعام القدرة المثبتة في غطاء المبرد . ثم سألت ثانية : « والريشه هذه ـ ماهو عملها ؟ » أجاب ابراهيم بنزق : « هذه الريشة ترمز إلى السرعة والقدرة على الاحتمال التي وهبها الله لذكر النعام . »
الآن عرفت كل شيء !

والتفت ابراهيم نحوي بعينه الوحيدة وقرر معالجة الموقف بمظهر الاستياء . وأعلن بهدوء أن نوابض السيارة قد أعطبت والأسوأ من

---

(1) المبرد...

ذلك أن محور السيارة الامامي مكسور • فقلت باستهزاء : « إذن لـ... تستطيع (النعامة البرية) أن تسير قـط : » وهذا أفقد ابراهيم صبره فرمقني بنظرة ازدراء وأبعد الخبيرين المتطوعين عن السيارة ببعض من لعناته الأصلية • فجأة انفجر البركان الهادىء للعمل • أعاد كـل برغي وعزقة وشمعة اشتعال وسلك انتزعه مساعداه • وضع « جبيرة » للمحور المكسور من دفات أحد الصناديق وشرائح صفيحة النفط • ولهذه المهمة احتاج ابراهيم أيضاً لسلك أو حبل الذي لم يكن معنا منه سوقطع قليلة اضطرنا لاستعمال قميص علي وقميصيّ الاثنين (وهي القمصان الوحيدة لدى الركاب السبعة) لتجبير ساق « النعامة البرية » المكسور • وكبديل النوابض استعمل ابراهيم بذكاء عدة قطع خشبية فوق المحور الخلفي • وبدت النتيجة رائعة ـ هل تقوم بالمهمة ؟ •

تخلصنا من كل المتاع الزائد وحتى أكلنا الدجاجتين • وبعد استراحة قصيرة في ظل السيارة سرنا بحذر وببطء فـوق الحصى القاسي الناعم بمرافقة « الأدعية والاستغاثات والتأوهات : ياالله ـ أوه ـ آه ! » •

وبمعجزة توصلنا بالفعل إلى الخابور حوالي منتصف الليل • عانقت ابراهيم وسحبت كل ماقلته عن « النعامة البرية » •

الفصل الرابع والعشرون

مع بدو طيّ وشمر

حالفنا الحظ في التملص من رقابة الفرنسيين في محاولتنا الثانية للوصول إلى مراعي بدو طيّ بزعامة شيخهم محمد عبد الرحمن الطي .

انتشر مخيمه في واد أخضر بجانب سلسلة طويلة من برك الأمطار . أما سلاسل جبال **كردستان** المغطاة بالثلوج والممتدة خلف الحدود التركية فقد شكلت خلفية من المناظر الرائعة . كانت الجمال وقطعان الأغنام ترعى في الصحراء التي حولتها الأمطار الحديثة إلى مراعٍ خصبة . وتناثرت هنا وهناك مجموعات خيام البدو السود . وصل أحد الفرسان لمقابلتنا وفي بعد بدا أن مهراً **يطفر** حول أمه ولكن لدى اقتراب الفارس وجدنا أن المخلوق **الطافر** لم يكن سوى غزال أليف . اعتلى البدوي فرساً رائعة **طفرت** بقوائمها كالراقصة . قلت متسائلاً : أين منزل مضيفنا الذي سيتقبلنا ؟ » فأشار الفارس إلى كفاف أكبر خيمة ظهرت خلف إحدى الصخور من بعيد . « ها والله ! هناك يسكن الحريم . » تفحصنا لحظة ثم حيانا بجفاء وأدار حصانه وابتعد وخلفه الغزال .

عندما اقتربنا من الخيمة الكبيرة رحبّ بنا « رنين » مهباج القهوة حتى نصل وأدخلنا (ملاّ سلامة) كاتب الشيخ طي إلـى الخيمة الواسعة

التي تجمع فيها عدد كبير من رجال القبيلة • وكالعادة وقف صقر الشيخ المفضل على الشداد •

أخذ أحد العبيد الصقر ووضع الوسائد على الشداد لجلوسنا وحرك القهوجي قطع جذور الصحراء الملتهبة في الموقد وصب بينها بعر الجمال من ثنايا ثوبه • نفخ بكل طاقته على الكتل الصلبة بحجم الجوز حتى بدأت تتراقص فوقها اللهبات المضيئة • ثم وضع وعاء القوة الكبير فوق الجمر وسرعان ما بدأت القهوة بالغليان والبقبقة • وقال لي القهوجي « جدّد روحك ! » وهو يقدم لي الفنجان العطري •

وحسب التقاليد البدوية كان سابقاً قد مسح كل فنجان بعناية بكمّ قميصه القديم • وبيده الاخرى حمل ببراعة أربعة فناجين خزفية صغيرة كالبيض في العش وجلجل بها بخفة • ودارت القهوة • وكان الضيوف المفضلون الذين قدم لهم العبد القهوة أولاً (ولسوء حظي كنت منهم) ضحايا كياسة خاصة • فقبل صب القهوة بصق أولاً في الفنجان ثم جففه بكمّ قميصه • واضطررت لتحمّل هذا الاجراء ثلاث مرات على يد كاهن القهوة الحريص الذي قام على خدمتنا بأقصى ما يسكن من الوقار في كل مرة • وبعدها فقط استطعت أن أهز الفنجان بين أطراف أصابعي دليل شكري واكتفائي وأعدته له • دخل أحد البدو ليخبرنا أن مجموعة قنص الزعيم قد عادت • إنه لمنظر رائع حين بعود الفرسان • بلغ المجموع حوالي سبعين رجلاً ومعهم الأرانب الوحشية والغزلان والحبارى المعلقة فوق كواهل جيادهم واعجازها • وأطلق قطيع من كلاب الصيد فعادت فوراً إلى ظل الخيمة حيث تمددت وجوانبها لاهثة وألسنتها متدلية • نهض بضعة عبيد وأحضروا لها الماء فلعقته بنهم • وفي هذه الأثناء ترجل الفرسان وفكّوا مقاود الصقور المغطّاة ووضعوا كل طائر على مسند محشو أمام سجادة الشيخ •

ولدى ترجّل طي من على فرسه ذهب إلى جناح النساء وبعد فترة ظهر أمامنا وقد تمنطق بسيفه القديم تكريماً لضيوفه . وقفنا جميعا وحييناه . أما علي فتقدم وقبّل يد شيخه ووضعها على جبهته بطريقة مفرطه وقال : « يامحفوظ ! ليسد الله في عسرك ياأكرم كل العرب ! » ثم قدمني علي للشيخ الذي ضمني إليه وبلطف بسيط وقور قال : « السلام عليك ! » وأشار بحركة مهذبة من يده إلى مجلسي فجلست .

بعد أن هدأنا في أمكنتنا لفّ طي سيجارة وأشعلها بين شفتيه قبل أن يقدمها لي . كان مضيفنا رجلاً طويلا كعلي ولكنه نحيل صغير العظام . قلما رأيت مثل هاتين اليدين والقدمين المصقولتين . حقاً إن مظهره كله لأخاذ . تعتبر بشرته بالنسبة للبدو شاحبة جداً تزيد في شحوبها اللحية السوداء والضفائر الحالكة . فضّل أن يلبس الأسود : فعباءته وصندله وكوفيته كلها سوداء بالاضافة إلى شاله الأسود حول خصره وحتى فرسه سوداء وهذا شيء نادر لأن معظم البدو ينفرون من الخيول السوداء . كما أن الرسن وعذارات الرأس والسرج والموشحة كلها سوداء تظهرها فقط الزخرفة والزينات الفضية وحتى سيفه المرصع بالفضة له قراب أسود .

الشيخ طي مزهو بنفسه . يحب الأسلحة والخيول وفوق كل ذلك يحب ولده الصغير فرحان . وحسب رواية علي ليس لدى الشيخ عواطف شديدة تجاه زوجاته المشهورات بجمالهن ولكنه فخور بهن كافتخاره بممتلكاته الأخرى من الماشية والمراعي .

بدو طي لايحتفظون إلا بالقليل من الجمال ولكنهم يربون أعداداً هائلة من الغنم والماعز التي تعاني كثيراً من غارات الذئاب في الربيع والشتا . أخبرني الشيخ طي أن هؤلاء الغزاة الخاطفين من أصقاع

الجبال التركية التي لايمكن الوصول اليها عادت إلى الأراضي المنخفضة الخالية من الثلوج وقد هاجست من قبل مخيمات البدو المكشوفة وسببت الكثير من الاضرار رغم يقظة الرعاة في حراستهم •

والشيخ طي ـ كالنسرود ـ « صياد عظيم أمام الرب » أي لايحب أي شيء أكثر من الركوب للصيد • في الليلة الثامنة بعد وصولنا دعا زعماء القبيلة للاجتماع وأعلن أمامهم أنه يرغب في حملة مطاردة الذئاب تبدأ بعد يومين وعلى كل خيّال في القبيلة أن ينضم إلى هذه الحملة ليصبح بالامكان تشكيل سلسلة من مثيري الطرائد من مكانها • أما الشيخ طي ونوابه وأنا المسلحون بالرماح فقط فسنلحق بالذئاب ونصرعها بهذه الرماح • ليست هذه هي الطريقة المعتادة لاصطياد الذئاب ولكنها طريقة أكثر رومانسية من إطلاق الرصاص عليها من البنادق البعيدة المدى في السيارات •

عندما سألني الشيخ طي فيما إذا كنت أعرف كيف استعمل الرمح اعترفت بجهلي ولكن لم يستغرق تعلمي لاستعماله طويلاً حسب إرشادات صديقي العزيز •

يبلغ طول هذه الرماح ٥ ـ ٦ آمتار وهي من الخيزران الخفيف الذي يحصل عليه البدو من المستنقعات المجاورة للفرات الأدنى • تحت الرأس الفولاذي المثلث تزين هذه الرماح بزغب النعام الأسود والرمادي وبعض الشرائط الحمراء الخفاقة والحلقات الرنانة من السلاسل الفضية الدقيقة أما المؤخرة فغمدت بطوق حديدي ملون •

وعندما اصطف المثيرون والمطاردون في الوقت المحدد أمام خيمة الشيخ وكان كل شيء جاهزاً غرس الشيخ مؤخرة رمحه في الأرض

وباستعمالها كعصا للقفز امتطى ظهر جواده • وبالاضافة إلى الشيخ وأنا لم يحمل الرماح سوى نوابه • أما بقية الرجال فقد اصطحبوا بنادقهم لمجرد بداية الصيد وللدفاع في حال مواجهة مفاجئة مع الأعداء • ورافقنا فرحان ابن الشيخ طي الذي يبلغ التاسعة من العمر وفي نطاقه مسدس موزر ، ثقيل وقد تدلى ساقاه القصيران العاريان على جانبي فرسه غير المسرجة والتي قادها بذكاء بفخذيه ويديه وصوته الذي جعلها تمشي أو تعدو •

قبل طلوع الشمس بنصف ساعة ركبنا إلى السهوب التي تستيقظ على صباح جميل • ركبت فرساً نشيطة وسريعة وصبورة • وفي اليوم السابق ركب نحو ثلاثمئة فارس مسلح من الخيام المتناثرة لبدو طي إلى سفوح جبل سنجار لمنع تراجع الذئاب إلى الجبال الشمالية •وهربت أمامنا مجموعات الغزلان والحباري والطيور الأخرى ولكننا لم نتعرض لها كنا ننوي تعقب نوع آخر من الطرائد • ولم نقدم على المطاردة الا عندما أثار جناح الخيالة الأيسر ذئبين من مكمنهما • الذئاب لاتكشف نفسها وتهرب كما تفعل الثعالب . ولكن هناك أشياء أخرى على المرء أن ينتبه لها في هذا الصيد • ففئران الحجور وخلد الحقل تحفر حجورها في الأرض وأكثر من نصف خيولنا تعثرت عندما وطئت فوق هذه الحفر الخفية •

جرينا نحو اثني عشر ميلاً واستطاع المثيرون كشف ٤ ـ ٥ ذئاب تبعتها خيولنا بلا كلل اقتربت جداً من أحد هذه الحيوانات حتى كدت ألمسه برمحي الممدود إذ أن فرسي تعقبت هذا الهارب ككلاب الصيد ولذلك توجب علي أن أنتبه لهذه الأرض الخطيرة وأن أدير الفرس مراراً وتكراراً أحياناً في الوقت المناسب لتجنب التعثر بإحدى هذه الأكوام الرملية •

واستقر الرمح النحيل متوازياً تماماً في يدي وتباطأ الذئب نوعـاً ما وهذا ماجعل فرسي تقرب المسافة بينهما ؛ وبعد لحظات كنت فـوق هذا الوحش الأشعث الذي قفز ورأسه إلى الجانب وهو يرقبني بطرف عينه • وجعله مكره يحافظ على نفس المسافة بينه وبين قوائـم الفرس الأمامية وهي المسافة التي تجعله في منأى عن رأس رمحي • كلما حثثت الفرس على السرعة زاد هذا اللص العجوز الماكر سرعته بما فيه الكفاية للبقاء خارج نطاق رمحي • وفي النهاية ظننت أن الفرصة مواتية فسددت رمحي بضربة قوية وانحناءة من معصمي على كتف الذئب • ودفعت بكل قوتي لأنني متأكد من إصابته •

خدش رأس رمحي جلـد الذئب بالفعل ولكن الشيطان العجـوز المراوغ نجا مني وابتعد عن الخطـر هارباً • وانغرس السهـم بقوة في الأرض وقذفني ــ كما لو كان عصا للوثب ــ عاليـاً إلى الهواء انشقت قصبة الرمح إلى أربعة أجزاء وسقطت على رأسي على الحصى القاسي بجانب فرسي التي سقطت على ركبتيها • لحسن الحظ كان الضرر الذي أصاب كلينا بسيطاً لم يتعد انكشاط جزء من البشرة ولذلك اعتليت ظهر فرسي ثانية •

انضم الشيخ طي إلى مجموعة الفرسان المتفرقـة التي أتتني اليها بعد أن اصطاد بسهمه أحد الذئاب • رمى سهمه جانبا وتناول بندقية آلية من أحد المثيرين وجرى في إثر الذئب الذي طاردته لمنعه من الهرب وبطلقة واحدة هشّم إحدى قائمتيه الخلفيتين • انقلب عدة مرات وسقط على الأرض وهو نعض قائمته المكسورة حتى أنهت الطلقة الثانية حياته •

رمى الشيخ طي عدة حفنات من الرمال فوق الدم المراق حسـب ماتقتضي عادات الصحـراء لأن الدم محـرم • فتح فكي الحيـوان

الميت وأشار إلى أنيابه الشريرة قائلاً : « إننا قريبان لأن الآثار التي يخلفها هي نفس الآثار التي أخلفها » .

وبعد بعض الوقت في نفس اليوم رأينا عن بعد أثناء جرينا مابدا لنا بأنه بعض صيادينا يطاردون الذئاب باتجاهنا ولكنهم لم يحركوا . ظننت أنني رأيت جياداً بدون فرسان تتطلع إلينا ورؤوسها مرفوعة . ولكن الشيخ طي ضحك وصاح قائلاً بأنها ليست جيادا وليسوا فرساناً بل هي حمير وحشية . لم أستطع أن أصدقه في البداية لأن الحيوانات بدت عالية القوائم .

أوضح لي الشيخ بأن للمجموعة قائد وتأكد ذلك عندما هربت هذه الحيوانات الجفولة . لم نطارد هذه الحيوانات واختفت في منطقة جبل سنجار النائية .

الآن أسرعت الظلال الخاطفة أمام جيادنا عبر السهل بعد أن كانت تشكل من الأعلى . إنني أعرفها منذ الغزوات القديمة في قلب الجزيرة العربية . إنها « الشريك في القنص » ظللّتُ عيني بيدي وتطلعت إلى السماء حيث كانت الصقور الكبيرة تجوب الفضاء على أجنحة ساكنة . إنها تعرف جيداً هدف مسيرتنا وهي متأكدة من وليمتها على الذئاب ... . ارتفعت سحابة غبار كبيرة في الأفق وتحركت نحونا . إنهم ... الذين تقلصت نصف دائرتهم باستمرار أثناء اقترابهم منا . ... أفزعوا مئات الغزلان التي هربت بجانبنا لكن الشيخ طي ورجاله ... يصطادوا سوى بضعة غزلان سمينة من بينها .

أثناء صيد ذلك اليوم طاردت مجموعتنا خمسة عشر ذئبا قتلت ... سبعة ذئاب أحدها قتل غزالين صغيرين لاتزال بقاياهما متناثرة .

هربت الأم في البداية ولكنها عادت ووقفت بجانب البقايا تصرخ كما تفعل الغزلان • لم أستطع تحمل صيحات ذلك الحيوان الحزينة فأنهيت حياتها برصاصة الرحمة إنها الغزال الوحيد الذي قتلته في حياتي لأنني لم أستطع حمل نفسي على قتل هذه المخلوقات الرشيقة الجميلة • وحل المساء قبل أن تصل مجموعة الصيادين المثقلة بالقنص إلى المخيم • بعد صيد الذئاب ثلاثة أيام وصل أحد عبيد مشعل بن فارس زعيم البدو الشمر يحمل لي دعوة من سيده لزيارة قبيلته التي تخيم جنوب جبل سنجار •

كما أرسل لي أيضاً كهدية عباءة بنية ذهبية كالتي يلبسها الشمر في حايل والغرض من ذلك أن تكون العباءة دليلاً يضمن لي رحلة مأمونة يكون خلالها عبده دليلي •

بدو الشمر وبدو طي أعداء دائمون ومراعيهم ــ خصوصاً الآن ــ مناطق يعتبر التجوال فيها مسألة خطيرة ولذلك فإن تأمين سلامتي إلى مخيمه عمل ذو كياسة واهتمام خاص من جانب الشيخ العجوز •

في اليوم التالي ودعت بدو طي • لسوء الحظ لم أستطع تقبل الفرس التي قدمها لي الشيخ طي كتذكار لاضطرارنا للسفر بالسيارة • ولكني تقبلت هديتين نادرتين جديرتين بالتوارث • الأولى منهما هي جرن قهوة قديم تحتفظ به عائلة الشيخ طي لعدة أجيال • هذا العربون على محبته وصداقته (كما قال) ملفوف بهدية تساوي الأولى في القيمة وهي عبارة عن ثلاث قطع من القماش الأسود المطرزة بصورة فنية بخيوط الفضة وآيات من القرآن الكريم بالكتابة العربية • إنها قطع من ستار الكعبة أحضرها أحد أجداد الشيخ طي من مكة قبل سنوات كثيرة •

ورغم تدوري من قبول مثل هذه الهدايا الثمينة إلا أنني أحجمت

عن ذلك • قال الشيخ طي : « إننا أخوة كالذئاب • اللـه معك • ليقد الله خطاك في المستقبل إلى مضاربي حتى أقابلك ثانيــة ! » ؟

وبعد وداع هذا الرجـل النبيل الرومانسي الحماسي سـرنا فـي سيارتنا القديمة لخمسة أيام بمحاذاة سفوح جبل سنجار وزرنا مخيمات القبائل الصغيرة المختلفة وحصلنا على وقود للسيارة من مشايخهم •

في هذه الأيام كلهم تقريباً يسلكون السيارات وأثناء ترحالهم يحملون كميات كبيرة من الوقود معهم على ظهور الجمال •

وأخيراً وصلنا إلى السهل الكبير الذي يجري عبره طريق القوافل التاريخي القديم من دير الزور الى الموصل وبغداد وهناك وجدنا مراكز شمر المتقدمة وهناك أيضاً افترقنا عن ابراهيم • دفعت له بسخاء وأرسلته الى حلب مع « نعامته البرية » راضياً سعيداً •

وهنا أيضاً هطلت الأمطار وحوّلت السهوب الصفراء القاحلة إلى مراع خضراء خصبة • واستعار دليلنا جمال ركوب لبقية الرحلة مـن مجموعة شمر الصغيرة ووصلنا مخيم مشعل بن فارس في اليوم التالي • يقول العرب عن مشعل : « لايمكن مقارنـة أية سحابـة به لكرمه • » وعليّ أن أقول أيضاً أنني قلما قابلت مثل هذا الرجل في الايثار وطيبة القلب •

توقفنا خارج خيمته وترجلنا • لكم أضرمت نيران الضيوف تحت هـذا السقف الذي صبغه الدخان وفي تلك الخيمـة التي ربّت ثلاثـة أجيـال •

وقف الشيخ الكهل عند المدخل ورحب بنا بعبارة البرية المقدسة :

« السلام عليك ! » وأجبته بطريقة الصحراء « ليحفظك الله ! » • وبعدها أخذ مشعل بن فارس عذار فرسي وعلّقه على عمود الخيمة الرئيسي وقال إنه أراد التعرف عليّ حالما سمع بأن أجنبياً يحب الخيول العربية يزور طي • شكرته على دعوته الرقيقة • لاحظت ماهو أكثر من الكياسة في طريقة مخاطبتي • من الآن فصاعداً سواء كنت معهم شخصياً أو بعيداً عنهم فلي الحق بالاستمتاع بمزايا القبيلة •

مشعل بن فارس ــ شيخ عشيرة شمر العظيم ــ الذي يقدّره الجميع في كل أرجاء الصحراء لاستقامته المطلقة ذو تأثير مهدىء في السياسات البدوية في كل من العراق وسورية وقد وصفه لي أحد العرب « رجل لا أعداء له • »

بقيت ضيف مشعل لعدة أسابيع • واستطعت ــ برفقة ابنه نايف أن أتفحص عدداً كبيراً من الخيول العربية لدى عشائر شمر المختلفة • وقد سرّني جداً حصان صقلاوي ــ شيفي عمره سنتان ومن أنقى السلالات • وفي أحد الأيام سألت سكرتير الشيخ عما إذا كان بإمكان الشيخ أن يبيعني هذا الحصان • تناهى إلى سمعي أن الشيخ رفض بيعه بمبلغ ثمانمئة ليرة ذهبية إلى سلاح الفرسان الفرنسي • وعلمت من خبرتي الطويلة أن الخيول العربية الأصيلة نادرة تماماً ولذلك فهي غالية جداً • ونظراً لأصالة الحصان فإن العرض الفرنسي لم يكن بالتأكيد مرتفعاً عندما يتذكر المرء أن البعثات العسكرية الأجنبية ومربيّ الخيول دفعوا في الصحراء مايصل حتى ثلاثة آلاف ليرة ذهبية ثمناً للأحصنة الأصيلة •

طلبت من الكاتب أن يعرض طلبي على الأمير ويدفع حتى مبلغ ألف ليرة ذهبية كما أعلنت عن استعدادي لتقديم الهدايا المعتادة للكاتب والعبد

الذي ربى الحصان منذ ولادته • في نفس اليوم جلست مع مشعل وابنه نايف وأصدقائه حتى ساعة متأخرة من الليل • وعلى ضوء نيران الخيمة أريتهم صور الجياد العربية ومن بينها الجياد والافراس التي اشتريتها من مجموعة خيول ابنة السيدة آن بلنت في انجلترا لمزرعة في كاليفورنيا •

وسأل مشعل : « هل تعلم أن اللورد بلنت ووالدي فارس أقاما أخوة دم قبل خمسين سنة إنه ـ مثلك ـ أحب فرسان السباق لدينا المعروفة بسرعتها وقوة احتمالها أو « شاربي الريح » التي وهبها الله لجدنا اسماعيل » •

ولم يقل الكاتب ولا أي شخص آخر أية كلمة حول الحصان ولم أتجرأ على الطلب ثانية لأنني تصورت أن مشعل مغرم بهذا الحصان الصغير •

وأتى يوم رحيلي• تبادلت مع الشيخ بعض عبارات الوداع الرسمية • انتحى بي جانباً وطلب مني الجلوس معه عند أقصى وتدمن أوتاد الخيمة • بعد بضعة دقائق من الصمت أخرج وثيقتين من حافظة جلدية وقال : « لاحظت منذ مدة أنك أحببت المهر الصقلاوي • إنه أفضل حصان في سلالتنا وإنني لسعيد أن أقدمه هدية لك حتى تتذكر صداقتنا وخيولنا النبيلة • خذ معك الحصان ولاتذكر أية كلمة شكر أو أي ثمن حتى تعش هذه الذكرى صافية في قلوبنا • » •

فأجبت « أحسن الله إليك يامشعل بن فارس ! إنني سأفارقك بهذه الذكريات البهيجة • » ماذا أستطيع أن أضيف جواباً على كلماته البسيطة؟ من أعرف البدو الذين يسرهم الكرم والأكثر من ذلك فإن مشعل رجل

غني جدا . فإليه « يعود » ليس فقط الشمر في شمال الجزيرة بل إنه يملك بالفعل ٦٩ , قرية وأراضيها المزروعة على ضفاف الخابور . ولم يكن بوسعي إلا أن أرجو الله ان يمنحني الفرصة في يوم من الأيام للتعبير عن شكري الجزيل لمشعل بطريقة خاصة .

إحدى الوثيقتين التي قدمها إلى الشيخ كانت صك إهداء وعربون صداقته والأخرى تسلسل نسب الحصان ونهض واقفاً وأخذ بيدي لأسلك طريقي ومشينا سوية مسافة طويلة في الصحراء . لم ينبث ببنت شفة ولم أحاول قطع هذا الصمت وتسمرت عيناي على صورة الحصان القوي الذي يقوده أمامنا نايف وأحد العبيد . وبحيويته ورشاقته وخطواته المتبخترة بدا لي الحصان الرمز لهذه الأرض القفر الرومانسية .

عندما تجاوزنا بعض الرجال على ظهور خيولهم وقف المهر ساكناً وكل جسمه متوتر ورقبته مقوّسة ورأسه شامخ . بدأ صدره يرجف عندما بدأ يصهل بنغمات خفية طويلة .وتراقص ذيله المرتفع فوق عجزه كشلال ماء . إنه بالتأكيد يعادل في جماله تلك الخيول التي ـ حسب الرواية البدوية ـ **أمسك بها اسماعيل** في صحراء النفود . إنها تسمى منذ القدم كحيلان بسبب الاطار الأسود حول العينين والذي جعلها تبدو كما لو صبغت بالكحل .

وأخيراً طلب الشيخ من المرافقين لي أن يتوقفوا . نظرنا إلى الخلف ـ مشعل وأنا ـ فرأينا المخيم في البعد . وضع الزعيم العجوز يديه على جبهة الحصان لمباركته وقال لي « سميت حصانك عامود لأنه اسم قومي . لترافقك رحمة الله إلى الأبد ! » ثم قبّل وجنتيّ وحافر الحصان وعاد أدراجه إلى خيامه .

وقد أمر آمر دير الزور بترجمة الوثيقتين ومهرهما بخاتمه الرسمي . إحدى الوثيقتين التي تحمل خاتم مشعل تذكر أن السير ولفردس . بلنت صديق لفارس باشا الجربا ونذكر أنني صديق مشعل العزيز وتشهد أنه قدم لي الحصان الصقلاوي الشافي حباً بي . والوثيقة الثانية تسجل سلالة الحصان وهي تبدأ وتنتهي بآيات من القرآن الكريم والحديث وابيات الشاعر امرؤ القيس . إنها تحمل أختام شيوخ شمر الثلاثة : مشعل بن فارس وحسن العامود وشاشان بن مسيول ــ الذين يشهدون بخصوص الحصان مايلي : « إنه صقلاوي ونحن نشهد أمام الله أن المهر شافي ومولود من صقلاوي ــ شافي من نفس السلالة وأن الجد الأصلي صقلاوي وكذلك فرسه صقلاوية ــ شافية بقيت سلالتهما أصيلة ومشهورة بيننا نحن العرب . »



الفصل الخامس والعشرون

كلمة الشرف بين البدو

استطعت في النهاية اتخاذ الاجراءات لنقل المهر من دير الزور إلى مصر عن طريق حلب وبيروت • إنها رحلة هائلة لأنها تمت مشياً على الأقدام • واستطاع الشخص الذي رافق الحصان ــ على مراحل بطيئة ــ تسليمه بحالة جيدة إلى صديقي في مصر •

في تلك الأثناء تجولنا ــ علي وأنا ــ في المنطقة ووصلنا إلى مراعي العدعان الذين كانوا قد خيموا في السفح الشمالي لجبال بشري غرب الفرات • وهناك أيضاً انتصبت خيمة **محجم بن مهيد** الذي أحسن استقبالنا فقضينا معه أياماً سارة . قاد قبيلته بعدها باتجاه الجنوب حتى منطقة الوديان شرق الحماد رافقناهم عبر جبل بشري وخيمنا معهم جنوب هذه التلال • هناك قررت أن أودع ابن مهيد وطلبت من علي أن يشتري ثلاثة جمال قوية وفرسين وبرفقة علي وفوق ظهور هذه الحيوانات عبرت صحراء الحماد لأصل الرملة ثم الى دمشق • في اليوم الأول التحقنا بقافلة صغيرة مؤلفة من أربعة رحال وحوالي عشرين جملاً وستة جياد •

من هذا الخليط فقط (لأن البدو لا يركبون الجياد للغزو) اتضح لنا أنهم مسافرون مسالمون • إنهم في الحقيقة تجار جمال من قلب الجزيرة العربية اشتروا الجمال والخيول الفتية من مختلف القبائل

البدوية حول الفرات ، ومثلهم موجود في كل مكان في الجزيرة العربية ومصر وسورية والعراق • وفي معظم الأحوال يأتون من بريدة وعنيزة وهما مدينتان كبيرتان في واحة القصيم في قلب الجزيرة العربية في فصل الربيع يتجول هؤلاء التجار بين البدو الرحل ويقايضون الرز والسكر والنقود والأسلحة والذخائر والذهب بالجمال والخيول • بدأ البدو يبيعون الخيول منذ وصول السيارات التي أخذت مكان الحصان لأغراض الحرب •

هؤلاء التجار يسافرون بأمان في الجزيرة العربية ويدفعون لشيخ القبيلة التي يشترون منها الحيوانات مبلغاً ضئيلاً للسماح لهم بمتابعة اعمالهم • كل تاجر يتعامل مع قبيلة خاصة يسافر إليها كل عام •

في اليوم الثاني عندما وصلنا بعض ماء المطر المتبقي في الحفر الصخرية في أحد الأودية قررنا ان نستريح لفترة من الوقت ونترك خيولنا تشرب حتى الارتواء • لم نكد نترجل حتى ظهر فجأة بدويان على ظهر جوادين • قفز علي على ظهر فرسه في الحال وهجرنا وحيواناتنا وأسرع في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي أتى منه البدويان ليبحث عن غطاء على مايبدو •

صاح علي وهو يبتعد: « غزو ! » كان البدويان الغريبان مسلحين ومن الواضح أنهما لم يكونا تاجرين كما أدرك علي على الفور • وظهر فرسان آخرون وبدؤوا يطلقون النار عليّ وعلى عليّ • انحنى المدافع « القوي » فوق رقبة فرسه فبدا صورة مضحكة • كان البدو والعدوانيون من الفدعان كما استنتجت من عباءاتهم المخططة • وبدا دفاعنا عن أنفسنا عديم الجدوى لأننا محاصرون • رميت بندقيتي على الارض وخفضت ذراعي وكفيي نحو الخارج أمام الفرسان الغزاة :

أنني لا أنوي المقاومة وعندما اصبحوا في مجال السمع صحت قائلاً: « إننا ضيوف ! إننا نسافر في حماية شيخكم وأخينا محجم بن مهيد ».

ولكن القائد ورجاله لم يبدوا أي اهتمام بل أمسكوا بي وبعلي (الذي قبضوا عليه بسهولة) وضربونا لأننا لم نخلع ملابسنا بسرعة كافية وعندما جردوا علياً من ملابسه صاح قائلاً : « أليس عندك شفقة وأنت تسلب أصدقاء شيخك على هذا الشكل ؟ » اكتفى الرجل بالضحك والقول بسخرية : « لا أعرف عمن تتحدثون . إننا لا نعرف أحداً وتركنا الشفقة لله وحده » . صاح علي : « ستكون مسؤولاً عن هذا العمل ! عليك بالاسراع بإعادة متاعنا وخيولنا وجمالنا وابعد يديك عن صديقي وضيف سيدك ! » . وكرر علي ذلك . رمى الزعيم الثوب الذي كان يفتش جيوبه وأمسك ببندقيته وضرب علي بعقبها ضربة على قفا رأسه جعلته يسقط كالميت وبقي على هذه الصورة جامدا على الارض . لقد استثار انفعال الفدعان الوحشي وهكذا استمر يكيل الضربات والركلات للجسم الملقى على الأرض .

قفزت على هذا الوحش وحاولت إبعاده ولكن أحد رفاقه ضربني ببندقيته على ظهري فتمايلت وقبل أن استعيد توازني عاجلتني ضربة قوية كادت تكسر ذراعي . وهذه الضربة نفسها أصابتني على الرأس بقوة جعلتني أفقد الوعي . لابد أنني بقيت كذلك لعدة ساعات وعندما استفقت كان المساء يختفي في أوائل الظلام ووجدت نفسي ملقى على الرمل مجرداً من كل ملابس . لحسن الحظ لم يكن النهار حاراً لأن الطقس كان غائماً ومع ذلك شعرت بالإرهاق وبأن رأسي يؤلمني وكذلك ذراعي . إن الضربة خدشت عضلات ذراعي فقط ولكنها أصابتني بجرح بليغ فوق الصدغ ، وعلى مقربة مني تمدد علي على الأرض وقد افزعني

أنه بدا كالميت ، ورغم حذري تمايلت حتى وصلت إليه شكرت اللـه أن عليا حي وقادر على السير ، لقد أصابه من الفدعان أكثر مني ولكن نفسه روحه بدأت تعود إليه فقال : (لقد اخذوا مني كل شيء ماعـدا قملهم اللعين وبدأ بحك جسمه العاري مؤكداً أنه غادر حلب نظيفاً ، قلت له وأنا أصخك : « إنها الحروق الشمسية التي أصابتك بالحكة وليست حشرات أصدقائنا . » .

لاحظت في الظلمة أن ناراً تشتعل خلف أحد المرتفعات الأرضيـة على بعد مئات من الأمتار فاستنتجت أن الفدعان يخيمون هناك . كان علي ضعيفا جدا لايقوى على السير معي فاتجهت وحيداً الى النار وعندما اقتربت تعرفت على الفدعان وهم يجلسون حول موقد القهوة فصرخت « دخيل ! » قفز أحد البدو وجهز بندقيته للاطلاق ضاغطاً مشط الطلقات الى داخل البندقية الرافعـة بقوة . وبصورة لاارادية أغمضت عيني وترنحت عندما سمعت صوت العقيد (القائد) يأمر الرجل بألا يطلـق النار لكن الصدمة القوية جعلت ركبتيّ تنهاران وسقطت على الأرض . فأتى إلي العقيد الذي أنقذ حياتي وبيده قربة صغيرة من جلد الماعز مليئة بالزبدة وجعلني أتناول بضع رشفات منها فشعرت بالتحسن في الحال . عندها قادني الى النار وقدم لي بعض القهوة فشعرت من تلك الاشارة أنني أصبحت الآن في حمايتهم .

طلبت منه ملابسنا وأراد أن يعيدها لي لكن الآخريـن احتجوا وتذمروا فاكتفيت بعباءتين باليتين وضعت احداهما على كتفي وعدت إلى علي بالأخرى وبقربة من الزبدة وبعد أن شرب بعض الزبده ساعدتـه وعدنا إلى مخيم الفدعان .

سمح لنا الفدعان بالجلوس بينهم وقدموا القهوة لعلي أيضاً واتضح

لنا أن مهاجمينا طيبون • فلو لم نبدأ الجدال عندما باغتونا لكانت النتيجة أفضل • وشعرنا الآن بالأمان كما لو كنا في كنف ابراهيم الخليل •

أثناء حديثنا في تلك الليلة تذكرت رسالة الأمير فواز الى هاجم باشا تلك الرسالة التي احدثت القلاقل المثيرة في حلب سألت العقيد : « هل تقرأ العربية ؟ » وعندما أجاب كما توقعت « كلا » تابعت قائلاً: « إذن ألا تعرف على الأقل توقيع شيخكم وخاتم الأمير فواز ؟ » ولم يستطع القائد أمام رجاله أن يقول لايعرف ذلك أيضاً لذلك طلبت الحافظة التي يحملها علي والتي تحتوي على الرسالة والكنوز الاخرى•

أخذ الكل يصغي باحترام إلى علي وهو يقرأ الرسالة بحكمة ـ الأجزاء السارة المهذبة منها وترك إضافاته وتعلقت عيون الأوغاد بشفتي علي وشربوا كل كلمة خرجت من بينهما•وعندما انتهى من قراءة الرسالة وتقبل التوقيع والخاتم احتشد الرجال حوله وتفحصوا تلك الوثيقة المذهلة بفزع ونظراً لجهلهم بالقراءة أمسكوها بالمقلوب •

بدا العقيد قلقاً وتشاور مع الآخرين لبعض الوقت وبعد الكثير من الايماءات والغمغمات التفت إلينا وأمطرنا بوابل استجواباته السخيفة • وفي النهاية اقتنع بسوء معاملتهم لنا وأمر رجاله بأن يعيدوا لنا متاعنا وبالطبع تسبب ذلك في تمرد بسيط لكن العقيد يعرف كيف يشعر رجاله بسلطته وبعد أن انتهى كل منهم من احتجاجاته على هذا العمل المخل" بالشرف وتقاليد الغزو أعيدت الينا كل ممتلكاتنا باستثناء ساعتي التي بقيت في يد العقيد لاحظ علي ذلك فصاح بكل جرأة قائلاً: « لقد لطخت شرف شيخك فاذا كنت صديقنا فجرد نفسك من حوائجنا • » فأعاد العقيد الساعة التي وضعها علي في يده وقال لي ـ بلهجة دفاعية : « دعني أعتني بها من أجلك » ولايزال يعتني بها حتى يومنا هذا !

بلغ عدد مضيفنا الفدعان سبعة عشر فارساً وثمانية جماله وصلوا الى المكان بعد مهاجمتنا • إنهم عصبة من قطاع الطرق الصحراوية السودجيين • عند تناول وجبة العشاء فرشوا غطاء شداد جلدي كبير كنا نعجن عليه في السابق وأحياناً كنا نستخدمه كعليقة ومنهل للجياد والجمال لأنه بالامكان تعليقه من الحلقات الجلدية الموجودة في أركانه •

حسب العقيد ابن جسان من قربة من جلد الماعز في وعاء خشبي وقدمه الى كل فرد بدوره • كانت الذئاب تربض بالقرب منا ونار المخيم ترمي عليها وهجها الأحمر وتذوب ظلالها الطويلة في ظلمة الليل وقد تصورت نفسي محاطة محاطا بحيوانات خرافية ضخمة •

عندما أغمضت عيني سمعت شخير وتجشؤ رفاق المائدة ولم أميز بينها وبين اجترار الجمال الا بصعوبة بالغة وكان شخير وتجشؤ علي علاها جميعاً •

وفي الصباح اقترح الفدعان الانضمام إلينا لدخول منطقة الرولة بسرقة بعض الجمال ولم يكن بوسعنا — علي وأنا — سوى قبول هذه المقترحات المرفوضة • كان علينا أن نتحمل صحبتهم على أمل مقابلة بعض بدو الرولة في مكان ما •

بعد يومين خيمنا عند **بئر الجمل** حيث سقينا جمالنا وخيولنا حفر أحد الفدعان حفرة في الأرض وفرش فوقها جلد شداد أحد الجمال وصببنا ماء البئر الى هذا المنهل العملي البسيط • بعد أن سقينا حيواناتنا بدأنا رحلتنا في حوض وادي الحجل الجاف • كنا نعبر سهلاً بين فرعي الوادي عندما سمعنا فجأة أصوات رصاصات تصفر فوق رؤوسنا •

انعطف الفدعان فوراً للابتعاد عن مدى الرصاص ولكنهم لم

يحجموا في ذلك إذا أتبع مهاجمونا الكثيرون وشبه الظاهرين ـ طلقات
الانذار بنيران كثيفة جندلت أربعـة من الهاربين في بضـع ثوان ، ولما
وجدوا الهروب مستحيلاً والقتال يائساً توقفوا واستسلموا للفـود
المتقدمة من ركاب الجمال . وخرج من الأرض أكثر من مئة منهم أمـام
أعيننا الحائرة . وقع الفدعان في الكمين لأنهـم أهملوا إرسال مجموعة
استطلاع أمامهم .

عرفت على الفور أن القادمين الجدد من الرولة ، صحيح أن قبيلة
السبع تعرف المنطقة جيداً ولكن الرولة فقط هم الذين يغطون الحقـل
بهذا العدد الكبير من جمال السباق . السبـع مثل الفدعان يفضـلون
الجيـاد .

صاح (منان) قائد الفدعان الذي اعتراه الهلع « ليكن الله معنا . »
إذ ظن أنه هالك لامحالة وأن لي كل الحق في انتهاز هذه الفرصة لمعاملته
بالمثل ولكنني طمأنته بقولي « لقد عقدنا سلاماً معكم وسأقول لقائـد
هؤلاء الرولة أنكم بالفعل شملتمونا بحمايتكـم حتى نصـل بأمان الى
مراعي أصدقائنا . سأطلب منه أن يسمح لك ولرجالك بأن تخيموا هذا
المساء بأمان مع الرولة . » أجاب قائد الفدعان بسرور : « إنك تخفف
عني وأقسم لك أنني أعدت لكم كل شيء . » ولدهشتي رأيت في يـده
الممدودة بوصلتي الثمينة التي ظننت أني فقدتها .

واقترب الرولة يتمايلون على ظهور جمالهم النحيلة يتقدمهم فارس
يمتطي فرساً حمراء . ويغطي وجهه بكوفيته حتى لا أرى سوى عينيـه
عنـد التلاقي ووصلني صوتـه المخنوق : « مـن أنت ياراكب الفرس
الزرقاء ؟ » وجواباً على سؤاله كشفت عن وجهي وقلت : « إنني أسلمك
نفسي وأضع كل هؤلاء الرجال (مشيراً الى علي والفدعان) تحت حمايتك

باسم أخي وزعيمك الأبر فواز أيها العقيد ! » • ودفع الرولي قدميه في جانبي الفرس مما جعلها تندفع بانفعال وجعل مــن الصعوبة بمكان أن يسيطر عليها راكبها • خلع كوفيته واندهشت عندما رأيت الأمــير فواز نفسه ولكنه غاضب جداً • قال لي الأمير : « ابتعد ياأخي كي لايكون نمك مسؤولاً عن أعمالي • لقد حاصرت ـ كالنمر ـ هؤلاء الفدعان الكلاب الذين يتجرؤون على النباح في مراعي الرولة • »

كان الأمير فواز غاضباً تتملكه نوبة القتال الشعلانية • جر عباءته التي تدلت على عجز فرسه وكشف عــن ساعديه وصدره ونقل بندقيته من يد ليد بينما أخذت فرسه تطفر تحته • بدت المناقشة معــه عديمة الجدوى وكل ماأستطيع القيام به هو اللجوء الى شرفه البدوي فقلت له: « هؤلاء الرجال الذين تراهم امتنعوا كلية عن سفك الدماء • ورافقوني واثقين من أنك ستمنحهم الحرية والامان من أجل الصداقة القائمة بيني وبينــك • » •

لم يكن لدى الشيخ الشاب كلمات جوابية ولكــن عينيه تكلمتا ببلاغة مؤثرة • إنهما ممتلئتان بالحقد والغضب الجامح • وغالباً ماأدار فرسه المسكينة حولي ونفسه نهب للعاصفة المكبوتة في داخله • وأخيراً تمكنت منه أن يكبت غضبه وأن يكون صادقاً مع نفسه • وفجأة توجه إلى جماعته راكبي الجمال الذين انتظروا على مسافة منا • وشعرت بثقتي القوية أن نوبة غضبه قد انتهت وأن أصحابي الفدعان في أمان • ورغم ذلك لم يكن بوسعي إلا الإعجاب به • كان بالامكان أن يقول لي : « حسن ياعزيزي أنك عزمت على حمايــة هؤلاء الفدعان قاطعي الطرق »

---

(١) الريدبتر •

ولكنني تلفظت بعبارة « دخيل امام الله » في طلبي ولم يسمع هذا الطلب أي إنسان سواي وسواه ولكن الله سمعه وهذا ملزم للبدوي حتى ولو كان قائد عصابة سلب ونهب •

وأكدت للفدعان أن الأمير فواز قد قبل حمايتهم وجاء التأكيد الفوري لذلك عندما رأوا فرسان الرولة يترجلون ويبدأون بإقامة الخيم وبدأ الفدعان بدورهم بذلك ولكنني مراعاة للمراسم بقيت معهم طيلة هذه الفترة • وجاء الأمير فواز بصحبته بعض رجاله وجلس قرب نار مخيم الفدعان • ولم يكن باستطاعة أحد أن يخمّن من سلوكه أن متاعب قد حصلت • كان هادئاً تماماً وشكر أعداءه على مرافقتي وحمايتي في رحلتي •

وبعد أن أتمت القهوة دوراتها المعتادة ذكر الفدعان خسائرهم • كلفتهم نيران الرولة فرسين وذلولين وعلى الفور أعلن فواز أنه سيعوضهم بستة من أفضل ذلله • لم يكن مضطراً للتعويض أبداً ولكن شهامة الشيخ العربي تحتم مثل هذا الكرم •

وعندما تفرقت هاتان المجموعتان المتنافرتان في صباح اليوم التالي احتاط الأمير فواز للأمر بضم أحد حراسه العبيد إلى الفدعان لكي يتأكد من وصولهم إلى أول هضبة في أبي رجمين خلف منطقة الرولة •

الفصل السادس والعشرون

((سرقة الفرس))

لم يحضر الامير فواز رجاله إلى وادي الحجل من أجل قتال الفدعان المراد إذ ان المواجهة معهم كانت عرضية . كان الغرض من غزو الزولة استعادة فرس أصيلة كانت قبيلة السبع قد سرقتها قبل وقت قصير . إن فلحا (او جالبة الحظ كما يسمونها) من إحـدى أفضل السلالات في الجزيرة العربية ومشهورة في المنطقة كلها . وعندما علم فواز بأخذهـا ارسل مناحي إلى قبيلة السبع بعرض قدره أربعون جملاً مقابل استعادتها وهـو ثمن كبير للفرس ولكن قبيلة السبع رفضت العرض . والبديل الوحيد لاستعادة (فلحا) عن طريق الشراء ـ كما تعرف قبيلة السبع ـ هي استرجاعها بالقوة وأخبرهم فواز مقدماً بمقصده هذا لكن لم يصل إلى حد إعلان الحرب لكنه تحد فرساني واقتضت قواعد اللعبة التفاهم الضمني بألا يسفك دم من الجانبين .

وتقصت عيون الأمير فواز وجود الفرس في مخيم من مخيمات قبيلة السبع في الجوار واستطلعوا المنطقة بدقـة . اكتشفوا أن جمال مخيون السبع وبينها فلحا ترعى تحت حراسة بضعة فتيان في انهدام يبعد عدة أميال عن المخيم الرئيسي الذي قوامه حوالي سبعين خيمة . هـذا الوضع أرضى فواز من ناحيتين : إنـه سيسهل تنفيذ خطته في استعادة

فرسه بالحيلة وأكدت افتراضه بأن السبع لم يحسبوا حسابا لاحتمال غارة الرولة بهذه السرعة لأن القليل من المطر هطل في تلك المنطقة مما يجعل السفر صعباً • ربما فكروا أن الرولة لن يغامروا إلى هذا العمق من الحماد حتى وقت لاحق عندما تصبح المراعي والماء وفيراً • من الواضح على أي حال — في الوقت الحاضر — أن حراس فلحا شعروا بالأمان • وبالاضافة إلى ذلك إذا حدثت أية مناوشات فسيكون القتال بعيداً عن خيام السبع لأن البدو النبلاء يعتبرون قتال العدو قرب خيامهم بربرياً • إنهم يعتقدون أن الأتراك والافرنج (الأوربيون) وحكام المناطق الزراعية في الجزيرة العربية هم وحدهم الذين يحاربون بهذه الطريقة التي تعرض نساءهم وأطفالهم للخطر •

حالف الحظ مخططات فواز من البداية إلى النهاية — هدمنا المخيم في الصباح الباكر وبعد بضع ساعات كنا نحاصر المرعى الذي ترعى فيه خيول السبع •وتمت الحركة كلها بهدوء ودون الاحتكاك بالأعداء • ولكن مراكزهم الأمامية رأت قواتنا الآن فحاولوا التملص منا لنقل الأنباء إلى المعسكر • قبض فرسان جمالنا بسهولة على الهاربين الذين توقفوا عندما أطلقت فوق رؤوسهم بضع رصاصات واستسلموا دون إبداء أية مقاومة • كانوا مجرد فتيان تتراوح أعمارهم بين /١٤ و ١٦/ سنة • وبدعابة فظة قص ّ الآسرون بعض ضفائر الفتيان الطويلة وربطوهم بها يداً وقدماً• إنها إهانة رهيبة لهؤلاء الفتيان الأباة الذين يثنون غالبا « قرونهم » الستة أو الثمانية كما يسمي البدو هذه الضفائر •

حوالي منتصف النهار وصلنا الانهدام الذي ترعى فيه الخيول • إنه منظر خلاّب : السماء زرقاء وشمس الربيع البراقة دافئة وبهيجة والجو مليء برائحة الأعشاب النتية العطرة • انتشرت الجياد والجمال ترعى بهدوء والرعاة الناعسون غافلين تماماً عن حضورنا حتى ظهر فرسان جمالنا

فوق حافة الانهدام . عندما أدركوا مايحدث ، كرهت أن أفسد تكاسلهم اللذيذ وأسفت ـ فوق كل شيء ـ لخيول السبع التي ستساق فجأة من مراعيها البهيجة .

رفعت الأفرسة رؤوسها بتضوث عندمـا نهض الرعيان بعـد أن استفاقوا من قيلولتهم بانزعاج وبدأوا يتصايحون محذرين . ونجـح بعضهم في حلحلة قيود جيادهم الصوفية وقفزوا فوق ظهورها وهربوا . لكنهم كانوا قلة وقد تم أسر اثنين أو ثلاثة منهم في النهاية .

أصبحت خيول السبع متسلسلة عندما بدأ فرسان الرولة يجرون حولها ونظراً لأن قوائمها الأمامية مقيدة فلم يكن بامكانها سوى القزل بعجز . وأخيراً حرّر رجالنا حوالي عشرين جواداً ومن بينهم فلحا ـ تلك الفرس الحمراء مقصد بحثنا . كانت فلحا مقيدة بأغلال حديدية بدلاً من الحبال الصوفية كان الأمير فواز قد أحضر معه مبردين تحسباً لمثل هذا الحدث وقد فرح جداً لرؤية فلحا ثانية لأنها تساوي بالنسبة له وللرولة أكثر من بقية الجياد مجتمعة . بدأنا بالتناوب قطع القيود الحديدية بالمبردين كل رجلين معاً . عندما انتهينا من العمل قبل الأمير فواز حوافر فرسه من الفرح .

عندما شعرت فلحا بحريتها بدأت تطفـر وتصهل بينما أنا ممسك برسنها ـ طلبت من الأمير فواز أن أربطها إلى شداد جملي حتى أقودها إلى المخيم فأجاب « اركبها ! » وقال إن علينا أن نركب الجياد المأسورة حتى نبتعد قدر الإمكان عن العدو في أقصر وقت ، وهكذا قفزت على ظهر فلحا وعدوت مع رفاقي إلى حيث ينتظرنا فرسان الجمال مع الأسرى .

أسر الرولة مامجموعه ثلاث وعشرين فرساً وعندما ودعنا رعيـان السبع تقدم أحدهم ـ وهو شاب صغير ـ من الأمير فواز وصاح قائلاً :

« عيب ! » فسأله الأمير فواز : « من أنت ؟ » أجاب الشاب : « جزا بن عجلان » وسأله فواز : « ماذا تريد ؟ » أجاب الشاب . « انظر ! بالدموع فقط أستطيع أن أسقي فريحا عندما تبعدها عني ولن ترضع ثانية حليب نجا وسيحا ونوما كما أن بناتها سيحزنون عليها • » وتفهم الأمير فواز حزن الشاب على فرسه المفقودة فسأله : « كم يبلغ عمر سيحا ونوما ؟ » فأجاب « سيحا عمرها صيف واحد ونوما صيفان ولكن انظر فريحة مهرة صغيرة » فسأل الأمير : « ولذلك تريد استرجاع أم مهراتك ؟ » فأجاب الشاب : « ليس لهذا السبب فقط بل لأن من العيب أن تسرق الأفرسة المقيدة بالصوف من مرعانا • » وسأل الأمير : « ألم أحذركم بشرف ؟ » فرد الشاب : « صدقنا كلامك بخصوص فلحا فقط ولذلك قيدناها بالفولاذ بينما كل الأفرسة الأخرى مقيدة فقط بالصوف • » ونظر الأمير فواز بإمعان في البعد ثم أخذ يداعب ضفائر شعره كما هي عادته • وبعدئذ لف احدى ضفائره على سبابته ونظر في عيني الشاب السبعي مباشرة وقال : « إنك جريء ولكنك تقول الحق ولست غاضباً منك • الآن فهمت لماذا قيدت فلحا لوحدها بالأغلال الحديدية ولذلك فسأكافيء صدقك • » أمر فواز رجاله الترجل عن الأفرسة المأسورة وإعادتها الى السبع • كما أمر مناحي أن يأخذ الضفائر التي قصوها من رؤوس فتيان السبع من خرجه حيث وضعها كتذكار ويرميها • قال فواز : « الله كريم ! انظر إلى عزيز • في البداية يأتي في غزوة ضدنا ثم نأسره والآن يعود إلى المخيم ممتطياً أفضل أفرستنا • والتقط علي ــ الحامي الشجاع الذي يقف إلى جانبي ــ الدعابة : « ليسمح لي الأمير فواز أن أقول أن على المرء أن يراقب عزيز جيداً والا هرب بفلحا الى أعدائكم • » قال فواز « الله يقويه ! إنه يركب مع النسور والصقور ! » وعدل ذلك علي قائلاً : « مع الأسود • »

ورغم إظهارهم الابتهاج فقد استطعت أن ألحظ أن الدولة تأثروا

وهم يرون السبع يركبون الخيول المأسورة ولكن لم يشك أحد من عمل الأمير الشهم لأن الكرم سيد الفضائل بين البدو .

وهكذا بدأنا مسيرتنا الطويلة إلى المخيم وبعد أحد عشر يوماً وجدنا أنفسنا نستريح تحت سقف منزل نوري الشعلان المضياف .



الفصل السابع والعشرون

العنقا ــ الصقر

أغنية الباز داز

انهض يا أخي
دعنا نذهب للصيد مع السلوقيات الجائعة
ضع الصقر الجريء على قبعتي المكسوة بالقفاز
أحضر كلاب الصيد المربوطة .
واسرج ذلولي الرائع
واربط فرسي السريعة إلى حزام الشداد .
تلك الفرس الأصيلة .
دعنا نركب ثانية .
مع بنات دمنا
مع قطعاننا المتجولة وقبيلتنا
مع زعيم قبيلتنا
وأصدقائنا الأعزاء
إننا نركب اليوم مع الأغنية البهيجة
إلى البرية المضيافة

ولازب الصيد صاحبنا بصوت مسرور
والفرس بصهيلها المتكرر
لن أكلّ أبـداً من مراقبة
الطيران الرائع للصقر المختال .
عندما يتنكب الريـح
وحيث تنظر عيناه الذهبيتان
الفريسة التي ستمسك بها مخالبه القوية .

وصلت طلائع حرس الرونه المهاجرين إلى منطقة البرك المطرية في خربه سرفيا التي حمل المراسلون الاخبـار منها عن اعواصف الرعديـة وبذلك كان من الطبيعي أن تتوقع في تلك المنطقة لوجود القنص بأعداد كبيرة وقام الأمير فواز بالترتيبات الفورية لرحلة صيد عظيمة مع صقورد

ولمدة يومين قبل رحلة الصيد لم يقدم للصقور والكلاب أي طعام وبدت الكلاب النحيلة الجائعة المستلقية بين سيقان الجمال أنحف مـن المعتاد وتذمرت الصقور الجائعة تصيح بصوت مرتفـع وقلق كلما مرّ بقربها أحد . وغطاها العبيد الآن بأغطية صغيرة حمراء أو زرقاء أو سوداء أو خضراء . هذه الأغطية الجلدية الجميلة مزينة بخيوط فضية وذهبية .

في صباح اليوم الموعود عندما تجمع الصيادون ركب الأمير فواز فرسه العربية . وكشف أحد عبيده دوغان عن صقره المفضل . وصاح فواز بالصقر على بعد ستين خطوة فاستعد الطائر بعد أن عرف صوت سيده . وحرّر دوغان الصقر من قيده الذي أمسك به بيده التي ترتدي القفاز فارتفع الطائر على الفور وطار كالسهم إلى الأمير وحطّ على ذراعه الممدودة ثم غطّى فواز الصقر ثانية .

قال لي الأمير فواز : « هذا هو العنقا ــ الشهاب • إنه ينقض من الأجواء العليا ويقتل خصمه أثناء انقضاضه • يستطيع الطيران في الأجواء العليا بنفس الاطمئنان الذي ينزلق فيه فوق سطح الأرض • سترى اليوم ما يستطيع العنقا أن يفعل • »

وانطلقنا بإشارة من الأمير فواز • وصاح « السوّاطون » على الكلاب بأسمائها « شلّة . سطحة . طرفة . الخ • وحرّرت الكلاب من قيودها عندما تخطينا آخر خيمة ولم يعد هناك خطر من أن تهاجم الكلاب الذئبية وكلاب الحراسة وكلاب الرعاة كلاب الصيد النحيلة وتمزقها إرباً إرباً •

وحمل إثنا عشر عبداً من عبيد الأمير صقور الصيد المعمّاة والمغطاة كالمعتاد • كما حمل أقارب الأمير ووجهاء الدولة صقورهم على أفرستهم بعضها محمول على معاصم الرجال المرتدية القفاز وبعضها ــ في الحقيقة معظمها ــ محمول على جلود الخراف المفروشة على عجز الخيول كالعادة عندما يذهب البدوي للقنص •

اشتملت فصيلة مثيري الطرائد على أكثر من ثلاثمئة راكب جمل وحوالي مئتي راكب فرس وبدأت تنتشر يميناً ويساراً لتحاصر الطرائد وتدفعها نحو مركز صفنا • وجرت جيادنا المحاطة بكلاب الصيد فوق السهل الفسيح في جو الصباح المنعش • وخفقت قلوبنا من الانفعال • إنه سيكون يوماً سعيداً ومحظوظاً كما تنبأ كل عرّاف استشاره فواز خلال الأيام الماضية •

وجرى الأمير الشاب بجانبي وعلى قبضته المرفوعة جلست العنقا بغطائها الجلدي الأحمر المطرز بالخيوط الذهبية وفي قمته لؤلؤة جميلة

وبدلاً من العينين تبرق على الجانبين زمردتان ثمينتان . صاح فارس قائلاً لي : « إنني أحب بيد الحرب ولكن كم أحب أن أشرب أيضاً حليب القنص . أليس الصيد أخاً للحرب والطريدة فارساً مجندلاً ؟ »

شد العنان وشددت عنان فرسي أيضاً لكي ندع مجموعة الصيادين تتجاوزنا . إنها مجموعة فرسان رائعـة على ظهور الجياد والجمـال والصقور متوازنة (وأجنحتها ممتدة) على معاصم الفرسان وأعجاز الجياد الجارية . العباءات وأعراف الجياد والذيول والضفائر والكوفيات وجلل الأسرجة والحواشي والشرابات المتطايرة في الهواء . وامتزج صـراح الرجال بهدير الحوافر وصهيل الأفـراس وصيحات الصقور ونبـاح الكلاب .

وجريت مع الأمير فواز ركبة بركبة . ولمحت العيون الحادة مالك الحزين يحلق أكثر فأكثر إلى الجو رغـم أن مالك الحزين قلما يُرى في هذه المنطقة من الجزيرة العربية . ربما كان هذا الطائر في طريقـه إلى مستنقعات جنوب العراق . وأضحى الأمير كله انفعال فصدرت عنـه صيحات قوية وصاح بنشوة : « يا عيني ! ياخطّافي ها هي طريدتك ! » وأثناء جريه حاول بأصابع مرتجفة إزاحة غطاء الطائر وقيده وأضاف : « يالمحة البرق ! ياسيف السماء ! . »

كان الأمير مغرماً جداً بهذا الصقر . إنه صقر في طرح ريشه الخامس وهدية من بن خليفة شيخ البحرين الذي حصل عليه من بدو جبل شمر مقابل فرس ثمينة . وبعد نزع الغطاء والقيد هز فواز العنقا الى الأعلى والأسفل على معصمه ثم الى الجانبين . وصاح به : « افتـح جناحيـك السريعين . » وبخفقات متراخية من جناحيه وصيحات قعقعاته ارتفـع الطائر في الجو . وشددنا الأعنة غريزياً نريد مراقبة المشهد في البدايـة

اندفع الطائر نحو الأعلى ولكن بعد فترة انقضّ وطار مسافة طويلة فوق الأرض دون أن يبدو عليه أنه يعير أي اهتمام لمالك الحزين .

لم يكن بوسع المرء سوى الافتراض أن الطائر استمتع بامتداد طيرانه وانزلاقه ودورانه قرب سطح الأرض . وبعدئذ حلّق العنقا باندفاعة جريئة وحركات لولبية واسعة أكثر فأكثر إلى الجو وبخفقات قصيرة نشيطة من أجنحته طار فوق مالك الحزين وتجاوزه . وفجأة استدار العنقا وبجناحين مطويين انقضّ على الطائر الكبير وانطلق بجانبه بانحرافة سريعة واستخدم سرعة انقضاضه لتحليقٍ آخر أوصله إلى وجه الريح وموقع أعلى وأكثر فائدة . وهنا قام بعدة دورات وراقب لفترة من الوقت ثم استقر في نقطة واحدة دون حراك كنجم في السماء

راقب فواز طائره المدلل وصاح بسرور : « الآن سترى مالك الحزين يسقط بين مخالبه كما تسقط السمكة في شبكة الصياد . »

واستمرار استقرار عنقا الساكن في السماء . هل كان يختار أفضل مسار لانقضاضه القاتل ؟ وفجأة خفق بجناحيه مرة واحدة وانقضّ بجناحين مطويين وساقين مضغوطين قرب جسمه واندفع بسرعة هائلة نحو الأسفل كالقذيفة . ومع ذلك رأى مالك الحزين الاندفاعة في الوقت المناسب لقياس سرعته والهروب بجناحين يخفقان بسرعة . وفي الحال خفف الصقر من اندفاعته وبحركة لاتكاد ترى من جناحيه غيّر اتجاهه وفي الحال بدأ الصقر يصيح في إثر مالك الحزين . وأخيراً في تحرير نفسه من جناحي مالك الحزين الخطير وتسديد الضربة القاتلة من مخالبه التي تشبه السكين . ولا يستطيع تحرير نفسه في اللحظة المناسبة سوى الصقر الخبير بالصيد .

وارتفع الصقر الذكي ثانية في الهواء بينما جسم الضحية يسقط على

الأرض بصوت مكتوم • ثم صرخ ظافراً فوق عـدوه المجندل واستدار نحو الأعلى كنا فورة مستقيسة ليعود إلينا بدورة رشيقة • صفرت الريح في ريشه عندما انقض قرب رؤوسنا • وصاح فواز بسرور مخاطباًصقره: « عنقا أيها الشهاب : ياخطّاف ! يا عيني ! » بدأ الصقر العريض الصدر الملطخ بالدم يسجع بسرور كما لو أنه فهم مديح سيده وبمخالب مسدودة وريش منتشر حط برقة على قبعة سيده المرفوعة وعندها أخذ فواز يلمس برقة ريشه المنفوش • وكما لو كان الطائر سكراناً بالدماء أخذ يتمايل ثم نفش ريشه وصقله ثانية ونظر بعينيه السوداويين المحاطتين باللون الذهبي والحاجبين الرماديين • إن العنقا مخلوق شيطاني ولص حقيقي ولكن تاج البز درة بين الرولة يعود إليه بلا أدنى ريب •

ومقابل اشتباكه الجوي الرائـع كافأه العبيد بطيهوج حي كان أحدهم قد أمسك به • قتل الصقر الفريسة بتمزيق حنجرتها ثـم انتزع الجناح والتهمه حتى يصل إلى الرئتين والقلب • ثم مزق وأكل أقوى عضلات الصدر وترك الباقي دون أن يلمسه •

وجرى أحد الفرسان نحو سلوقيين يجـران مالك الحزين الميت وأخذه منهما ثم انتزع ريشات التاج الجميلة وقدمها للأمير فواز •

في هذه الأثناء كان المثيرون يجفّلون الأرانب الوحشية والطرائد الصغيرة الأخرى • لم تكن الصقور المستعملة لمثل هذه الطرائد الصغيرة من صنف العنقا الممتاز • فالأرانب الوحشية التي بدت يائسة توفـرت لديهـا وسيلة للدفاع خطيرة على مهاجميها في الأرض التي تستطيـع الالتصاق بها والتي يمكن أن تنحني عليها بسرعة • أحد هذه الصقور دق عنقه لأنه انقض إلى مستوى منخفض وأعطب آخر جناحيه لدرجة أنه لم يتمكن بعدها من الطيران • ولكن بالرغم من ذلك كلـه كانت معظم

الصقور على درجة من الذكاء كافية لقتل الارانب بعرس مخالبها ...
اضلاعها إلى الرئتين • وبعد كل قنص يضطر الصيادون الى الاسراع
ورمي عباءة فوق الصقر لمنعه من أكل فريسته قبل ذبحها بالطريقةالشرعية
للذبح لأن اللحم الذي لم يخرج منه الدم محرّم كطعام إنساني •

كما أن الكلاب أطلقت في إثر الأرانب أيضاً ولكن زوجياً : أحد
الكلبين يطارد بينما يقاطع الآخر هروب الأرنب في اتجاه آخر • ولكن
اصطياد الأرنب لم يكن عملاً سهلاً وقد يضطر الكثير من الكلاب للقفز
في الهواء عندما يستدير الأرنب فجأة •



الغزال الصغير

ترك احد الصقور مكانه بين مجموعة الصيادين المتقدمة وطار إلى الخلف . ناداه الصيادون مهددين ولكن عبثاً . وانطلق كالسهم قرب رقبة فرسي مما جعلني عفوياً أميل عن السرج لتجنب الاصطدام به. استدار في لحظة وحط بالقرب مني فشددت العنان وأخذت أراقب. وبديه المنشور على الأرض كان الصقر يصارع أفعى بمخالبه ويضرب بمنقاره رأسها المراوغ التفت الأفعى حول الطائر بتشنج ولكنها لم تستطع ان ترتفع فوق ريشه . وفي النهاية أمسك الصقر برأس الأفعى وخلعه ببضع حركات دائرية . توقف عدد من الصيادين أيضاً لمراقبة قاتل الافعى أثناء العمل وعندما انتهى الصراع وابتدأ الطائر بأكل فريسته صاح به أحدهم بلهجة الآمر : « ياسهيل ! » أطاع الطائر النداء وترك ضحيته وطار إلى قبضة الصياد الممدودة وعندما بدا على وشك الاستقرار عليها انحرف فجأة واندفع نحو الاعلى وابتعد كحجر قذف بمقلاع . حام الطائر للحظة في الجو ثم اختفى عن الأنظار إلى الأبد .

وصاح أحدهم ضاحكاً : « الشيطان ! » .

وعلّق فواز : « إنه شيطان حقاً ! قليل من الصقور يمتلك مثل هذا البصر والأقل هو الذي يمتلك مثل هذه الروح . من حسن الحظ أنه

يفنس عن أليف . ونرجو الله أن نجد صغاره في يوم من الأيام ! » أغوى نداء القفر سهيلاً واستجاب لهذا الدافع في دمه .

وحثّ البدو أفراسهم إلى الأمام بصيحات عالية وتسابقوا مرة أخرى . ورغم أن الوقت مازال مبكراً في هذا اليوم فقد انتهى القنص لأن حرارة الشمس تعتبر ضارة بالكلاب والصقور .

أصدر الأمير فواز أوامره بالتجمع وتقدمنا جميعاً إلى مكان المخيم المتفق عليه سابقاً حيث وصلت الجمال المحملة بقرب الماء بعد فترة . كنا على بعد سبعة أميال تقريباً عن مخيم الرولة بخط مستقيم ولكننا قطعنا ثلاثة أضعاف تلك المسافة بمسيرتنا المتعرجة .

وبعد جمع الحطب حضّرت القهوة وشويت الأرانب والحباري . وتجمع الفرسان من كل الاتجاهات على جياد لاهثة وتجمع الرجال في حلقات حول النيران الصغيرة . وتقاطع المثيرون الذين يركبون الجمال جالبين معهم صيداً وفيراً من الطيهوج والحباري والأرانب والثعالب والغرير والغزلان وتكدست كل الجثث على الأرض قرب الأمير فواز والشيوخ الآخرين .

وسقيت الخيول الثلاثون بعد أن استراحت لفترة ولكن الكلاب المتعبة اللاهثة رُشّ الماء في أفواهها على الفور.ووضع البزاة صقورهم في أواني الطبخ المملوءة جزئياً بالماء حيث فرشت الطيور المغبرة ريشها ثم سوّته بمناقيرها . واستراح الفرسان وهم يرشفون القهوة ويتحادثون .

وقف بجانبي صقر أحمر مكتمل النمو أسيراً على مجثم أفقي . كان يرفرف بجناحيه محاولاً الهروب ولكن الرباط الجلدي القوي أمسكه بثبات . كان هذا الصقر قد أسر قبل يومين فقط وكان حاجباه

مايزالان مخيضين معا كعادة البدو مع الصقور المأسورة حديثاً • وقد أحد ر دوغان ـ العبد المسؤول عن الصقور ـ هذا الطائر البري ليعتاد على الركوب •

عند المساء أرسل فواز بعض الفرسان لمخيم القبيلة (لأن الرولة كانوا في مرحلة الهجرة) ليتأكد من مكان نصب خيمته وبعد العشاء وفي ضوء القمر بدأ الجميع مسيرتهم تجاهها •

هذه المسيرة الهادئة في ضوء القمر أضيفت الى خبراتي الرائعة • سرنا جميعاً على مهل منتشرين في مجموعات صغيرة أو كبيرة بينما مناحي رئيس حرس الأمير الخاص يضبط الايقاع بالأغاني البدوية التي بدت في البعد على صيغة « بو ـ هو ـ لو ـ وو • »

وعندما كنا نصعد احدى التلال تخيلت أن الأرض انتهت خلفها • توقعت دائماً أن أجد هو مظلمة وبحراً مضيئاً ونوراً متغيراً ونجوماً تبرز من الأعماق •

وبالفعل ظهرت الأنوار عندما وصلنا قمة أحد المرتفعات ولكنها أنوار المخيم الحمراء التي غطت السهل بأكمله • إنه معسكر الرولة يمتد أمامنا في ضوء القمر الواهن : صورة سحرية قصة من قصص الجنيات في الصحراء • وتناهت الى مسامعنا الهمهمات البعيدة التي أضافت لمسة حقيقة الى عالم الخيال •

وصل الجميع ـ موجة من الفرسان يغنون ـ تلاشت في ظلال الخيام السود • ترجلنا وربطنا خيولنا إلى حبال الخيام ودخلنا الخيام لنجلس حول نيران بعر الجمال • بعد منتصف الليل انفض الجميع وعدنا الى خيامنا • يعشق البدو الأسمار الليلية وعندما لايكونون على طريق الهجرة يرتاحون أثناء النهار استعداداً لهذه الجلسات الليلية الطويلة •

وتمددنا فوق فرشاتنا الجلدية لعدة ساعات قرب النار لأن الليـل بارد جداً • ولم نكد ننام حتى حان وقت الاستيقاظ ثانية لكن الظـلام مازال سائداً • ونهضت الهياكل الملفوفة واقتربت من الجمر المتوهـج تدفىء يديها وتتناول قطع الاغصان المضيئة لتشعل سجائرها •

وصدرت الصيحة « انهضوا ياأولاد ! » سارع العبيد الى الجمال ففكوا وثاق ركبتها الصوفي وركلوها أو ضربوها على الجوانب•ونهضت الذلل واحداً واحداً وأسرجت في الظلام • أما الجياد فقد تركت لتركب فقط اثناء المطاردة ولذلك قدناها معنا مقطورة الى الجمال كالعادة •

وانقلب الفجر الى صباح ذهبي مشرق • وفوق السهل في البعد بدا كل شيء نقياً وشفافاً حتى في أقصى نطـاق النظر • انتعشت أرواحـنا وتنبّهت مداركنا • واستبدل الصيادون الجمال بظهور الجياد عندمـا اقتربنا من **برك خبر مرفيا** التي اتجهت نحوها آثار كثير من الغزلان• وانتشر المثيرون وسرعان ماأفزعوا قطيعاً من الغزلان ووجهوه نحونا •

وبدأ الصيد البري! كيف تطاولت خيولنا! كيف تطايرت الحوافر! وانتشر الصيد والصيادون فوق السهل وأفزع المثيرون قطعاناً جديـدة أمامهـم !

واقتربت مجموعة من الصيادين ــ كنت واحداً منهم ــ من احدى مجموعات الغزلان حتى أصبحت على مسافـة الرمي ولكـن الغزلان السريعة استطاعت التملص منا•واستمرت المطاردة أكثر من ساعة ولهثت خيولنا وارتجفت من الإنهاك واستطاعت بعض الغزلان من النفوذ عبر خـط الصيادين المتناثر •

وكشف الأمير فواز ورجاله عن رؤوس صقورهم واندفعت الطيور

المتحررة فتجاوزت الغزلان بسرعة مذهلة واختارت ضحاياها . في البداية طارت فوقها قرب سطح الأرض ثم اندفعت الطيور الى الأمام وآمسكت بالغزلان بين قرونها أو من رقبتها . وباندفاعات يائسة وانطلاقات جانبية حاولت الغزلان المذعورة الافلات من مهاجميها القتلة دون جدوى . وبعد ان أنشبت الصقور مخالبها في فروة رأس الغزلان أو في محاجر عيونها أخـذت تضرب بقوة باجنحتها ومناقيرهـا على أعـين الغزلان لتوقف اندفاعها .

تشددت عنان فرسي مذعوراً . مرت بجانبي غزالة عمياء ولكنها لم تستطع الافلات من مجموعـة الكـلاب التي تجاوزتها وأمسكـت بعراقيبها ولم تتركها حتى بعد أن انقلبت عدة مرات . ومـن سحابـة الغبار الثائر وصلني ثغاء وصياح وأنين الغزالة المصابة التي توقفت عندما سرع الصيادون ووضعوا نهاية لآلامها .

حامت الصقور فوق رؤوس الرجال والحيوانات وكلها مجنونـة بالانفعال ومتعطشة للقتل . وتمددت الغزلان الضعيفة على الرمل ترتجف في ساعاتها الأخيرة .

وقعت خمسة غزلان ضحايا للصقور والكلاب في الهجمة الأولى كما وقع واحـد وثلاثون غزالاً آخر ضحايا قبـل أن يقرر الصيادون الاكتفاء والعودة الى المضارب .

وكان أكثر قتالاً شرساً شاهدته هو الذي قام بـه غزال صغـير لتفادي الافلات من صقرين وإصابة أحد الكلاب بجرح بليغة ووصل مناً مؤقتاً . لازلت أراه بوضوح ولكن على مسافة بعيـدة وهو يقف متقفاً منتظراً . انحرف خط المثيرين المحسولين ليحصره وبدأ صيد الغزال

المسكين من جديد • ودعوت من كل قلبي أن يفلت هذا المقدام نيائياً ولكنه بدا منهكاً •واقترب فرساننا أكثر فأكثر وعندما وصلوا الى مسافة الرمي انطلقت ثلاثة صقور نحو الغزل فلحقوا به خلال لحظات • وبدأنا نرقب من جديد الصراع اليائس •

واتفق الرولة على أن هذه المعركة ستخوضها الصقور لوحدها دون مساعدة الكلاب وجرى فرساننا يصيحون خلف الغزال الهارب • لم تكن المسافة أكثر من طول مائة حصان ولذلك استطعنا أن نتابع بوضوح صراعه مع الصقور الثلاثة واقتربنا أكثر من ذي قبل : ينحرف الغزال فجأة ويرمي نفسه على الأرض وينقلب في الهواء ثم يعود ثانية منعطفاً الى اليمين واليسار • لم يكن من السهل على الصقور التغلب على سيد فن الدفاع هذا • ربما لم يكن صراعه الأول مع صقور الصيد الرهيبة •

هذه الصقور أيضاً كانت فنانة بطريقتها الخاصة • بالرغم من دهاء الغزال استطاع اثنان من الصقور الإمساك برأسه ورقبته • وسرعان ماعلت فوق لهاث الخيول ووقع حوافرها صيحات استحسان الصيادين • لكن هذه الصيحات لم تكن لمدح الصقور بل الغزال الباسل الذي توقف فجأة وقفز في الهواء كالسهم وبنفس الاندفاع الشديد رمى نفسه على الأرض وانقلب وبدفعة شديدة من رأسه غرس قرنيه الصغيرين اللذين يشبهان الخنجر في الأرض وقام بعدة قلبات أرى في الهواء فأعطب أحد الصقور وجرح الآخر حتى الموت وسحق الثالث الذي أمسك به للحظات قليلة • وبدا كما لو أن الغزال لن ينهض ثانية وأن كل عظامه الدقيقة قد تكسرت •

حدثت هذه المعركة كلها بسرعة البرق • ونيض الحيوان اليائس

على قوائمه ثانية واندفع هارباً من جديد قبل أن يدرك المرء ماحدث .

وخوفاً من أن يضيع الغزال أطلقت الكلاب في إثره ولكن بعد فوات الأوان . جرت الكلاب لفترة من الوقت في إثر سحابة الغبار الصغيرة التي سبقتها ولكن بطل اليوم اختفى في البعد البراق .

وصاح الصيادون على كلابهم «ياإيشلي ! ياإيشلي !» وهو صرخة البدوي التقليدية لجمع كلابه .

لم تكن مسيرة عودتنا مرحة كسيرة خروجنا في الصباح . الكثير من جيادنا أخذ يعرج ولكنها مضطرة لحمل ليس فرسانها فقط بل جزءاً كبيراً من غنائم الصيد وعددا من الكلاب المصابة فوق كل ذلك .

وعندما لاحظت بعض روث الصقر على عباءة الأمير فواز حاولت إزالته ولكن الأمير الشاب أوقفني باعتزاز وقال : « لا ! لا ! ياعزيز . إن روث الصقور النبيلة يدفعنا بخاتم الأصل العريق » .

وفسرّت كلماته أكثر من أي مفهوم . لدي المعنى الخفي لرحلات الصيد هذه . إنها تعتبر عريقة ومشرفة . وعراقة الصحراء (سعة عينها كما يقول البدو) لابد من اختبارها وتجربتها ولكن كما أن البدو عريقون وواسعو العين فكذلك خيولهم وجمالهم وكلابهم وصقورهم ولايقل عن ذلك طرائدهم من غزلان ووعول ونعامات .

ولكن العرب الرحل يكرهون الوضاعة في الإنسان والحيوان لأنه يعتبرهم خارج نطاقه وخارج نطاق الصحراء ...

« ... يموت لكي تتمتع بحياة جديدة

لأن مايموت هو الضعيف

لكي يحيى القوي » .

الملحـق ـ آ (*)

العربي وحصانـه

« خلق الله الإنسان الأول من الطين ولكنه خلـق الحصان مـن الريـح ـ مثل عربي » .

هذا الملحق عن العربي وحصانه يجب بالضرورة ـ نظراً لتشعب الموضوع وطوله ـ أن يتخذ الى حد ما ـ شكل الملاحظات المتناثرة . ولكن المؤلف يأمل أن تكون مفيدة لعشاق الخيول .

لم يكن بوسعي أن أكتب عن الحصان العربي دون تذكر ثلاثـة أسماء ستبقى مشهورة دائماً لصلتها بحصان الصحراء :

١ ـ السيد دارلي الذي كان في يوم من الأيام القنصل البريطاني في حلب والذي يعتبر حصانه العربي الشهير (منـاق) أساس حصـان السباق الأصيل .

٢ ـ الليدي آن بلنت التي حافظت في انجلترا على دم الحصـان العربي الأصيل .

(*) يود الناشر أن يعلن أن النظريات التي تقدمها كارل رضوان في هذا الملحق فيما يتعلق بالأنساب المختلفة الحصان العربي هي من عندياته ويجب ألا تؤخذ على أنها متطابقة مع نظريات قبائل وسط الجزيرة العربية التي تربي الخيول والذيـن أخـذت عنهم الليـدي بلنت معلوماتهـا التي لاتتطابق معهـا .

٣ ـ السيد و . ك . كيللوغ من كاليفورنيا الذي أنجز في أمريكا ما قامت به الليدي آن بلنت في انجلترا . وكما حدث مراراً في الماضي في حوالي أواخر القرن السابع عشر اضطر العرب الرحل ـ بدو نجد (في جوار صحراء النفوذ) ـ إلى ترك ديرتهم في قلب الجزيرة العربية . اضطرت سنوات متعاقبة من الجفاف والجوع عدد من القبائل أن يرحلوا ـ بحثا عن مراعي أفضل ـ الى البريةالقصوى فيشمال البرية العربية. احدى هذه القبائل هي الفدعان ـ وهم جزء من العنزة ـ التي عبرت بقطعان جمالها وخيولها الهضاب التي تمتد من دمشق الى ضفاف الفرات قرب دير الزور .

كان هذا تطوراً ثوريا في الحياة القبلية في أواسط الجزيره العربية ولكن الرحيل الكبير لبدو العنزة وشمر الى المراعي الشمالية في سورية والعراق حدث فجأة وامتد حتى الفرات الأوسط وبوابات دمشق وفي حالة الفدعان حتى ضواحي حلب .

السيد دارلي الذي كان في ذلك الوقت القنصل البريطاني في حلب رجل رياضي ذو مزايا استثنائية وبصيرة وحدسية مغـرم بحب الخيول ومهتم بحياة هؤلاء البدو الغريبة الذين ظهروا في البرية لقضاء أشهـر الصيف في هذه المناطق الشمالية بعيدين أكثر من ألف ميل عن مراعيهم التقليدية في جوار المدينتين المقدستين مكة والمدينة .

أصبح السيد دارلي صديقاً لشيخهم وذهب للقنص مع زعيمهم العجوز والصقر على معصمه والكلاب السلوقية حول أفراسهم. واكتسب معرفة دقيقة بالحصان العربي النادر وأكثر من ذلك تعلّم مزاياه . تجاهل من عنده الأنواع المثلثة والطويلة القوائم وسجل خصائص سلالة المعنقي الشبيهة بكلاب الصيد أي نوع حصان السباق . وجد حصاناً أصيلاً

محلاً يميل الى الصغر ولكنه كان يعرف أن بالامكان مزاوجته بنجاح مع فرس كبير لإنجاب ذرية بحجم الأم لا بحجم الأب • ولذلك لم يبحث عن فرس وانما اختار الحصان مناق (وهو بالتأكيد معنقي ـ طويل الرقبة) وشحنه إلى انجلترا في عام ١٧٠٥ • استلم اخوه أثمن الخيول الشرقية التي أتت الى أوربة ضمن العصور التاريخية • ولكن حصان دارلي العربي (هذ الفحل مناق) لم ينجب تشيلدرز الطائر الى بعد مضي عشر سنوات ولم ينشر المجلد الأول من كتاب الخيول الانكليزية الا في عام ١٨٠٨ ولكن الجهود المنظمة بذلت منذ حصان دارلي العربي لجمع شجرات الأنساب والسجلات والمحافظة عليها •

إن نشوء حصان السباق الانجليزي الأصيل يقوم تاريخياً وبالأساس على ثلاثة أحصنة شرقية : الحصان التركي بيرلي (الذي ينتسب اليه هيروت) حصان دارلي العربي (جد الكليبس) وغودو لفن بارب (جد ماتشرين) • كما أن شجرات أنساب الخيول العادية أيضاً ترجع الى تشيلدرز الطائر وهو أسرع حصان سباق في زمانه لأن بليز ابن تشليدرز الطائر هو الذي تزاوج مع فرس من نور فلك في عام ١٧٥٥ وأنجب شاليز وهو أول حصان عادي نموذجي •

وبعد مرور حوالي مئتي سنة تقريباً على استيراد الفحل الشهير بواسطة هذا النبيل الانكليزي نجد سيدة انكليزية وزوجها السيد ولفرد سكادن بلنت تقوم في عام ١٨٧٩ بأغرب رحلة شهر عسل يمكن تصورها قال عنها المقيسون « يالها من رحلة غريبة ! » وقد هزتهم من الأعماق •

لكن الليدي آن بلنت أكنت للحصان العربي حباً خالصاً فقامت بهذه الرحلة الى نجد الى قلب الجزيرة العربية المجهولة كرحلة حج

مقدسة • عبرت صحراء النفوذ ذات الرمـال الحمراء ـ ومهد الجنس العربي ـ ووصلت الى جبال شمّر وحايل عاصمة ابن الرشيد •

ثم بدأ الليدي آن بلنت هذه الرحلة لتكرر عمل السيد دارلي • لم ترغب في أن يحلّ الحصان العربي محل هـذا النوع أو ذاك الذي أوجد لأغراض خاصة • لم يكن الحصان العربي ليصبح منافساً للحصان الانكليزي الأصيل الذي يعتبر أعظم حصان سباق في العالم • كانـت تريد إنقاد سلالة الحصان العربي النادر حتى ينجب خارج جزيرة العرب نوعه الخاص وميزاته الخاصة من صحة وقوة واحتمال وجمال •

كان الحصان العربي الأصيل في طريق الانقراط ليس لأنه لم ينجب او بسبب القتل بل لأن سلالتـه اختلطت باستمرار وتزايـد بالتزاوج العفوي حتى بين البدو الرحل في الصحارى الداخلية •

الحصان العربي دائماً مصدر اهتمـام جمالي ـ عمل فني لاتقـل قيمته عن روائـع الرسم والنحت والشـعر التي لن يسمح لها العالـم بالانقراض عن رغبة • وليس من قبيل الجسارة أو التحدي اسباغ الكمال على الحصان العربي • هذا المخلوق أكثر من المخلوقات الأخرى التـي نوّعها الانسان يتمتع بجمـال روحي وجسماني يأسر روح الإنسان • ولكن فوق هذه القيمة العاطفية استقر في ذهن الليدي آن بلنت مشروع يجعل هذه السلالة النقية ذات أعراض مفيدة • قررت إيجاد مزرعة خيول عربية في انكلترا وأخرى في مصر وجعل المزرعة المصرية «صلة وصل» بين الصحراء وأوربا •

أرادت الليدي آن بلنت إنقاذ السلالات الأصلية آخـذة بعـين الاعتبار بنية الحصان العربي ومظهـره الخارجي وسلامته ولـم تكتف

بالنسب وشجرة العائلة لصعوبة الحصول عليها ولأن الوثائق المطلوبة بشأن نسب الخيول العربية لاتعطى إلا عند الطلب ، والسجلات لاتوجد إلا في ذاكرة مربي الخيول وعائلاتهم • وبدلاً من ذلك حاولت الحصول على اجمل النماذج وأندرها ذات النسب النقي كالنمر أو الوعل واعتبرت (كما يفعل البدو) أن التزاوج ضمن السلالة ـ عند الضرورة ـ وحتى تسامح العربي سيكون أفضل اختبار لنقاء سلالة الخيول العربية •

بعد عودتها من نجد أوجدت أشهر مزارع تربية الخيول في العالم: واحدة في كرابت بارك قرب ثري بريجز في مقاطعة سيكس والأخرى في الشيخ عبيد قرب القاهرة في مصر • ولم تكن رحلتها الى قلب الجزيرة العربية الرحلة الوحيدة التي قامت بها في بلاد البدو إذ أنها ارتحلت لمسافات كبيرة طيلة حياتها في صحارى شمال الجزيرة العربية وسورية والعراق رغم أنها قضت معظم أوقاتها في مصر وأرسلت مبعوثيها الى الجزيرة العربية وبقيت على اتصال وثيق مع كل مربي الخيول العربية المشهورين في روسيا وألمانيا وهنغاريا وفرنسا وأمريكا والهند واستراليا اشترت الخيول العربية من كل قبيلة بدوية أصيلة تقريباً ـ الرولة ، السبع ، الفدعان ، العمارات ، ولد علي شمّر ، مطير ، عتيبان وعجمان ومن أمراء الجزيرة العربية ومن علي باشا الشريف في مصر وهو مربي الخيول « المتعصب المجيد » (كما يسمونه) •

وماتت « سيدة الخيول المحبوبة (كما سماها بدو نجد) التي ترددت على بيتها ومزرعة خيولها في مصر في عام ١٩١٧ خلال الحرب العالمية الأولى في مزرعتها في مصر • كان موتها ضربة عنيفة لمستقبل الخيول العربية • ولما كانت ابنتها الليدي ونتورث تعيش في انكلترا وعاجزة عن القدوم لاتخاذ الاجراءات الخاصة بتصفية هذه المزرعة شخصياً فإن هذه المزرعة الشهيرة في الشيخ عبيد بيعت بالمزاد العلني بقرار حكومي

وبعثرت مجموعة الخيول التي لاتقدر بثمن في اقطار الشرق الأوسط عند مالكين متعددين ، وتهدم تقريباً عمل الليدي آن بلنت الذي قضت فيه حياتها وكان بالامكـــان ان يكون الانهيار كامــلاً لولا مزرعتها في انكلترا . ورغم انني ارتحلت كثيرا بين قبائل بدوية كثيرة ورافقتهـــا في رحلاتها بحثا عن الخيول السامية وحصلت على مخلوقات ثمينة وصدرتها الى كل مزرعة تربية خيول عربية تقريبا خارج الجزيرة العربية وعملـــت بتربية الخيول العربية شخصيا ـ رغم هذا كله علي ان اعترف أن بعض اجمل الخيول التي حصلت عليها هي الخيول الأربعة عشر (من فحول وافراس وأمهار) التي حصلت عليها مـــن مزرعة الليـــدي ونتورث في انكلترا ، وشحنت هذه المجموعة الرائعة الى الولايات المتحدة لحســـاب السيد ر. ك. كيللوغ من باتل كريك في ميتشيغان وفي النهاية اهديت الى ولاية كاليفورنيا مع مزرعة السيد كيللوغ و ٧٩ حصانا عربيا آخـــر هبة سخية قدرها مئة وخمسون الف جنيه استرليني لتحويل المزرعـــة الى محطة تعليمية لتربية الخيول تحت رعاية جامعة كاليفورنيا . وبطل الخيـــول العربيـــة في العالـــم هو « شرير » الذي تملكـــه البارونـــة ونتورث (*) .

إن حلم وأعمال الليـــدي آن بلنت في رسالتـــها لانقاذ وتكريس

(*) بطل الخيول العربية في العالم هو (شرير) الذي تملكه الليدي ونتورث في مزرعة كرابت في انكلترا ويود الناشرون أن يعلنوا أن النظريات التي يقدمها كارل رسوان في هذا الملحق والمتعلقة بسلالات الخيول العربية المختلفة من عنداياته . يجب الا تعتبر متطابقة مـــع نظريات قبائل وســـط الجزيرة العربية التي تربي الخيول والتي حصلت منها الليدي آن بلنت على معلوماتها التي تختلف عن نظريات المؤلف .

سلالة الخيول العربية النقية خارج الجزيرة العربية قد تحققت • كما أن كرم السيد و•ك• كيللوغ وتضحيته الليدي وتنورث في السماح لمثل هذا العدد من أفضل خيولها بالذهاب الى أمريكا حققت شيئاً لايمكن تقييمه تقييماً كاملاً بعد ولكن الأجيال اللاحقة ستقدر ذلك بالتأكيد •

والعالم كله يثني على هاتين المزرعتين في امريكا وانكلترا لان الفحول والأفراس تشتري من هناك لتذهب حتى لبلاد المنشأ في الأردن وفلسطين ومصر كما تذهب الخيول الاخرى الى الهند واستراليا وجنوب آفريقيا وأمريكا الجنوبية والى كل مزرعة حكومية لتربية الخيول في آوربا • وأعرف الكثيرين من الفرنسيين والبولنديين والهنغاريين والاسبان والأمريكيين والاستراليين الذين زاروا بلاد الشرق الأدنى وشمال الجزيرة العربية والخليج العربي والاقطار العربية الأخرى بحثاً عن الخيول البدوية الأصلية ولكنهم عادوا وقد خاب أملهم وبعد زيارة المزرعتين في كاليفورنيا وانكلترا فرحوا كثيراً لتمكنهم من شراء الخيول العربية الأصيلة فوق الأرض الأمريكية والبريطانية •

أصبحت بريطانيا وأمريكا تعرفان بجنة مربي الخيول العربية لأن تربية الخيول هناك تتم بذلك الإخلاص والتفهم الكامل النابعين من الخبرة العملية لعدة أجيال • تتوجب المحافظة على مستويات الكمال بعد الوصول اليها • هذا هو سر النجاح في تربية الخيول في أي مكان وقد اعترف به مربو الخيول العربية والخيول الانكليزية ــ العربية والتهجينات الأخرى من السلالة « الصحراوية » •

والحقيقة المدهشة حول الفحول العربية ذات الحجم الواحد هي استعمالها عبر القرون الستة الأخيرة لانجاب أنواع مختلفة كالفرس القزم في جبال ويلز وخيول البيرشرون الفرنسية • تم العثور على فحل « مراكشي » في

سفينة قرصنة جنحت على صخور شواطىء ويلز كما تم جلب الحصان بأمان إلى الساحل واستعمل في مزاوجة الأفراس المحلية في الجبال • وحصان البيرشرون ــ وهو منافس لحصان شاير الضخم هو أيضاً وليد الحكمة البعيدة النظر • عقب معركة بواتيه الظافرة ــ عندما هزم رجال شارل مارتل العرب الغزاة ــ أسر فلاحو هذه المنطقة عدة فحول عربية وزاوجو أفراسهم الثقيلة مع هذه الخيول الرشيقة • ولم تفقد الذرية شيئاً من الوزن أو البنية أو الحجم • ولكن لو كانت خيول الغزاة افرسة وزاوجها الفلاحون إلى فحولهم الضخمة لفقدت هذه الخصائص •

ذكرت سابقاً حصان السباق الأصيل في انكلترا كما ذكرت الحصان العادي (للجر والأحسال) • وسلالات الخيول الأخرى الشهيرة التي تنتسب إلى الأصل العربي « المحلي » هي الأورلوف في روسيا والمورجان للهرولة في أمريكا وحصان الكنتاكي للركوب والبنتو والمستانغ والخيول الأخرى شبه البرية في شمال وجنوب أمريكا والحصان الأندلسي في اسبانيا والليبيزانر في النمسا وحصان الوارمبلوت الألماني في شرق بروسيا وهانوفر والحصان الهنغاري وغيره من الخيول • وأما الخيول التركية والفارسية والبربرية والسورية والمصرية وخيول بلاد الشرق الأدنى الأخرى (الشرقية) فهي ذات أصل عربي ولكن يجب ألا نخلط بينها وبين خيول صحراء الجزيرة العربية الأصيلة التي كانت وحدها العنصر الحاسم في إيجاد الأنواع الجديدة للأغراض الخاصة •

في الحقيقة وجدت هذا العامل مربكا عندما زرت البلاد العربية للمرة الأولى وتعرفت على الخيول في مراكش والجزائر وتونس وطرابلس

المغرب ومصر وسوريا والعراق وايران وآسيا الصغرى • كنت أفتش عن الحصان العربي الأصيل خارج الجزيرة العربية •

في طريقي من شمال أفريقيا الى الجزيرة العربية قبل أكثر من عشرين سنة وبينما كنت أقيم في الاسكندرية لبضعة أيام دعيت لزيارة (المنتزه) وهي اصطبلات خديوي مصر • سرّني جداً العدد الكبير لخيول الركوب وجرّ العربات ومعظمها من السلالات العربية ولكنني لم أجد أياً من الخيول العربية المثالية التي أعجبت بها في كتب الليدي آن بلنت أو في لوحات صالات العرض الأوربية والنحت القديم الذي يجسّد جمالاً نادراً في افريز البارثنون • أخبرني الضابط المصري الذي كان دليلي في هذه الجولة أن معظم الخيول في اصطبلات الخديوي سورية تربّت في الريف •

وأضاف الضابط قائلاً : « ولكني أخفيت عنك الخيول العربية الحقيقية لتستطيع المقارنة بينها وبين الخيول الأخرى • لدينا فقط من الصنف الأصيل هنا لأن الوقت متأخر بينما البقية نقلت بناء على أوامر صاحب الجلالة الى قصر القبة في القاهرة » • ومشينا على بناء من طراز الكشك المراكشي ولدى وصولنا قاد أحد السائسين نحونا فحلاً كستناوياً رائعاً له بريق متقزح فوق جلده الصقيل باللفتنة والرشاقة في كل حركاته رغم أنه يمشي فقط ! إنه يتخايل كالملول ! وامتلأ قلبي بالدهشة والسرور • وكررت في نفسي : « هاهو الحصان العربي الأصيل ! » وانجذبت الى هذا التجسيد لأحلامي بقوة مغناطيسية ولكن عندما حاولت لمسه انتصب أمامي بدوي نحيل ذو لحية ومرّ بجانبي بهدوء بصورة طبيعية مما جعلني أتوقف غير واثق • ويبدو أن البدو متلازمون مع الحصان العربي كما يتلازم النخل مع الكثبان الرملية ابتعد

البدوي بالحصان ليس بواسطة الرسن (لأن السايس قد فك حبل القيادة من الرسن) بل بالكلمات الناعمة .

وبدا لي للحظة أن الحصان يحرس بغيرة ولكنني كنت مخطئا . عند مدخل الاصطبل استدار الحصان وعاد جرياً — دون موانع — الى حيث وقفت مع الضابط . وقف أمامي يصهل بسرور فلمست خطم جبهته وعرفه ورقبته القوية وظهره الذهبي العريض ورفعت قدمه وتحسست عضلاته وحاولت غرس يدي في لحم ردفه القوي المستدير كما رفعت قبضة من شعر ذيله الحريري النامي ووضعتها على خدي ، إن جماله أثار في داخلي مشاعر عميقة ولا أخجل من الاعتراف بذلك . انها بداية « جنون الحب » الذي حملني على المغامرات الرائعة والأيام الحلوة في صحبة هذه الحيوانات النبيلة كما أنه جلب لي الساعات الطويلة من المآسي ولكنه لم يفشل أبداً خلال سنوات خبرتي الثلاث والعشرين الماضية في أن يجعلني أحياناً آمل أثناء فترات كآبتي أن تكون هناك خيول عربية في الحياة بعد الموت .

وتحدثت مع ذلك البدوي — راعي الحصان الغامض ورجل البرية — الذي عرفني بحرية على أسرار تربية الخيول وسلالاتها وموطن الخيول العربية الأصلي . إنه أحضر هذا الفحل الى خديوي مصر كهدية من زعيمه .

ليس هناك شك في أن الحصان أصيل من سلالة نقية . فرأسه قصير نوعاً ما ويشبه بروفيل رأس الغزل الهرمي . كان الحصان يحركه الى الأعلى ويصهل صهيلاً متقطعاً عدة مرات بروح عالية . أما فمه ذو الشفة السفلى الصغيرة القوية فقد تلاعب بشرابات رسنه الزاهية بانفراج عن أسنان عاجية براقة . أما فتحتا الأنف الكبيرتان الرقيقتان

العريضتان فتشبهان رؤوس تويجيات الزهرة أو صدفات وردية رقيقة • وفوق العينين السوداوين بأهدابها السوداء اللامعة الطويلة جبهة بارزة وعانية كالترس • ورأسه عريض بين الفكين وله فجوة مقعـرة لعظمـة الأنف بكاملها وبذلك يتم التعرف على نسبة العريق • وانحناء القصبة الهوائية يبلغ أوجه في الحنجرة المقوسة الرائعة • وكفاف الرقبة يشبـه موجة متطاولة ينساب منه العرف الحريري بمويجات براقة • أما أذناه الصغـيرتان المستقيمتان المتجهتان نحو الداخـل فقد تراقصت مثـل « الزنبقات المهتزة في الماء الجاري » • وتراقص جسمه النحيل الرشيق كله بقوة مطواعة • وصدره عميق مهيب وكتفاه المائلان يمتازا « بحركة السباحة » • وظهره قصير وعريض وواضح الاتصال ومثالي للسرج • وعضـلات العجز قوية وهي ــ كما يقول البدوي ــ سر قدرتـه على « التحليق » و « التوازن » • والذيل الطويل من الشعر الناعم الـذي يرتفع بقوس كامل ثم يسقط نحو الأرض كبرقع ثقيل يستدق حتى نهايته والفخذان ــ كفخذي النعامة ــ ناميا العضلات وقوائمه خفيفة ولكنهـا قوية ورشيقـة ذات أرساغ مرنة طويلة قويـة وحوافر سوداء صلبـة كالصخر • إنه متناسب ومتوازن حتى الكمال يبلغ ارتفاعه نحو خمس عشرة قبضة (١٥٠ سم) ليس بالكبـير ولا بالصغير وفوق متوسـط الحصان العربي الذي يبلغ عادة / ١٤٫٧٥ / قبضة (= ١٤٧٫٥ سم) • وشعره الحريري الناعم لامع كالمرآة • وأثناء النظر اليه لم أعد استغرب لماذا سمي البراق الذي حمل الرسول الى الجنة **ورخش** حصان رستم الشهير « بالخيول البرّاقة » •

هذا « الحصان العربي الصحراوي » يشكل فصيلة متميزة • إن له خمس فقرات قطنية بدلاً من ست وعدد أقل من المعتاد مـن فقرات الذيل /١٦/ بدلاً من /١٨/ فقرة • إنه يختلف عن الخيول الأخرى

ثم أن له حوضاً متطاولاً وقحف دمـاغ بارز « بروفيلاً » منخفضاً فكان سنليا نحيلاً مستدقاً .

ولكن المعلومات الهامـة التي يتوجب على مربي الحيوان العربيـة جميعها هي « سر » السـلالات والأنـواع بـين حيوانات الصحراء البادية .

السلالات :

السلالات المتعددة للخيول العربية تختلف كثيراً عن بعضها وتصبح أنواعاً متميزة . ودراسة هذه السلالات وعائلاتهـا كانت عملي الخاص لمـدة سبعة عشر عاماً توجب عليّ خلالها أن أتعلم قراءة وكتابة اللغـة العربية لئلا أعتمد فقط على التقارير « الشفهية » للبدو الرحل ولأتمكن من البحث بنفسي في المخطوطات القديمـة وأقارن تقارير القدماء مـع تقارير عصرنا .

ودهشت حين وجدت بعد سنوات كثيرة من البحث والدراسة أنه يمكن تمييز ثلاثة أنواع من الحصان العربي من بين عشرين سلالة وأكثر من مئتين وثلاثين فرعاً وعائلة . وكل هذه الأنواع والعائـلات تصبـح نوعاً من الثلاثة أنواع المتميزة . والأنواع الثلاثة الرئيسية هي :

١ ــ الكحيلان الذي يمثل القوة وهو النوع الأولي أو الأصيل في جزيرة العربية إنه حصان مثالي للركوب والفروسية . قوي ، ممتلىء ذو طاقة احتمـال كبيرة . وحتى أفراس سلالـة الكحيلان ذات مظهر ذكري .

٢ ــ الصقلاوي الذي يمثل الجمال وهو النوع الرشيق المصقول

« نخبة » الجزيرة العربية وهو أروع وأجمل الخيول جميعاً • وحتى فحول سلالة الصقلاوي ذات مظهر أنثوي •

٣ ــ المعنقي الذي يمثل السرعة•إنه « صنو » الحصان الانكليزي وهم أجداده (حصان دارلي العربي لعام ١٧٠٥) • والمعنقي دو خطوط طويلة • إنــه نحيل وأطول مــن الخيول الأخــرى وقلما تمتاز ببعض خصائص الخيول العربية التي نجدها في سلالة الكحيلان والصقلاوي • والمعنقي هو حصان « السباق أو الجري » • ولايزال هناك سبع عشرة سلالة أخرى ولكنها تعود بسهولة الى السلالات الثلاثة المذكورة أعلاه : فالهدبان والحمدان يقعان ضمن مجموعة الكحيلان • والهدبان ذو شعر طويل خشن في الشتاء وهو إما بني كعجل البحــر أو كستناوي غامق • والحمداني أثقل نسبياً وهو غالباً رمادي حديدي•أما الجلفان والربدان؟ وأبو عرقوب فإنها من حيث النوع وصلة الدم جزء من سلالــة المعنقي السريع الممتلىء ولكن رؤوسها أطول • وحصان غودولفين العربي ينتمي الى الجلفان • إنها ذات قوائــم أعلى وأجســام أطول حتى من المعنقي (دارلي) • والدحمان ينتمي إلى الصقلاوي وهكذا •••

واسم السلالة موروث من الأم لا الأب• فالبنية والحجم (وبالتالي النوع أيضاً) هي من خصائص الأنثى • ولذلك فإن من المهم جــداً أن التزاوج النقي يجب أن يجري ضمن نفس السلالة أولاً•وإذا تعذر ذلك فبالامكان مزاوجة الفحل والفرس من السلالتين الأوليتين ولكن لاتسمح بتزاوج المعنقي (النوع الثالث) إلى أيــة سلالة متصلــة بالكحيلان أو الصقلاوي (النوع الأول والنوع الثاني) اذا كان المطلوب هو الميزات العربية الخاصة من حيث القوة الخارقة والاحتمال والجمال والانسجام والرقة • والمعنقي أيضاً فيه هذه الميزات أيضاً ولكنها ليست بارزة لأن المعنقي حصان سباق أولاً وأخيراً •

هذا هو باختصار « سر » تربية الخيول العربية • حقاً إنه بسيط جدا ولكنني اضطررت لقضاء ١٧ عاماً في الارتحال ودراسة تربية الخيول حتى وجدته •

والصور المرافقة تشرح أفضل من الكلمات الأسباب المختلفة التي تجعل — مثلاً — الفحل الكحيلان والفرس المعنقي ستنجب وليداً بشعاً • تصور البنية الكبيرة الطويلة للفرس التي سيرثها الوليد • ستكون الرقبة « ضخمة » والعجز ثقيلاً ذكورياً ولا يصلح للسباق وكحصان عربي سيكون غليظ الرأس والمظهر العام•واذا كان الأب صقلاوياً والأم معنقاً فستكون النتيجة أسوأ • حصان سباق رشيق نحيل مصقول جداً ولكنه ذو رأس غليظ فوق جسم جميل • ولكن الوضع سيكون مختلفاً عندما يكون الولدان من سلالات تزاوجت بحرية مع أنواع متعددة (وإذا كان مسكناً الأنواع الثلاثة) • في تلك الحالة وبعد عدة أجيال « ستصحح » الأخطاء ونحصل على حصان جميل ومتوازن رغم أنه ليس حصاناً نموذجياً •

من المبالغة أن نقارن هذا التزاوج بتزاوج الكلاب السلوقية (معنقي) وكلاب البلدغ الضخمة (الكحيلان) أو كلاب الكولي (الصقلاوي) لاستحالة هذه المقارنة ولكن « الصورة » يمكن أن تعطينا فكرة عما حدث لتشويه وتبديد الدم الثمين لسلالات الخيول العربية النقية والمترابطة •

وبما أن معظم مربي الخيول في أوربا وامريكا يتحدثون عن « العظام والحجم » أكثر مما يتحدثون عن أي شيء آخر — وهما الميزتان الموجودتان في المعنقي — فمن الطبيعي أن يتم اختيار المعنقي في الماضي « لتحسين » عظام وبنية الخيول العربية •

ولم تعد اسماء السلالات العربية بالنسبة لمربي الخيـول في أوربا وأمريكا أكثر من أنها أسماء تطلق على السلالات • ولكننا نعرف اليوم أنها كانت وستبقى الوسيلة لتفهـم « خطوط النسب » (السـلالات وفروعها) التي يتألف منها الحيوان الفردي عبر أسلافه •

حاولت اكتشاف « نوع » رابع إضافة الى الانواع الثلاثة المذكورة ولكن بلا طائل حتى الآن ومن المرجح أنه لن يكون بالإمكان إضافة نوع آخر • لقد تفحصت بعناية أكثر من مئتـين وثلاثين سلالة وعائلة مـن الخيول العربية ووجدت من السهولة تسجيل كل منها في أحد الأنواع الثلاثة • ان اختلاط السلالات والأنواع بين الخيول « الشرقية » العادية (أو لنقل « المهجنة ») مربك حقاً • إنها عادة حيوانات عالية القوائـم رغم أنها في الغالب خيول عربية « نموذجية » ولكنها خادعة إذ لاتظهـر اصالتها إلا بالأفعال وإلا فإننا ندرك على الفور تناسبها الخاطىء وعـدم انسجامها أي أنها نتيجة تزاوج نوعين متعاكسين •

الرأس : يحمل رأس الحصان العربي أهم ميزات السلالة كنوع فردي خاص في الخيول • العينان الصغيرتان أو البروفيل الطويل المستقيم أو حتى ذي الأنف الروماني . أو العجز المائل : أو الذنب الـذي يتدلى مستقيماً بين العرقوبين . أو القصبة الهوائية الضيقة (الفجوة الضيقـة بين عظمتي الفك) هذه الخصائص مؤشرات مبدئية ومؤكدة بأن الحصان « العربي » الذي تتجلى فيه هذه العيوب لا يمكن أن يكون من السلالات البدوية النقية •

والجبهة العريضة والبارزة دليل على نقاء السلالة كما أن البروفيل المقعّر دليل آخر وفتحتا الأنف يجب أن تكونا دائماً مفتوحتين نوعاً ما على ألا تكون مسطحة • و « الجعدة » تبدأ فوق خط البروفيل وتمتد

قطرياً لخط بروفيل الخطم و « الوجه » السفلي لا موازية له • والشفة السفلى يجب أن تكون صلبة جداً وصغيرة ومتراجعة نحو الخلف • عظمة الربط المتميزة تحت العينين سمة مرغوبة ويجب أن تكون العينان كبيرتين جدا والبشرة العارية حول العينين سوداء مبللة كالكحل (الذي اشتق منه اسم السلالة القديمة « كحيلان ») • وبشرة الحصان العربي الأصيل سوداء ولكن الشعر ليس كذلك بل ربما بنّياً كستناوياً أو غامقاً رغم منظرها المائل للسواد • والخيول العربية غالباً رمادية (تنقلب إلى بيضاء في سن الثامنة أو التاسعة) أو كستناوية أو بنية . والأذنان صغيرتان وقصيرتان نوعاً ما ؛ والعرض بين عظمتي الخدين كافياً ليسمح بإدخال قبضة اليد بسهولة • و « عظم » الحصان العربي ربما لايبلغ المحيط القياسي ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن كثافة الخلايا هي الأكثر أهمية من الحجم كما في حالة العوارض الفولاذية • فالحصان العربي يتمتع بعدة مزايا « مركزة » • إنه حيوان صحراوي ينقصه عادة الطعام والماء الكافيان ولكن ليس له مثيل في تحمل الحر والبرد والجوع والعطش والحرمان والمصاعب الأخرى •صحيح أن الحصان الصحراوي يبدو هزيلاً بائساً في موطنه الأصلي ونحتاج للخبير لينفذ بصره عبر هذا المخلوق التعيس ويتعرف على مزايا السلالة والخصائص الممتازة • لكم تختلف عن الأحصنة المتلئة الطافرة في سورية ومصر تلك الحيوانات الطافرة في سورية ومصر تلك الحيوانات المملوءة حيوية تسر الناظرين • لكن المظاهر خداعة غالبا • فالخيول الصحراوية — رغم أنها هزيلة جدا على وجه العموم — تسترد عافيتها بسرعة عجيبة وتصبح — بالعناية اللازمة والطعام — تحفاً في الجمال والكمال أستطيع عرضها بالصور الفوتوغرافية »

« الخمسة » • هذه الكلمة يمكن قراءتها في كل كتابة ومقالة حول

الخيول العربية • من المفترض أن النبي ص[1] اختار الأفراس الخمس الأولى وسمّاها بأسمائها التاريخية : الكحيلة ، والعبية ، والصقلاوية والحمدانية . والحدبان • هذه خمسة أسماء فقط من أسماء السلالات العشرين المختلفة • لقد أوضحت سابقاً أن ثلاثة أسماء فقط ذات أهمية خاصة لدى مربي الخيول الجدي • فالسلالة التي تحمل اسماً ولاتمثل نوعاً متميزا لاتهمنا على الإطلاق • والأسماء تسبب الارتباك عندما لاتعني شيئاً • في رأيي أن كلمة « الخمسة » لاتعني سوى طريقة قديمة للعدّ على الأصابع الخمسة أشهر سلالات الخيول العربية التي يمكن « تزاوجها » دون أية موانع • أما المربّون الافراديون فقد حصروا المفضّل لديهم ومع مضي الوقت والاختلافات الجغرافية تغيّرت « الخمسة » بطرق مختلفة •

« الفرس » هي الاسم النوعي للخيول عندما يتحدث البدوي عن فوائدها في الحرب والقنص والغزو و « الفارس » هو الرجل أو الشاب الذي يخاطر وحيداً إلى معسكر العدو ويجلب معه فرساً أسيرة وبعد ذلك يسمح له بحضور « المجلس » حول موقد الزعيم • ولورانس الذي سماه والده طراد بن صطام الشعلان الرولي باسم الكولونيل لورنس هو أصغر فارس عرفته بين البدو • فلم يكن يتجاوز التاسعة من عمره عندما « أخذ » فرسه الأولى من بين أعدائه •

يتحدث البدو بلغة الشعر عن « شارب الريح » و « الخيول البراقة » و « المغنية » و « الخيول اللامعة » و « الخيل المتلوث » و

---

(١) لم يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذه التسميات الا انه اورد حديثا يصف خمسة انواع من الخيول استنادا للونها لالسلالتها .

« محمود الجسيع » و « النظر الى الكميت يمشي تحتي كغصن مرن » •

تكثر الأساطير الشعرية والقصص الخرافية في الأدب العربي والتقاليد العربية حول جواد الصحراء المجيد وخصوصاً منذ بداية التاريخ الاسلامي • ورغم هذه الثروة من المعلومات فلا يبقى بعد غربلتها سوى القليل من الذهب ومع ذلك فانني أعترف بأنني غالباً ماسررت كثيراً لدى قراءة ودراسة هذه القصص الخرافية المزورة عند هؤلاء الكتاب القدماء • والكلمة المكتوبة أقل ثقة من الطريقة البدوية القديمة في الانتقال الشفوي من الذاكرة فالتراث ينتقل من الأب الى الابن شفهياً • ولكن هناك الكثير من المصادر الأدبية الموثوقة حول الحصان العربي وهي ذات أهمية خاصة لأنها لايمكن أن تنشأ بين بدو الصحراء البسطاء • وقد ساهم الزعماء الدينيين وأعمال الفاتحين المسلمين وغنى وعظمة الرسول وخلفائه والسلاطين والملوك والشاهات ومهرجات الهند في وضع بساط سحري تحت حوافر الحصان العربي الأصيل ـ هذا البساط الذي لن يزول أبداً مابقي حب الحصان العربي يجد له مكاناً في قلوب البشر •

هناك قصة حول المهر الذي ولدته الفرس العربية البرية التي وجدها اسماعيل عند كثبان الرمل الحمراء في صحراء النفوذ • ويدّعي البدو أنه من خلال هذين الحيوانين ـ الأم والولد ـ قامت سلالات الخيول العربية بين البدو الرحل في الصحراء • وكل السلالات ترجع الى هذا الأصل ماعدا المعنقي • فالبدو المرتحلون على حدود العراق زاوجوا الشمال » (وهي فرس شمالية ـ فرس مجهولة عند بعض الشعوب الغربية غير البدوية) وفحلاً عبيانياً وكان المولود مهرة وهي المعنق الأول (الطويل العنق) • ويقال ان هذه المهرة تزاوجت مع فحل الكحيلان راس الفداوي ومن هذا التزاوج ولدت المهرة (شويحان) ومن

المفترض أن سلالة المعنقي الحالي هي أحفاد التزاوج الأخير • إنها تعتبر أصيلة ضمن سلالتها • ولايسمح لفحولها بالتزاوج مع السلالات « الخمسة » المختارة بل فقط مع المعنقي أو السلالات المتصلة بها : الربدان ؛ السحان ؛ أبو عرقوب الجلفان ؛ المخلد ؛ الكبيشان ؛ السعدان • ومايسمى « بعائلاتها » (مثال دلك الربدان ـ مشاجد والسحان ـ قبيئة الخ) والوع « الثابت » من المعنقي للسباق والذي نشأ عن مزاوجة فرس « الشمال » مع فحول عبيان ـ فيداوي ـ شويحان بقيت أصيلة على يد عائلة بدوية واحدة • إنها أنقى سلالة في الصحراء اليوم والفحل المعنقي ـ الهدرجي الشهير « قسمت » الذي وصل الى الهند والذي لم يهزم في حلبات السباق الآسيوية والأوروبية (١٨٩٠ ـ ١٩٠٠) هو آخر معنقي أصيل يخرج من الصحراء • وقد مات « قسمت » بعد مدة وصوله الى مزرعة السيد هنتنفتون في لونغ آيلند في الولايات المتحدة •

من الواضح إذن أن تربية الخيول العربية تتطلب معرفة السلالات• ولكنها ـ باستثناء المعنقي ـ بسيطة جداً ويمكن تعليمها بمساعدة اليد الواحدة ـ على الأصابع « الخمسة » • ولتربية الخيول الناجحة ـ بالطبع ـ من الضروري ليس فقط معرفة الأنواع الثلاثة معرفة تامة بل أيضا معرفة أكبر عدد ممكن من السلالات • ولكل سلالة علاماتها المميزة ـ أحيانا علامة واحدة فقط وأحيانا علامتان او ثلاثة • ولكن لكل من الكحيلان والصقلاوي والمعنقي علامات مميزة كثيرة في الرأس والمظهر الخارجي مما يجعلها تمثل أنواعاً متعاكسة ويمكن إضافة أية سلالة أخرى إليها : (الحمداني ـ الهدبان ـ الشويمان الى الكحيلان) (الريشان ـ الطويسان ـ الدهمان ـ والمعوج إلى الصقلاوي) والمعنقي إلى السلالات المتصلة به والتي ذكرتها سابقاً • والملواح ينتمي الى

العبياز » التي بدورها تشبه الصقلاوي أو هي تزاوج بين الصقلاوي والكحيلان .

فالجبهة العريضة البارزة بكاملها قصيدة نسبية وذات تفاصيل هي من خصائص الكحيلان وبالاضافة الى ذلك هناك الجسم القوي عريض المتمشيء والذي لايزيد ارتفاعه عن /١٤٣/ قبضة.والكحيلان في الغالب رمادي ينقلب إلى أبيض عندما يتقدم في السن . وإذا وجدنا مثل هذا النوع أكثر ارتفاعاً (١٥١) قبضة وظهره أطول وجبهته مستقيمة ولكنها عريضة وجبهته ليست قصيدة كما قدّمنا وشعره رمادي لكنه منقط بنقط ضاربة الى الحمرة فإن لدينا سلالة حمدانية (سمري) دون شك . ولكن توخ" الحذر فلربما كانت جلفان (سطام البولاد). في حالة الشك انظر إلى رأسه وقوائمه.فإذا كانت قوائمه مرتفعة وخط وفيل عظمة أنفه مستقيمة وطويلة إلى حدّ ما وربما « رومانية » قليلاً بـد أنه جلفان .

والآن للق نظرة على حصانين آخرين : كل منهما كستناوي ذو بريق ذهبي على شعره وكل منهما رشيق ورائع في العمل والحركة . أقترب من البدوي وأطلب منه أن يسمح لي بركوب فرسه . وعندما رجل آخذ أحد العنانين من يده وأمسك الفرس من الرسن قرب رأسها. تأمل الرأس : الجمجمة قصيرة والخطم دقيق وفتحتا الأنف رقيقتان الشفة السفلى صغيرة جداً والعينان واسعتان والجبهة عريضة ولكنها ليست بارزة والانهدام تحت العينين مقعر عميق . والآن أضع قبضتي طبقة بين عظمتي الفكين : إنها لفجوة واسعة والآن إلى الجسم : ظهر قصير ولكنه يغطي الكثير من الأرض تحت الأقدام الأربعة وخط المعدة أطول من المتوقع ، عجز قوي ، وذيل مرتفع مباشرة من خط المستوي

الراسخ الذي يمتد من خلف حارك الفرس الى العجز ، كتفان قويان مائلان كثيرا في توازن كامل مع الجزء الخلفي ، ورقبة طويلة عالية • والقوائم ؟ ربما كانت نحيلة ولكنها « مركزة » جدا مثل العاج • والمفاصل الركبتان والعرقوبان كبيران ولكنها نظيفة كالراسغ ، نوابض حقيقة
الركبتان والعرقوبان كبيران ولكنها نظيفة كالراسغ ، نوابض حقيقة
مرنة وقوية • عندها أصرخ : « صقلاوية ! » فيجيب البدوي «جدرانية» إنها صقلاوية من عائلة جدران • وأنطلق بها •••

يمتاز الصقلاوي بالحركات الرشيقة جداً • إنه يحب اللعب وهو حصان طبيعي رائع • كما أنه يمتاز بالسرعة أكثر من الكحيلان بقليل ــ وقوة الاحتمال أيضاً ــ ولكن ليس بقدر الكحيلان • وعند العودة اطلب من البدوي الآخر أن يسمح لي بتفحص فرسه التي هي تقريباً أخت للفرس التي ركبتها • وعندما أمسك برسنها ويتسنى لي الوقت لتفحص رآسها أرى على الفور أنها معنقي سبيلية (وليست معنقي هدرجية : الأمر الذي يجعلها فرس سباق حقيقية) • قلت أنني عرفت على الفور أنها معنقي سبيلية وهذا صحيح ولكن أنها ليست في حالة حركة فمن السهل رؤية عيوبها وتحديد سلالتها • في المقام الأول إنها تظهر النقاط البارزة الثلاث التي تعتبر معايب هذه السلالة والعائلة : العينان الصغيرتان والانهدام الضيق جداً بين عظمتي الفكين (لامكان إلا لأصبعين فقط) والقوائم العالية • وبالاضافة الى ذلك فإن كتفيها سيئان ومستقيمان تقريباً وحاركيها منخفضان وعجزها مائل وذيلها بين عرقوبيها ، وأرسنتها طويلة جداً وبالتالي ليست كافية القوة وعندما أركبها فإن حركتها عصبية ووثابة • وإذا لم يكن خط المعدة كافي الطول فإن فشخات الحصان « تسحب » بخطوات قصيرة « حادة » بعكس عمل الصقلاوي اللعوب الرشيق المرن الطويل الحر •

والميزات البارزة للسلالات الأخرى هي : ظهر العبيان «المتأرجح» نوعا ما ، واللون الكستنائي وغياب أية علامات في المعنقي الهدرجي . اللون الكستناوي الذهبي وقوائم الصقلاوي المحجلة . اللون البني وتحجيل البحر والجسم القوي الطويل في الهدبان والشويمان رغم أن ظهر الهدبان قصير وراسه أقصر من رأس الشويمان وهو النوع القوي الذكوري الملائم للسباق . والخيول العربية الكستناوية الكبيرة — إذا كانت أكثر من ١٥,٣ ، واجسامها صالحة للسباق فهي معنقي أما إذا كانت رمادية أو كستناوية — حمراء ومرتفعة القوائم فهي أبو عرقوب جفلان .

والأساطير العربية حول خلق الحصان العربي تذكرنا بالأساطير اليونانية الكلاسيكية التي تتحدث — بطريقة مماثلة — عن القدرة الخلاقة لريح الجنوب أو الغرب . موفقاً للرواية العربية فإن إحدى أكبر النعم الإلهية للانسان في الدنيا أو في الأخرة هي صحبة الحصان العربي . ويقول المؤرخ ابن هشام الأسطوري — ولكنه رومانسي — هو أن والده محمد ذكر له الحديث : « اسماعيل بن ابراهيم هو أول مخلوق ركب الحصان وأول مخلوق يتكلم اللغة العربية (لغة الملائكة) ويرمي السهام من القوس . وإكراماً له أحضر الله مئة جواد أصيل من شاطئ البحر فرعاها اسماعيل قرب مكة . » في القديم كانت مكة وخيبر المدينتين عند العرب الرحل كما كانتا « مركزي التجارة » الرئيسيين .

والنبي محمد (ص) لم يُرَبِّ في الأصل الخيول العربية ولكنه حصل عليها بصورة مباشرة أو غير مباشرة من بدو الصحراء وغالباً بطريقة غير مباشرة عبر مصر أو الخليج العربي كما يشتري تجار الخيول حسان في القصيم ووسط الجزيرة الخيول من البدو في شمال الجزيرة

والعراق ويأخذونها الى سورية ومصر • ومن هؤلاء التجار انفسهم تصل بعض الخيول إلى البحر الأحمر واليمن أو الحجاز ومن هناك الى نجد أو من العراق عبر الخليج العربي الى الكويت والبحرين ومن هناك أيضاً ــ كما لاحظت شخصيا ــ إلى الأحساء والرياض في أواسط الجزيرة والرمال الحمراء في صحراء النفوذ ــ ناهيك عن الصعوبات العشائرية والسياسية ــ تمنع (ويمكن ان تكون منعت في العصور القديمة) جلب خيول بدو شمال الجزيرة مباشرة الى الحجاز مما أوجب شحنها عبر مصر •

وأصبح النبي (ص) فاتحاً عظيماً بعد أن اجتمع لمساعدته ألف فارس من الصحراء • ثم هزم خلفاؤه بفرسانهم المناطق التي لم يستطيعوا إخضاعها من قبل وفيما بعد حمل هؤلاء الفرسان راية الرسول المظفرة عبر شمال أفريقيا وإلى أعماق أوربا •

وهنا أسمح لنفسي أن أذكر بشكل مختصر عدداً من الملاحظات عن البدوي وحصانه فحتى محمد علي وعباس باشا دفعا نحو ثلاثة آلاف جنيه في الصحراء ثمناً لحيوان ممتاز كما دفعت لجان استبدال الخيول / ١٦٠٠ / جنيه ثمناً لفرس واحدة • والأثمان التي يطلبها مربو الخيول في أوربا وأمريكا ثمناً للحيوانات الجيدة ارتفع من ثلاثة آلاف إلى سبعة آلاف جنيه للفحل الأصيل من الدرجة الأولى •

والخيول العربية نادرة جداً اليوم للأسباب التالية : معظم الاصطبلات العربية في أوربا اختفت تماماً لضرورات الحرب ، والأحوال السياسية في الجزيرة العربية خلال العشرين سنة الماضية ، والحروب العشائرية بالأسلحة الحديثة والسيارات ، ولا مبالاة البدو تجاه تربية الخيول الأصيله التي أصبحت « فناً ضائعاً » اليوم ، والطلب على خيول السباق

العربية في بولندا ومصر وسورية والعراق والهند وخصوصا الطلب على الانواع الاكبر والأسرع وبالتـالي تربيـة المعنقي والسلالات المتصلـه بها • وبما أن الحجم والبنية والمظهر الخارجي هي الأمور الهامة فحتى الانسان العادي لن يختار حصانا لجماله بل لبنيته وخصائصه التي تبشر بالسرعة • « لانستطيع ان نركب على رأس الحصان العربي الجميل ! » عبارة تهكمية ولكنها صحيحة بالنسبة لخيول السباق العربية •

علينا أن نربي الحصان العربي الأصيل للحفاظ على الـدم الثمين ونترك السرعة لخيول السباق — علينا أن نعتمـد على السلالة النادرة للحصان العربي لنحصل على بعض خيول الركوب والفروسية وربما على السلالات الأخرى في الأقطار المختلفة مثل المورغان والكنتكي في أمريكا وخيول البولو في الأرجنتين وخيول الفروسية في هنغاريا وخيول « الدم الدافىء » في ألمانيـا •

لم يعد البدوي العادي يربي السلالات الأصيلة أو فروعها رغم أنه لن يستعمل الخيـول إلا إذا كانت صحراوية • في الاحساء والحجـاز أفسدت الخيـول التي خلفها الأتـراك في المدينة والطائـف والهفوف السلالات في نجد (الرياض وحايل) والأماكن الأخرى في أواسط الجزيرة ولكن هناك أملاً في أن يعين ابن سعود ملك الجزيرة العربية شخصاً عالماً بالسلالات الأصيلة لإقامة اصطبلات تربية الخيول قـرب حايل وخيبر والرياض • خلال الشتاء والربيع يسكن لأفراس هذه الاصطبلات أن ترعى في النفود المجاورة وتترك مع أمهارها تحت ظروف مشابهة لظروف خيول البـدو والرحل حيث تتوفـر الأعشاب الطازجة وحليب الجمال لتغذية الفرس الحاضنة •

ويمكن ركوب الفرس حتى يوم ولادتها • ولايسمح لها بالتزاوج

ي بعض السنوات حين يتوقع أصحابها ــ مثلاً ــ أن يقوموا بالغزو او حين تسلك القبائل طريق الحرب . تفصل الذكور الصغيرة عن امهاتها وتقتل إذا كانت المراعي فقيرة والمواسم سيئة ولايتوقع هطول الأمطار الكافية مما يؤدي الى نقص في حليب الجمال اللازم لتغذية الخيول وأمهارها . ويفضل البدو إنقاذ الفرس والمهرة دون المهر . والفحول لاتخصى ابدا . وتعار الأفراس للغازي الناجح إذا وعد باقتسام الغنائم مع مالكها . في المعسكرات تقيّد الفرس بزوج من القيود الصوفية وعندما يقترب العدو أو أثناء الليل تستبدل بقيود حديدية وأقفال . في معظم الأوقات تكون هذه الحيوانات المسكينة شبه جائعة وتبدو هزيلة ومع ذلك من المدهش كيف تستجيب لنداء صاحبها والجري في الغزوات وعندما يربط الفرس حزام شداد جمل السباق فإنها تعاني اقسى أشكال الحياة ومصاعبها الهائلة . ومع ذلك فإن الأفراس البدوية ذات المظهر السيء في مخيمات البدو هي أفضل الخيول ، بينما الأفراس الممتلئة الجيدة التغذية لاتستعمل أثناء الغزو . والمال (أي الذهب) لايعني الكثير للبدوي العادي رغم أنه يمكن أن يعني « كل شيء » لشيخه زعيم القبيلة . وبيع الفرس يعتبر تخلياً « مشيناً » عنها . يمكن للبدوي أن يهدي الفرس . ولكن الأيام تتبدل إذ يمكن الآن أن تقايض أفضل الأفراس بالسيارات والأسلحة الحديثة .

ورغم أن البدوي يمكن أن يكون فقيراً فإنه يحظى بالاحترام عندما تجلب له فرسه الفخار لدرجة أن أصدقاءه يقفون إجلالاً لفرسه عندما يدخل مجلس الشيخ . وعندما يمرون بجانبها يضعون أيديهم على جبهتها ويدعونها المباركة .

والحصان في الصحراء لايسر في مراحل الترويض فمنذ اليوم الأول

نداعب النساء والاطفال المهر الصغير ويلاطفه الجميع وعندما يكبر يبدأ الأطفال بركوبه وفيما بعد يركبه الشباب وفي النهاية يشترك في الصيد والغزو والحرب •

وأعظم خصائص الخيول العربية هي قدرتها على الاحتمال وهناك سجلات رسمية بذلك في أمريكا وانكلترا وهنغاريا وبولندا وروسيا وألمانيا ومصر وتركيا وأماكن أخرى • فالخيول العربية أو الخيول ذات الدم العربي نالت الجوائز الأولى أو الجوائز الأخرى في سباقات الاحتمال •

والحصان العربي يعيش / ٨ — ١٢ / سنة أكثر من الحصان الأوربي المتوسط • وكان لدي فحل أنجب في سن الثانية والثلاثين من عمره وأعرف فرساً في الجمعية الزراعية المصرية أنجبت بانتظام حتى سن الخامسة والثلاثين • وعندما تربى الخيول العربية في أوربا أو أمريكا يزيد طولها بعد عدة أجيال مقدار / ١ — ٣ / بوصه والسبب في ذلك هو العناية المنتظمة والطعام والشراب • ولكن الخيول العربية لاتسوء بسبب المناخ والماء والغذاء رغم أن الأغذية الطرية تجعل العضلات « رخوة » ولكن هذه الخيول تسوء بسبب اختلاط السلالات والأنواع • هناك حالياً حوالي ٥ر١/ مليون حصان « عربي » أو أكثر (يجب أن تسمى « شرقية ») ولكن بالاضافة إلى مالايزيد عن ثمانمئة حصان صحراوي من الدرجة الأولى في الجزيرة العربية هناك ما لايزيد عن خمسين حصاناً مشهوراً في كل قارة أوربا ونحو مئة حصان في انكلتره ومثلها في الولايات المتحدة وربما ثلاثمئة حصان في بقية أنحاء العالم (العراق ، مصر ، الهند .. الخ) أي لنقل نحو ألف وخمسمئة حصان في العالم بأكمله • لقد نفحصت آلاف الخيول العربية في الصحراء ومثلها في العراق وآسيا

الصغرى وسورية وشرق الأردن وفلسطين ومصر وزرت الاصطبلات الشهيرة في أوربا وأمريكا وأستطيع أن أقول بكل ثقة أنني لم أر أكثر من /١٦/ فرساً أحب امتلاكها وسبعة فحول مساوية لهذه الأفراس الممتازة . ورغم أنني صدّرت خيولاً كثيرة من الصحراء (بالطبع كنت دائماً محدود الامكانيات المادية) فإن أفضل فرس (مهرة) وضعت يدي على جبهتها وجدتها في مصر — حيوانات ذات نسب صحراوي من مزرعة علي بشا شريف — وأفضل فحل عربي في انكلترا من السلالة الصحراوية في مجموعة الليدي آن بلنت . يمكن أن تكون الصحراء مهد الحصان العربي ولكن القليل من البدو يحافظون على الدم الأصيل اليوم . وإذا باعوا مهرة من السلالات النقية فسيفعلون ذلك إذا كنت صديقهم الحميم لسنوات عديدة ومن الأسهل والأرخص والأسلم والأقل مخاطرة أن تشتري من الاصطبلات العربية المشهورة في أوربا وأمريكا . ورغم ذلك يجب بذل كل جهد ممكن — وربما للمرة الأخيرة قبل فوات الأوان — لتأمين /١٣ — ١٥/ من الحيوانات الممتازة من بدو نجد وإقناع صاحب الجلالة ملك العربية السعودية لإقامة /٢ — ٣/ اصطبلات في مملكته .

والبدوي يركب الفرس فقط وتحتفظ كل قبيلة بعدة فحول من السلالات المختلفة لأغراض التزاوج فقط . إنها لاتشارك في الغزو لأنها تصهل قرب الأفراس وتفضح الغزاة لدى أعدائهم . ومعظم الفحول الصغيرة يشتريها تجار الخيول في أواسط الجزيرة العربية ويبيعونها إلى سورية ومصر والعراق . يركب البدوي حصانه دون لجام ودون سوط ودون مهماز ودون غمامات . إنه طراز شمال افريقيا ولكنه ليس عربياً . وكقاعدة عامة أيضاً يركب البدوي الحصان دون سرج ودون عنان وبمجرد عذار وحبل وحيد .

وتربط خرزة زرقاء زجاجية في عرف أو ذنب الفرس أو شعر سنام

الجمل لتجلب « الحظ السعيد » ويعتبر الشعير والتمر وحليب الجمال الاغذيــة المقوية التي تتناولها الفرس عندما لا يكون هناك ما يكفي من أعشاب المراعي . وتعتبر كمية / ١٥٠ ـــ ٢٥٠ / كغ من الشعير كافيــة لتغذية الفرس خلال السنة . ولكن هناك حاجة ماسة للغذاء الأضافي في الربيع أثناء فصل الغــزو . وتبلغ المسافة التي تقطعها الفرس ومهرهــا ١٨٠٠ ـــ ٢٥٠٠ ميل أثناء الارتحال التقليدي . أما الغــزو فيعني مسافة إضافية قدرها / ٣٠٠ ـــ ١٠٠٠ / ميل . والخيول العربية هي أسرع خيول العالم في المشي نتيجة لمشيها بجانب الجمال أثناء حملات الغــزو .

وللمناخ في الجزيرة العربية بالطبع علاقة بتوالد وتطور هذه الخيول البدوية . إنها تتجول دائماً في السهول وعبر النجد الذي يبلغ ارتفاعه ٦٠٠ ـــ ١٠٠٠ / متر . وتهب الريح الجافة باستمرار عبر هذه البرية معطرة بالأعشاب الصغيرة والأزهار التي كانت دائماً مصدر سروري . ليس هناك ركود كما في المناطق المستوطنة في الجزيرة . فالترحال هــو الحياة وحصان الصحراء ـــ رغم تعرضه للمصاعب والأخطار ـــ يخرج منها نتاجاً أروع من الحصان المولود والناشيء في الواحات . إنه بالفعل اختبار البقاء للأصلح الــذي حفظ الخصائص الممتازة في الحصان العربي عبر القرون ويجب أن تتذكر أثناء تربية الخيول العربية موازنة العمل والغذاء تبعاً لذلك .

ذكرت سابقاً الخصائص العظيمة التي اكتشفت في جمجمة الحصان العربي الأصيل على أنه حصان قديم عاش نوعه النقي ليس لعدة قرون فقط بل لمدة ثلاثة آلاف سنة على الأقــل . فالحصان العربي لا حصان شمال أفريقيا لايــزال منبع سلالة الصحراء النقيــة . وأجداد الحصان

البربري أتت من جزيرة العرب ولكن بعد سقوط روما تزاوجت ذريته مع الحصان الأفريقي المحلي في أفريقيا وأوربا الذي مرّ عبر اسبانيا وإيطاليا وتركيا .

إن التناظر والتناسق والتوازن هو سر جمال وكمال الحصان العربي ولاتوجد إلا في النماذج الأصلية النقية كما شرحت سابقاً . هذه الخصائص الثلاث في الكمال الجسماني لها أسباب بنيوية أساسية يسهل شرحها . فالنقطة الأولى والهامة التي يجب البحث عنها في الحصان العربي الحالي في كثير من الخيول المصرية والسورية « الجميلة » الحسنة التغذية هي النسب الجيد . المفاصل يجب أن تكون نظيفة لا لنفاويــة كما هي الحال في كثير من الخيول المصرية والسورية « الجميلة » الحسنة التغذية وهي التي لاتستطيع احتمال حياة الصحراء القاسية . والفحل يجب ألا يمتاز بخصائص الفرس والعكس بالعكس . والخطوط الدائرية هامة أيضاً .

١) الجبهة	٢) بروفيل الأنف	٣) عظام الفكين
٤) الخلف	٥) الرقبة	٦) وضع الذيل

وما هو مهم جداً . الانحناء بين الرقبة والرأس عند اتصال الفكين

والشكل المثلثي هنا /\ هو برهان قاطع على النسب « الشرقي » العادي وبرهان قاطع على « الفجــوة » الضيقة (أو « المدخل » للقصبة الهوائية) بين عظمي الفكين : دليل على الاحتمال والتنفس الضعفين . وترابط الأضلاع والوركين قريباً جداً تاركاً فراغاً (٢ ـــ ٣) أصابع لاأكثر والخيول العربية العادية ليس ترابطها قريباً .

لاحظ وجود « فراغ » كاف بين المحزمة والقائمة الأمامية والحاركين

الحسني لتكوين وهي ميزة غائبة دائماً في الحصان « الشرقي » .

والحصان العالي القوائم هو حيوان له القليل من العمق في الصدر . وإذا ظهر الحصان العربي عالي القوائم أو هو كذلك بالفعل فلا نستعمله إطلاقاً للتزاوج .

والنقاط الأخرى التي تجب ملاحظتها هي : الخطان المتوازيان للجزء السفلي من القائمة الخلقية .

العرقوبان النظيفان المنخفضان كالركبتين برهان على قصر عظمة القسم السفلي من القائمة الأمامية وطول القائمة الأمامية وعمق الصدر .

الصدر العريض ـ حتى الصقلاوي الرشيق له صدر عميق وعريض

الخيول العربية البنية يجب ألا يكون لها قوائم كستناوية بل يجب أن تكون سوداء أو بنية . الرسغ يجبب أن يكون طوله كافياً على ألا يكون مائلاً لأن هذا عيب مميز للحصان السوري .

الرقبة يجب أن تكون طويلة متناسبة .

الكتفان يجب ألا يكونا مستقيمين .

الخلف يجب أن يكون طويلاً ولكن الظهر يجب أن يكون قصيراً ومستوى الجزء الخلفي والخط بين القوائم الأربع طويلاً إلى حد ما

يجب ألا يكون هناك ظهراً « كحد السكين » بل يجب أن يكون هناك نهدام وعلى جانبيه عضلات . بالنسبة لحمل الذيل المنبت هام جداً . فالفقرة الناقصة يجب أن تؤمن حملاً رشيقاً وقوة أكبر بسبب الرفع

الشكل « آ » يرينا الحصان المظلل الحصان العربي المثالي من وجهة النظر البيطرية ووجهة نظر تربيـة الخيول • والحصان في الشكل ب نموذج لكثير من الخيول العربية المزيفة (السورية ، الخ) • « فالمثالي » عال عند الحاركين والآخر عال في الخلف ولذلك فإن الرقبة عالية لإعادة التوازن والقوائم الخلفية تحت الجسم لتوازن الزاوية الخاطئة لعظـام الرضفة وهناك خط الكتفين المستقيمين • و « للمثالي » حرية أكثر ومرونة أكثر وهي مايفتقده النوع الآخر ــ وعلى سبيل المثال ، الأرض المغطاة بين القوائم الأمامية والخلفية في النوع العالي القوائم هي بكل وضوح أقـل •

الشكلان آ/ب : التكوين الصحيح والخاطىء للقوائم الخلفيـة والجزء الخلفي •

آ ــ التكوين الصحيح • لاحظ الخط الغـادن الذي يجب أن يقع عليه الخلف والعرقوب والرسغ ، والعرقوب النظيف وعدم وجود انتفاخ حول الثنة والبروفيلين الأمامي والخلفي لقصبة القائمة •

ب ــ في هذا التكويـن الخاطىء خطّا قصبـة القائمـة ليسـا متوازيين والرسغ والعرقوب منتفخان وخط الغادن عبر الخلف لايتطابق مع القصبة والثنّة •

والتفاصيـل التشريحيـة علـى مقيـاس أكبـر يرينـا الوضع الصحيـح والوضـع الخاطىء لعظـام الجـاعرة فوق العرقوبـين • في الصورة (آ) يحمـلان مركزيـاً فوق بعضهمـا وفي الصورة (ب) تعمل العظمة العليا لا متمركزة على حافتها السفلى وبالتالي تسبب إجهاداً كما تسبب مع الزمن تضخماً في العرقوب وغوراً تحت التضخم يرى في ب بينمـا ليـس هنـاك أي أثـر للتضخـم أو الغـور في آ حيث يمتـد الفخـذ بانحنـاءه خفيفـة إلى العرقـوب والرسـغ المنتفخان قلّما يعودان لأسباب مرضية بل إلى الطبيعة التي تتلاءم بتكبير

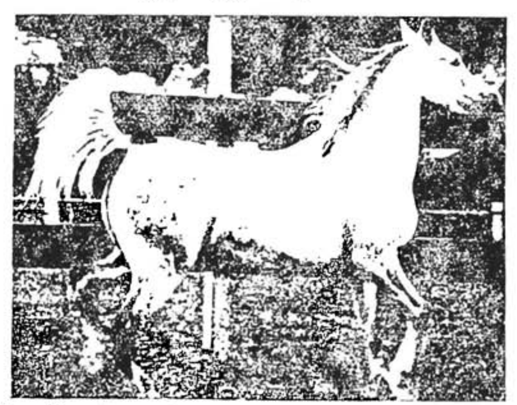
أوتار العضلات لتستص التوتر الناتج عن البنية التشريحية الخاطئة • مثل هذه العيوب التشريحية وراثية وبالتالي فهي تنقل الأعراض •

والفقرة الناقصة في العسود الفقري تجعل الحصان العربي ــ لهذا السبب أكثر قدرة على حمل الأثقال • والذيل يجب أن يستد برشاقة وبانحناء مرتفع من العجز ويجب ألا يبدو كمكنسة موضوعة تحت الجزء الخلفي كما لا يجب أن يتدلى بين العرقوبين •

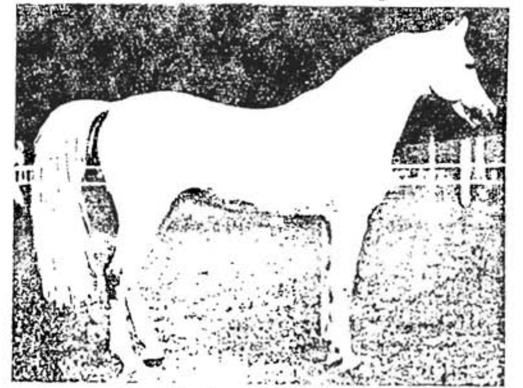
هناك نقاط أخرى يعتبرها البيطريون ومربو ومحبو الخيول العربية هامة ويرغبون في الإشارة إليها • ولكن النقاط التي ذكرتها ــ وتفاصيل وخصائص رأس الحصان العربي ــ تكفي لتمكن أي فرد من تفحص أي حصان شرقي ويقرر أصله وسلالته ونقاءه وخصائصه أو عيوبه ونقائصه •

* * *

اشكال الخيول العربية



الحصان الكحلاوي يمثل القوة ، لاحظ عضلاته الكبيرة الضخمة



الحصان الصقلاوى يمثل الجمال



الحصان العربي يمثل السرعة

نماذج من الخيول العربية

شكل (آ)



الحصان العربي المثالي

شكل)ب(



الحصان العادي



حصان السباق العربي



الحصان السورى

الفهرس

الصفحة

القسم الاول

ورثـة اسماعيل

القسم الثاني

الصيد والحرب

مؤلفات ومنشورات

المحامي احمــد غسان سبانو

١ ـ المــائة الاوائل (ترجمة) بالاشتراك مع الاستاذ خالد اسعد عيسى

٢ ـ مائة اوائل من تراثنا بالاشتراك مع الدكتور سهيل زكار .

٣ ـ تاريخ الشام ولبنان لمؤلف مجهول ـ تحقيق .

٤ ـ مذكرات تاريخية عن حملــة ابراهيم باشــا على سوريا ـ لمؤلف مجهول ـ تحقيق .

٥ ـ تاريخ الشـام ـ ميخائيل بريك ـ تحقيق .

٦ ـ هرمس بين الالوهية والنبوة اختيار نصوص وتحقيق .

٧ ـ لعنة الفراعنة (ترجمة) بالاشتراك معالاستاذ خالد اسعد عيسى .

٨ ـ الحسن البصري اختيار نصوص وتحقيق .

٩ ـ الخيام السود (ترجمة) بالاشتراك مع الاستاذ عبد الهادي عبله .

١٠ ـ الافادة والاعتبار رحلة عبد اللطيف البغدادي لمصر ـ تحقيق .

١١ ـ مياه دمشق ـ تحقيق مخطوطة ودراسة .

١٢ ـ دمشق مقالات مجموعة ـ اختيار نصوص .

١٣ ـ دمشق في المعاجـم والموسوعـات العربية والاجنبيــة ـ نصوص وترجمة .

المؤلفات الكاملة للعلامة احمد وصفي زكريا

تصدر باشراف وتحقيق احمد غسان سبانو

١ ـ عشائر الشام (جزئين)

٢ ـ جولة اثرية .

٣ ـ الريف السوري (جزئين) .

٤ ـ حيوانات وطيور بلاد الشام (نص محقق ينشر لاول مرة)

٥ ـ المسالك والممالك (نص محقق ينشر لاول مرة) .

٦ ـ رحلتي الى اليمن (نص محقق ينشر لاول مرة) .

